****

**لاتقـــــدم للعــرب والمسلميــــن إلا بالعــــودة إليـــــــه**

** **

**بقلم : منصور خليفة الحاجـــــــــي طرابلس – ليبيا 1434 – 2013 م**

**الفهـــــــــــرس** ...................................................................... 2

المقدمــــــــــــــــــــــــــــــــــــة .................................................................. 4

**شكــــــــــر وتقديــــــــــــــــــــــــــــر ............................................................................** 7

**(العرب أمة إسلامية) الفصــــــــل الأول**

جاهلية العرب إعداد من الرب ................................................................ 8

الكعبة المشرفــــــــــة ........................................................................... 9

العــــرب والإســـــــلام........................................................................... 12

محمد 12 – الرسول العربي 13 – أرض الإسلام 15

الإسلام في العالــــــــــــم ..................................................................... 17

أمة إسلامية عالميــــــــــــــة .................................................................. 20

حقــــوق الإنســــــــــــــــان ...................................................................23

أولا – حقوق الإنسان قديما 23 - ثانيا – حقــوق الإنسان في الإسلام 25

**بنـــاء الدولـــة المسلمــــــــة**

الإسلام نظام حكم ............................................................................... 40

شريعـــــــــة العــــــــــــــــــدل ............................................................... 40

أهــل الحــــل والعقـــــــــــــد ................................................................41

المؤسسات السياسيــــــــــــــة ................................................................ 41

**الفصـــــل الثانـــي (العلم نور لأهل الفضل مقسوم)**

كلمـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــة .............................................................. 43

الحضــــارة الإغريقيـــــــــــــة .............................................................. 44

الحضارة الرومانيـــــــــــــة .................................................................. 45

التربيــــة الفارسيــــــــــــــــــة ............................................................... 46

التعليم العربي الجاهلـــــــــــــــي ............................................................. 46

**التعليــــم العربـــــي الإسلامــــــــــي**

مدرســـــــــة الرســــــــــــــول .............................................................. 48

نمـــو التعليم العربي الإسلامـي ................................................................49

دعائــم التعليــم الإسلامــــــــي .................................................................. 51

حركــــة الترجمة 52 – قنوات ثقافية 55 – الوراقة 56 – المكتبات 56

ميزانية التعليم 58

**الفصـــــل الثالـــث (تطور وازدهار التعليم الإسلامي)**

تطــويــر البنية لتعليميــــــة ..............................................................60

فلسفـــة ونظريـــة التعليـــــم ..............................................................61

أهـــداف التعليــــــــــــــــــــــــم ..............................................................63

السُـــــلم التعليـمـــــــــــــــــــــي ..............................................................64

مناهـــج التربيـــــة الإسلاميــــة ..............................................................66

طـــــــرق التدريـــــــــــــــــــــس ..............................................................68

الإجــــازات العلميـــــــــــــــــــــة ..............................................................70

المربـــــــي المسلــــــــــــــــــــــم .............................................................71

الطالـــــــب المسلــــــــــــــــــــــم .............................................................77

تعليــــــــم المـــــــــــــــــــــــــرأة ............................................................ 78

مؤسســـات التعليــــــــــــــــــــــم .......................................................... 81

داخل مؤسسات التعليم العربـــــــي ...........................................................85

نظام القبـول 85 – الدراسة 86 – اليوم والأسبوع المدرسي 87 – الثواب والعقاب 88

**الفصـــل الرابــع (نماذج تمثيلية لإنجازات التعليم الإسلامي)**

كلمــــــــــــــــــــــــــــــــة ....................................................... 92

العلوم الشرعيــــــــة والعربيــــة ....................................................... 93

علم التاريـــــــــــــــــــــــــــخ .........................................................95

علــم الإقتصــــاد والتجـــــــــارة ........................................................96

الجغرافيــــا: (علـــم وسياحــــــــة) ......................................................97

الرياضيـــات: (علم العلــــــــــوم) .....................................................99

علــــــــــــم الفلــــــــــــــــــــــك ...................................................... 102

علــــــــــــم الكيميــــــــــــــــــاء .......................................................103

الطــب: (علـــم وشفـــــــــــــــــــاء) ....................................................104

الصيدلـــــــــــــــــــــــــــة ......................................................109

المستشفيـــــــــــــــــــــــــــــات ......................................................111

علـــــــم البصريـــــــــــــــــــات .........................................................114

الحيــــل: (علـــم وصنعــــــــــــة) ....................................................116

الزراعــة: (علــم وفلاحـــــــــــة) .....................................................118

الصناعــــة والتعديـــــــــــــــــن ......................................................120

فـــن العمــــارة والزركشــــــــــــــــة ............................................... 122

الموسيقـــــى والطــــــــــــــــرب .....................................................123

**الفصــــل الخامــــس (الحضارة الإسلامية وسنة التداول)**

كلمــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــة .......................................................129

العصـــــور الوسطـــــــــــــــــى............................................................. 131

حضـــارة تأبـــى المــــــــــــوت . ...................................................... 135

معاول هدم حضـارة العلــم والإيمان .......................................................136

المسلمــــــــــــون اليـــــــــــــــــــوم ......................................................141

تعليمنـــا اليــوم مشكلـــــة لا حـــــل ..................................................... 142

فضــل العـــرب على الغــــــــــرب .....................................................149

دروس مستفــــــــــــــــــــــــــــــادة ....................................................154

التعليـــم والإعـــلام الهـــــــــــــدام ....................................................158

الملاحـــــــــــــــــــق

الملحــــــــــــــــــــــــــــــــــق لأول .................................................. 161

الملحــــــــــــــق الـثانـــــــــــــــــي ...................................................162

الملحــــــــــــــق الثالـــــــــــــــــث ..................................................163

الملحــــــــــــــق الرابــــــــــــــــع ..................................................164

الملحــــــــــــــق الخامـــــــــــــــس .....................................................165

الملحــــــــــــــق الســـــــــــــــــادس .................................................... 166

الملحــــــــــــــق السابـــــــــــــــــــع ..................................................... 168

الملحــــــــــــــق الثامــــــــــــــــــــــن ..................................................... 169

المراجـــــــــــــــــــــــــــــــــــــع ...................................................170

**ومن الله التوفيق والسداد**

**إقرأ باسم ربك الذي خلق, خلق الإنسان علق,**

**إقرأ وربك الأكرم, الذي علم بالقلم, علم الإنسان ما لم يعلم**

**صدق الله العظيم**

**العلـــــــق**

1-5

المقدمــــــــــــــــــــــــــة

ما بعد قول الحق من قول. لولا القلم وما يفتح الله تعالى به على الإنسان من العلوم والمعارف لما تمكن من بناء حضارات وتطوير الحياة البشرية على الأرض التي أرسل الله تعالى إليها آدم وحواء عليهما السلام ليعمراها ليس تواجدا فقط بل وتطويرا لما في الأرض ولما حولهما بل وفوقهما وتحتهما من خزانة الثروة ومصادر تطوير الحياة والتي لا تخرج إلا بالعلم. لذلك ظل تعالى يرسل الرسل ليعلموا عباده العلم بأن جعل لكل نبي سِفر ما يحمله إلى قومه. بدأت الرسالات بالتوجيه الديني والمعنوي إعدادا للمخلوقات الكريمة لتتقبل عبادة الواحد الأحد وهي لا تتحقق إلا بالعلم قراءة وكتابة ودراسة وفهم, وليهيأ للرسالة الخاتمة المتضنة لكل ما يحتاجه الإنسان دينا ودنيا. هكذا حتى كانت الرسالة الخاتمة التي ما كان لها أن تخالف ما سبقها من الرسالات لأنها صادرة عن رب واحد وما وُجد من خلاف هو وباعتراف أهل الكتب القديمة أجدادا وأحفادا أن علمائهم حرفوها لتتفق مع أغراضهم ولو خالفت التوجيه الرباني القويم.

تأكيدا على أن العلم رباني لا يعرفه الإنسان إلا بقدر ما يتفضل به الله عليه من فتح وإلا لعرفنا حضارة العصر الحالي منذ عرف الإنسان الكتابة والقراءة. كلما عرف الإنسان جديدا خُيل لبسطاء البشر أنه من اليسر فيبدون تعجبهم لغفلة السابقين عنه. لذلك كله كانت الحضارة تراكما بشريا وبناء لابد لكل أيد بني آدم أن يكون لها نصيب فيه, بسيطا ومحدودا أو عظيما ومبهرا. لذلك لا يمكن لأي قوم أن يزعموا أنهم وحدهم من صنعوا الحضارة التي تُنسب إليهم. المتصفح للتاريخ يجد كل حضارة قد بناها أبنائها بالتعاون مع الوافدين من العلماء. كما لم يبدأ أي قوم من نقطة الصفر وإلا لظلت الحضارة كما وُلدت في العصور الغابرة منذ آلاف السنين. أما مساهمة الجميع فهي وحدها التي جعلت الحضارة العربية الإسلامية تُبنى بكل إنسان قادر وهي كذلك اليوم. فمن ينكر أن الغرب, سيد حضارة العصر, يعج بعلماء عربا وعجما ومن كل أصقاع الأرض تماما كما كان الحال زمن حضارة المسلمين؟ وهم يعترفون في دراسات كثيرة خاصة التاريخية التي أثبتوا فيها أنهم بدؤوا من حيث إنتهى العرب المسلمين, وهذا ما لم ينكره المسلمون يوما بأنهم بدؤوا من حيث إنتهي السابقون. ما كنا لننعم بما ننعم به اليوم من فضائيات وصار العالم بين أيدينا وصرنا نجالس أخانا الإنسان لولا ما صنعه العلماء العرب في كل العلوم وخاصة علم الرياضيات وتطوير الرقم وإيجاد الصفر.

يُجمع علماء الأرض على أنه لا تقدم ولا تخلص من التخلف وحياة البؤس إلا بالعلم والذي لا يمكن أن يُحدث شيئا من ذلك إلا إذا كان بلغة القوم وما عدا ذلك فهو السراب والإصرار على عدم التحضر والعيش عالة على من يصنعون الحياة. كلامنا هذا ليس تنظيرا أو إجتهادا, بل هي التجربة التي عشناها لقرابة قرن والشواهد التي نزعم أننا شهود عليها في أنحاء العالم. كثير من الدول العربية إن لم يكن كلها قد استقلت سياسيا منذ قرابة النصف قرن ومنها أكثر من ذلك بكثير, ولا زلنا عالة على العالم لو يقاطعنا نموت جوعا وأموال بعضنا تكتظ بها مصارف الغرب وحتى الشرق. دولا صغيرة متخلفة مثلنا يوما صرنا اليوم نقف على أبوابها مثل المتسولين وهي لا تملك من حطام الدنيا واحد من المليون مما نملك ولكن إنتاجها الصناعي وحتى الغذائي يملأ أسواقنا. كل ذلك لأنهم عرفوا الطريق إلى التقدم والذي يعتمد كما قال أحد الخبراء الدوليين وهو: التعليم ... ثم التعليم.... ثم التعليم. وأكمل علماء التربية أنه التعليم باللغة الأم وإلا فلا تقدم أو إعتماد على النفس مهما تبنت الأمم الضالة من أفضل النظم في العالم. يقول ما يلي:

"ليست التنمية مجرد القدرة على إستخدام المذياع وركوب السيارات وأحيانا حتى تصنيعها, بل هي تلك التنمية التي تؤثر في كل جوانب الحياة السياسية والإجتماعية وحتى الدينية. من الخطأ أن يتخلص المرء من كل شيء قديم. الصواب أن يجد الناس ترتيبات جديدة لدمج الأفكار القديمة بتلك الحديثة, والعادات القديمة بالطرق الجديدة للقيام بالأشياء, وكذلك بدمج المعتقدات القديمة بالنظريات العلمية الحديثة." **1**

كل المسلمين اليوم للأسف إلا من رحم ربي يقلدون الغرب في كل ما سيء ومدمر لعاداتهم وتقاليدهم وخاصة دينهم ولم يفكروا يوما في تقليده فيما ينفعهم ولا حتى حاولوا فهم ما يكتبه علماء الغرب كلما تحدثوا عن عوامل التحضر حثوا على أمرين أساسيين ولازمين: ربط الحاضر بالماضي, والتعليم ولكل العلوم باللغة الوطنية. هل نحن قليلي فهم هذا أم متآمرون وعلى أنفسنا؟ هنا نصل إلى حديث هذا العمل الذي بدأته منذ عقود إثر عودتي من الولايات المتحدة الأمريكية حيث نلت مؤهلي العالي ولكني تعلمت ما هو أهم وهو أني وجدت مرونة كبيرة في نظام التعليم الأمريكي مما جعلني أبحث عن مراجع تتعلق بنظام التعليم العربي الإسلامي لعلي أجد فيه ما أخذه أصحاب العقول النيرة في الغرب كما أخذوا العلوم العربية الإسلامية كي ينهضوا من كبوتهم التي لم يكن لها مثيل في تاريخ البشرية زمن العصور الوسطى المظلمة أكثر من ظلمة ليلة بدون قمر وهو ما كانت لي عنه بعض المعلومات إكتسبتها من مطالعاتي لكل شيء يمكن قراءته وإذا بي أفاجئ بأن في التعليم الأمريكي الكثير من صفات التعليم العربي الإسلامي وإن نُظم بشكل يجعله يراعي الظروف المعاصرة وهو

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **D. Cushman /National Development and how it Works/ P. 11**

ما لم أجده مثلا في التعليم الإنجليزي. هكذا كانت البداية في زمن لم يكن النظام يشجع طالب العلم الجاد مع الفقر المدقع للمكتبة الليبية وللأسف ولمعظم المكتبات العربية. لهذا, تطلَب مني عقودا كي أجمع المراجع التي كشفت لي حقيقة مرة وهي أن كُتاب الغرب النزيهين أكثر مصداقية ومراجعهم أوفر معلومات من كل تلك العربية التي معظمها أو على الأقل كل المراجع التي وقعتُ عليها فقد كانت تتحدث بشكل عام ولا تحفل بالتفاصيل المهمة التي تساعد على بناء نظام تعليم عربي إسلامي معاصر, وسيلتنا الوحيدة للتقدم إن صدقت النوايا وعزمنا على أن ننهض حضاريا وليس رفاهية فقط فهذه حققها بعضنا بالمال وستزول في لحظة لو لا قدر الله داهمها أضعف عدو.

سيكون عملي هذا في خمسة فصول. سيكون الفصل الأول تقديم للأمة العربية التي صنعت تلك الحضارة العظيمة بعد أن إختارت الإسلام لها دينا والتي لم تنهض منذ أعطت ظهرها لدينها وتنكرت للغتها العظيمة. كما نُعرف القارئ بالبنية التحية بشرا وحجرا التي أقامها سيد الكائنات مما ساعد العرب بعده على بعث البشرية من مرقدها وتولي قيادتها نحو التمدن والتحضر بدون البعد عن القيم العظيمة للدين الحنيف فجاءت بالفعل حضارة علم وإيمان لا تغليب فيها على أي منهما على الآخر. أما الفصل الثاني فسيمثل الخطوة الأولى على سلم موضوع الكتاب هذا. نقدم نظام التعليم العربي الإسلامي كما يقال من ألفه إلى يائه بكل ما كان عليه من عربية التعليم حتى مكافأة التلميذ وما بينهما من الأمور التي تصنع التعليم الناجح والمعطاء.

سيكون حديث الفصل الثالث هو حديث إنجازات التعليم العربي الإسلامي والتي لا يمكن لنا أن نقدم كل الإنجازات بل ولا حتى في حقل واحد في عمل مثل عملنا هذا. فما صنعه تعليم الإسلام لم تفيه الأقلام وإلى اليوم حقه. عليه سنقدم نماذج تمثيلية فقط وسيجد القارئ مفاجآت لعلنا لا نبالغ إذا قلنا أنه قد لا يصدقنا رغم أننا لم نذكر إلا النذر اليسير وشيء من الحقيقة. هذا الفصل يعد تمهيد للحديث في الفصل الرابع الذي سيكون خاصا بالحضارة العربية الإسلامية, الطفل الشرعي لذلك التعليم العظيم. كما سنذكر القارئ بتقديم ما يتعلق بسنة التداول التي كتبها الله على خلقه كي لا يجهل المرء فيقول لما ذهبت حضارتنا ويعلم أنه كان لابد لها أن تذهب كما ذهبت التي قبلها وكما ستذهب حضارة الغرب اليوم والتي ندعوه تعالى ألا تبيد قبل أن يتلقف الدور غير الغرب ورجائنا أن يكون المسلمون من جديد. أما الفصل الخامس فهو حديث الحاضر الحزين لعلنا نفيق ونأخذ بالوسيلة الصحيحة للنهوض.

. نرجو من الله تعالى التوفيق والسداد,,,,,,,,,,,,,,,,,,

بقلم**: أ. منصور خليفة الحاجي**

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

شكر وتقديــــــــر

أنتهز الفرصة وأنا أكمل عملي هذا الذي أعتز به كثيرا وأعتبره من أهم منجزاتي طوال حياتي. أرجو أن يكون في ميزان حسناتي والأهم أن يكون في ميزان حسنات أبويَ الذين رغم أميتهما الهجائية وفقرهما المدقع وحاجتهما لدعم الولد وربما حتى البنت إلا أنهما أصرا على أن أتعلم وأحصل على أعلا ما يمكنني الحصول عليه من مؤهل. لو لم يسُوقني والديَ, كما لا زلت أذكر ذلك جيدا, إلى المدرسة رغما عني لما عرفت للعلم طريقا ولما أحببت المدرسة التي جعلتني أعشق العلم. هل كان لي أن أتعلم لو لم تتولى والدتي مسئولية أسرتنا لعجز والدي بعد سنوات قليلة من زواجه منها فصارت لي ولأخوتي الأم والأب وكل شيء. لم تشجعني والدتي على طلب العلم فقط بل علمتني وعمليا كيف يكون المرء وفيا ليس للولد فقد, فهذا من المسلمات ولكن للزوج العاجز الذي لا قدرة له على إدخال قرشا ولكننا عرفناها أوفى زوجة ولم أعرف وقد بلغتُ السبعين إمرأة أعطت زوجها ما أعطته أمي لوالدي من إحترام وتقدير وتحمل حتى شدته وهي عمليا ربة الأسرة. بل كان عطفها عليه لا يقل عن عطفها علينا. كما حفظت كرامتنا حفظت كرامته هو حتى وارته الثرى. لذلك أخصها بالشكر دون إنقاص الشكر لوالدي. لولاهما بعد الله تعالى لما كنت أنا علما وخلقا ودينا وإيمانا وثقة بالله ثم النفس.

رحمهما الله تعالى وأسكنهما فسيح جنانه وجمعني بهما

في جنة الخلد بفضله تعالى,,,

الكاتـــــــــــــــــب

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**لقد منَ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم**

**آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**

**صدق الله العظيم**

**آل عمـــران**

**164**

**الفصـــــــل الأول**

**العــــرب أمــــــــة إسلاميـــــــــــــة**

**جاهلية العرب إعداد من الــــــرب**

كان للعرب قبل الإسلام حضارات متعددة ومتنوعة في شبه الجزيرة العربية واليمن والشام. إذًا, فهم أهل حضارة وتحضر وجاء الإسلام ليبعث روحها في نفوس العرب المسلمين فتحضروا مجددا. كانت حضارت العرب القديمة عظيمة الشأن, سادت طويلا ثم قضت سنة الله في خلقه أن تبيد. من تلك الحضارات, حضارة سبأ في اليمن التي ذكرها القرآن الكريم والتي يقول المؤرخون أنها قامت عام 950 ق م وأبادها السيل العرم عام 115 ق م. والعرب قوم ساميون مثلهم مثل اليهود والآشوريين وغيرهم.**2** والغريب أن يتهمنا الغرب اليوم, كلما دخلنا في صراع مع اليهود الغاصبين لفلسطين, بمعاداة السامية. تهمه رموا بها ولدهم العاق هتلر لما صنعه باليهود وغيرهم, وينسى العالم عن قصد وننسى نحن عن جهل بأننا ساميون ولا يجوز إتهامنا بمعاداة أنفسنا ولكن حكامنا, العالم منهم والجاهل, ظلوا يتقبلون التهمة وينفونها عن أنفسهم وكأنهم ليسوا ساميين لشعورهم للأسف بالدونية أمام الغرب فصاروا لا يجدون في كلامه إلا الحكمة وهو أكذب أهل الأرض. فمن هم الساميون تاريخيا ولغويا؟

(كان المؤرخون الغربيون يقسمون الجنس البشري ثلاثة عروق: العرق السامي والعرق الحامي والعرق اليافثي (الآري) نسبة إلى أولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث, على ما في التوراة. ثم فقدت هذه التسمية قيمتها لأن العروق البشرية أكثر من ثلاثة ... ومع أن قسمة البشر ساميين وآريين وحاميين لا تزال مألوفة, فليس المراد منها اليوم أن تدل على عروق بشرية بل على خصائص لغوية)**3**

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **القاموس الإنجليزي-إنجليزي أوكسفــــورد .... / ص 774**
2. **- عمر فروخ / العرب في حضارتهم وثقافتهم / ص 27**

خصائص اللغات السامية واحدة وهي ذات جذر من ثلاثة حروف ومنها كانت الصيغ التالية " فعل , فاعل, مفعول , مفاعل , مستفعل ...الخ" وهو ما لا يتسنى لغيرها. عُرف عرب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرنين على الأقل بالأمية لذلك سُمي عصرهم بالعصر الجاهلي. كانت أمية بمفهوم مختلف عما نعرفه اليوم من أمية هجائية, فقد كانوا يتكلمون العربية فصيحة وعلى السليقة, أي أنهم كانوا ينطقونها فصيحة بكل القواعد التي نعرفها اليوم ولم يكن عامتهم يعرفونها لعدم حاجتهم إليها. لقد أكد القرآن الكريم على تلك الأمية في قوله تعالى **( وهو الذي بعث** **في الأميين رسولا**). هذا لا يعني أنهم لم يعرفوا القراءة والكتابة. لقد عرفوهما دائما, إذ يخبرنا التاريخ أنه كان بينهم قراء وكتبة وعالمين بالقدر الذي إحتاجوا إليه من الحساب بل كما سيأتي ذكره في مكانه, كان لهم أطباء درسوا في الخارج مثل بلاد فارس, ثاني أعظم قوة في ذلك الزمان. كما لم يعادوا أي علم, بل كانوا يجلون من له علم بأي علم.

إذا هي أمية لأجل ما سبق علمه تعالى من جعل أمة العرب حاملة لرسالة السماء الخاتمة فلا يتجنى عليهم أحد فيرميهم بإنتاج الرسالة أو تزويرها أو تحريفها لأنه لم يكون بينهم المؤهل لذلك العمل كما كان لبني إسرائيل. لقد عزز الخالق تعالى ذلك ببعث محمدا صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام وهو الأمي ولا يقرض الشعر حتى شهد كبار معارضيه وبعضهم من كبار علماء عصرهم بلغة الضاد أن القرآن ليس بكلام بشر حتى يقدر على صياغته بشر ولو كان في مثل علمه هو ما بالك بابن عبد الله. أليس إعداد رباني لأمة عظيمة ما عظمت دينها فعلا لا قولا فقط؟

**الكعبـــة المشرفــــة**

رغم تواجد العرب في عدة مناطق إلا أن شبه الجزيرة العربية ظلت موطنهم المعروفون به وهي شبه مستطيل يشغل مساحة مليون وربع المليون ميلا مربعا. تسود بلاد العرب الصحراء التي تتضمن بعض السهوب والواحات المنتشرة هنا أم هناك. فيما عدا اليمن فمصادر المياه, إكسير الحياة, قليلة لذلك كانت اليمن أخصب مناطق الجزيرة العربية مما سمح بقيام عدة حضارات فيها قديما. طبيعة الوطن تفرض نمط حياة الناس. لذلك كان العرب يعيشون في حياة بدوية راحلة وراء الماء والكلأ على العموم مع قلة مستقرة. كانوا يعيشون على تربية الأغنام والإبل في المقام الأول. أما الزراعة فكانت مقتصرة على الواحات ومحدودة جدا ولعل أعظم المحاصيل هي الشعير وبعض القمح. كما عرف العرب التجارة محليا ومع الخارج بالنسبة لبعض القبائل وخاصة المستقرة مثل قريش التي كان لها رحلتان كبيرتان: واحدة في الصيف وأخرى في الشتاء. كما كانت القبائل العربية في صراع شبه دائم كثيرا ما يصل حد الحروب الطويلة الأجل إلى جانب الغزوات التي كانوا يشنونها على بعضهم البعض.

تاريخيا عُرفت بلاد العرب بأقاليمها الثلاثة المهمة وهي تهامة والحجاز ونجد. الحجاز هي موطن الكعبة المكرمة التي كان العرب يحجون إليها من أنحاء بلادهم وصارت إلى يوم الدين محجا للمسلمين كذلك وإن إختلفت طريقة أداء المناسك. يقول المؤرخون أن مكة عُرفت منذ القدم مصداقا لقوله تعالى بأنها أقدم بيت وُضع للناس في الأرض. ذكرها العالم الإغريقي بطليموس, وأشار القرآن الكريم إلى إسماعيل وأمه هاجر اللذين نقلهما إبراهيم عليه السلام وتركهما بأمر ربه في مكة فتولتهما العناية الربانية بأن إنضمت إليهما قبيلة جُرهم العربية التي تعلم منها إسماعيل عليه السلام العربية إذ والده إبراهيم عليه السلام لم يكن عربيا. نمت تلك القبيلة وتفرعت حتى وصلت إلى قريش التي عُرفت منذ العام 500 حين أصبح منها سدنة البيت الحرام وخدام الحجاج إليها سنويا.

تقع مكة المكرمة عند تقاطع الطريق الشمالية-الجنوبية التجارية الهامة مع تلك الرابطة بين البحر الأحمر وبلاد العراق, ونعمت باستقرار أهلها فيها بفضل توفر المياه من بئر زمزم التي لم تنضب إلى اليوم, وهي وحدها جعلت الحياة في مكة الواقعة في واد غير ذي زرع ممكنة. كان القريشيون يعيشون مثل كل العرب على تربية الحيوان وإنتاج القمح والشعير والأهم التجارة وخاصة مع الخارج والتي كانت تتم مرتين صيفا وشتاء ويشترك فيها كل قادر سواء من الرجال أو النساء اللائي كن يستأجرن الرجال لصعوبة ومخاطر الرحلة عبر صحراء قاحلة. كما عرفت قريش التعامل بالنقد الأجنبي نتيجة التعامل التجاري الخارجي فعرفوا الدينار الروماني والدرهم الفارسي حتى توفرت منها كميات هائلة في شبه الجزيرة مما شجع النبي صلى الله عليه وسلم على عدم سك عملة للدولة الإسلامية في المدينة لعدم وجود حاجة لذلك. .

كان الجمل هبة الله للعرب جعل حياتهم في تلك الصحارى الشاسعة ممكنة. الجمل حيوان قوي البنية ويتميز عن بقية الحيوانات بقلة حاجته للماء فقد لا يشرب لمدة ثمانية أيام متوالية ويشق الصحراء وهو يحمل ما لا يقل عن الربع طن وربما حتى ستمائة كيلوجرام وقد يقطع محملا 160 كيلومترا يوميا في ظل حرارة قد تصل إلى 52 درجة مئوية. مقارنة بالجمل فأي حيوان آخر يحتاج للماء يوميا ومتوسط ما يمكنه حمله هو 40 كيلوجرام. إذا الجمل وحده جعل حياة العرب ممكنة وآمنة ومثمرة. هذا علاوة على أنه مصدر للوبر لصناعة الخيام وللحوم المفضلة لدى العرب.

بفضل ميزات الجمل أمكن للعرب شق صحرائهم الشاسعة والقاسية ومعرفة كل شبر فيها فصاروا سادة بلادهم لم ينازعهم عليها أحد حتى القوتين العظميين الجارتين اللتين لم تكونا تخشيان العرب لقوتهم الرادعة, بل كانت تخشى بلادهم التي لو حاولوا غزوها لضاعت جيوشهم وأكلتهم الصحراء قبل أن يقتلهم العرب. لذلك رغم رغبة الروم والفرس في ضم شبه الجزيرة إليهما فلم يفعلا واكتفيا بأعوان لهما يستخدمونهم عند الحاجة علاوة على أن العرب لم يشكلوا قبل الإسلام أي تهديد لأحد خارج وطنهم. كأن هذه الظروف كانت إعداد رباني آخر للعرب ليعيشوا مستقلين أحرارا حتى عشقوا الحرية ولم يعودوا يرضون بديلا عنها وشبوا مقاتلين شرسين من أجل صون إستقلالهم وحريتهم وكرامتهم. كما إكتسبوا صفات الشجاعة والإقدام والأنفة والإعتزاز بالنفس والإباء وغيرها من القيم التي جعلت منهم أسودا حين إقتحموا العالم بالإسلام.

كانت شبه جزيرة العرب مأمنا ليس للعرب فقط بل ولكل المضطهدين في العالم لحصانتها ضد العدوان كما أسلفنا ولما عُرف به أهلها من كرم الضيافة وإغاثة الملهوف. عانى اليهود ولأجيال كثيرة من الإضطهاد الروماني حتى ملوا الصبر فثاروا عام 70 للميلاد وكان من الطبيعي أن تُجهض القوة الرومانية العظيمة ثورتهم فصاروا مطاردين من قبل روما لقتلهم. تمكن بعضهم من الوصول إلى بلاد العرب حيث وجدوا الأمن والأمان وازدهرت حياتهم كثيرا وصارت لهم مستعمرات قوية خاصة في يثرب وخيبر وتيماء (المدينة المنورة). لم توفر الدولة الرومانية منذ إعلان قسطنطين الأول النصرانية دينا للدولة حتى النصارى من إضطهادها لمن لم يختار مذهب الدولة الديني رغم أنه مسيحي. فر بعض النصارى إلى بلاد العرب ليجدوا ما وجده قبلهم اليهود وكان أكبر تجمع لهم في منطقة نجران.

جُبل الإنسان على العبادة, لذلك لا تجد أحدا إلا واتخذ له معبودا, فإن لم يعبد الله تعالى, إتخذ لنفسه أي معبود بشرا أو حيوانا أو شيئا لعله يصنعه بيده. لقد رأينا النظام الشيوعي المنكر لوجود الله تعالى واعتبر الدين أفيون الشعوب إلا أنه فرض على الناس عبادة الزعيم. إذا لا يمكن أن يشذ العرب عن خلق الله تعالى. كانوا يعبدون الأصنام والأوثان و (الوثن حجر على غير هيئة معينة, والصنم حجر منحوت أو معدن مصنوع على هيئة معينة. يبدو أن عبادة الأصنام والأوثان طرأت على الجاهليين من جيرانهم وأنها طرأت في زمن متأخر. يدلنا على ذلك قلة إحتفال الجاهليين بتلك الأوثان والأصنام التي لا نجد لها ذكرا إلا في مناسبات معينة, ثم إن هذه الأوثان والأصنام لم تحل عند الجاهليين محل "الله" كما إتفق عند غير العرب وعند غير الساميين على الأخص.)4 يُروى أن العرب كانوا يتبعون مناسك قريبة جدا من التي نعرفها اليوم. إلا أنهم كانوا يطوفون عرايا ويصفرون ولكنهم كانوا يعظمون البيت ويطوفون به, ويحجون ويعتمرون ويقفون على عرفة والمزدلفة ويقدمون الهدي ويهللون بالحج والعمرة ويلبون ولكن بإدخال ما ليس فيه مثل قولهم (لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك, إلا شريك هو لك, تملكه وما ملك)**5**. لعل حجاج العرب قصدوا من تجردهم من الملابس الوقوف أمام الله تعالى كما خلقهم أول مرة أي تذللا له. ورأينا أن تلبيتهم مثلنا ولكن تلك الإضافة هي الأخرى دليلا قاطعا على أنهم كانوا يعتقدون في وجود الواحد الأحد حتى قالوا أنه يملك شريكه الذي لا يملك معه شيئا وهو الوثن أو الصنم.

علاوة عما تقدم فقد وجد بين العرب من عُرفوا بالأحناف, أي الذين تمسكوا بالدين الحنيف كما عرفوه مما وصلهم من رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام, وقد كانوا قلة. كانوا ينبذون عبادة الأوثان والأصنام ولم يقتنعوا باليهودية المنطوية على نفسها والمتنافية مع الطبيعة الإنسانية أو النصرانية ذات المذاهب المتعادية, فاختاروا العيش في حياة نقية, فلا يكذبون ولا يسرقون ولا يتعاطون الخمر أو الزنا ولا يشاركون قبائلهم صراعاتهم على متاع الدنيا. أما إعتناق اليهودية أو النصرانية فنادرا جدا ما تجد عربيا يهوديا أو نصرانيا. ما كان للعرب (أن يؤمنوا بالدين الجديد ما لم يقتنعوا به عقليا أولا ثم ينفُذ إلى قلوبهم ووجدانهم ثانيا, ويُثبت هذا قوة العقلية العربية

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**4- فروخ / العرب في حضارتهم وثقافتهم / ص 82**

**5- الشبكة العنكبوتية / المكتبة الإسلامية / السير**

وتفردها من حيث الطابع, فحياة البداءة تفرض على الإنسان حد التأمل وجسارة التفكير)**6** أليس كل ما تقدم دليل واضح أن الله تعالى أعد العرب لتقبل رسالته الخاتمة وحملها إلى الناس مما تطلب وجود تلك القيم والمثل وحتى العبادة التي كانت بمثابة التمهيد لتقبل العرب للدين الإسلامي طالما كانت لهم بعض الخيوط التي تربطهم بعبادة الله الواحد الأحد؟

**العـــــــــرب والإســـــــــــــــــلام**

**محمـــــــــــــد**

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي العدناني القريشي ولد في مكة المكرمة على الأرجح يوم الإثنين الثاني عشرة من ربيع الأول من عام الفيل (20/4/571 م) وهو العام الذي حاول فيه أبرهة الحبشي حاكم اليمن من قبل الحبشة هدم الكعبة ليحول العرب إلى بيت بناه هو لهذا الهدف في اليمن. سُمي عام الفيل لأن قوات أبرهة كانت تركب الفيل. لكن بيت يحميه ربه لا طاقة لكل العالم أن يهدمه ما بالك بأبرهة, عليه سلط الله طيور الأبابيل رمت جيوشه بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول فارين بعيدا عن بيت الله فرحين بالنجاة من الموت المحتوم الذي أباد إخوان كثيرون لهم. يمكننا القول أنها كانت أول معركة لمن ولد للتو نصره ربه فيها كبادرة لانتصارات كثيرة لاحقة كما سنرى لاحقا.

ولد صلى الله عليه وسلم يتيم الأب ولكن الله زرع في قلب جده عبد المطلب حبا كبيرا لحفيده حتى لم يعد يعبأ بعادات العرب حين كان يصطحبه إلى مجلس كبار القوم في ظل الكعبة وهم يناقشون أمور القبيلة المهمة. إكتمل يُتمه بوفاة والدته آمنة بنت وهب وهو بعد لم يُكمل السادسة. يُقال أن المحن تصقل الرجال, ما بالك بمن يُعده ربه للنبوة الخاتمة. عليه ما أن صار ابن سبع حتى فارقه جده ولكن الله الراعي العظم نقل حب جده إلى قلب عمه أبو طالب الذي حنا عليه وحماه أكثر مما كان يفعل مع بنيه من صلبه, وقد شهد بعثته فكان خير من حماه من أن تطاله أيد الآثمين ولم يتخلى عنه حتى توفي عام 620 م. عاش صلى الله عليه وسلم 63 عاما منها عشر سنوات فقط في المدينة المنورة و 53 في مكة المكرمة مسقط رأسه وأحب بلاد إلى قلبه كما قال هو نفسه. قُبض في المدينة يوم 12 ربيع الأول 11 للهجرة (8/6/632 م) ودفن في مسجده حيث هو إلى يوم الدين إن شاء الله

رغم أنه من أسرة كريمة ذات مكانة في مجتمعها إلا أنه عاش حياة كل أترابه في قريش. رعى الغنم ولما صار شابا خرج في قوافل قبيلته التجارية وقيل حتى أنه شارك قومه حروبهم ولكن عبادة الأوثان والأصنام وحدها لم ترق له ولم يعترف بها منذ فتح عيناه على الدنيا. كان عندما يُقسم عليه أحدهم بها يرد في ضيق بأنه لم يكره شيئا في حياته كما كره تلك الأصنام. عُرف بين قومه بالكثير من الخلق الكريم والصدق والأمانة

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**6- فروخ و... / الحضارة العربية الإسلامية / ص 424**

والحكمة حتى أطلقوا عليه لقب "الأمين" ولم يعودوا ينادونه إلا به. وصل حد إكبار قريش له أنها قبلت حكمه حين إختلفوا حول من يضع الحجر الأسود في مكانه بعد أن جددوا بناء ما هدموه من الكعبة رغم أنه كان شابا وهم بينهم الشيوخ.

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد وبنت فاطمة بنت زائدة أرملة ثرية قيل أنها ورثت زوجها المتوفى. كانت تشارك في قوافل قريش التجارية وتستأجر الرجال للمتاجرة لها لتنمية ثروتها. إختارت في إحدى الرحلات محمد لما سمعت عنه من الأمانة وغيرها من الأخلاق النبيلة. خرج عليه السلام في تجارتها إلى الشام وهو ابن خمسة وعشرين عاما فعاد إليها بمكسب لم تحققه من قبل وأخبرها غلامها ميسرة الذي رافقه في تلك الرحلة بما شاهده عن محمد عليه السلام خاصة ما قاله راهب حين توقفت القافلة قرب مقره فلما, شاهد الرسول جالسا تحت شجرة أخبر ميسرة أن الذي يجلس تحتها لابد أم يكون نبيا. هكذا إكبارا منها لمحمد أرسلت إليه وهي في الأربعين لتعرض نفسها عليه. أوفد الرسول عليه السلام عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ليطلبها من والدها خويلد بن أسد وأمهرها عشرين بكرة. كانت أول من تزوج وقد أحبها كثيرا ولم يتزوج عليها طوال خمسة وعشرين عاما من حياتهما السعيدة والمثمرة. كانت أم جميع أولاده عدا واحد, فقد أنجبت له أبو القاسم الذي يُكنى به والطيب والطاهر ومن البنات رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة. توفي أولاده الذكور كلهم في سن الطفولة لأن الله بعثه خاتما للنبوة وأولاد الأنبياء لو رشدوا يُصبحوا أنبياء. أما بناته فقد عشن كلهن حتى بُعث بالإسلام وأسلمن. ولده الثامن هو إبراهيم من سريته ماريا القبطية التي أهداها له مقوقس مصر وتوفي هو الآخر مبكرا.

عرفنا أن الإنسان سواء كان ذكرا أم أنثى يتمنى أن يكون له الذكر, وقد سمعت شخصيا ومن غربيات وفي عصرنا الراهن تفضيلهن للذكر على الأنثى رغم قولهن أنهن يرغبن في الكل, فما بالك بالرجل, فالله تعالى من غرس في الناس ذلك وعليه فلا يمكن أن يحرم نبيه من الذكور كي لا يعيره الناس بأنه لا يُنجب إلا الإناث وكي لا يعير أعداء الإسلام المسلمين بأن نبيهم لم يكن قادرا على إنجاب الذكور وهو العالم بأن أولاد الأنبياء أنبياء متى بلغوا سن الرشد. لذلك رُزق نبينا الولد الذكر لتقر عينه بهم. ألم يذكر القرآن الكريم قول النبي يعقوب داعيا ربه أن يرزقه الولد ليرثه ويرث من آل يعقوب؟

**الرسول العربـــــــــــي**

قلنا أن الإنسان لا يعيش بالخبز والماء فقط بل وبالعقيدة كذلك, ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم كارها لعقيدة قبيلته بل وأمته العربية فما أن صار في الثلاثينات من العمر حتى صار يتحنًث في غار حراء خارج مكة المكرمة طوال شهر رمضان من كل عام. ظل كذلك حتى بلغ الأربعين, وهي السن التي نعرف وإلى اليوم أنها بداية توازن المرء لاكتمال نضوجه العقلي, ولما كان في ذلك الغار ليلة الجمعة السابع عشرة من رمضان (610 م) تلقى باكورة الوحي بالإسلام (إقرأ). إستمر الوحي حتى يوم 9 ذي الحجة, يوم عرفات, فتكون مدة الوحي 22 عام وشهرين و 22 يوما. توفي عليه السلام بعد 81 يوما فقط من ختام الوحي على العكس من بقية الرسالات السماوية, فقد ولد الإسلام في نور التاريخ أي حين صار الإنسان قادرا على تدوين أحداث حياته كتابة. وهو أمر في صالح الإسلام إذ قدر الله أن يكون القرآن الكتاب الوحيد المحفوظ من كل تحريف أو حذف أو إضافة بسبب تدوين الوحي أولا بأول كتابة علاوة على حفظه في صدور الرجال. كلنا نعرف قصة بداية الوحي والموقف العظيم للزوجة العظيمة التي شدت أزره في ساعة كان في حاجة من أحبهم وأحبوه.

كان صلى الله عليه وسلم قد دأب على تدوين الوحي فور تلقيه إياه بأن كلف أتباعه الكتبة بتدوين ما يُبلغ به من الوحي إلى جانب ملكة الحفظ العربية المعروفة ما بالك والمطلوب حفظه هو كلام الله. بذلك سلم القرآن الكريم من كل تحريف, فإن نسي الحافظ شيئا وجده مكتوبا وإن أخطأ من كتب ولو في حركة أو حرف صححها له حفظة لا يُحصَون. كان المكتوب يوضع في بيته عليه السلام, وللكُتَاب كذلك نسخ لهم, وكان النبي يدلهم على موضع ما يتلقى من ربه في السورة التي كان يحددها وترتيب الآية فيها. ليس هذا فقط, فقد كان الصحابة يعرضون ما حفظوه من القرآن على رسولهم فيصحح لهم أخطائهم ويجيز من لا أخطاء لهم, وهو بدوره كان يعرض الوحي على جبريل عليه السلام مرة كل رمضان ومرتين في آخر رمضان صامه قبل وفاته.

في بحث علمي للدكتور“Bucaille” الذي تعلم العربية لأجل أن يفهم القرآن الكريم ويقارنه مع الكتب السماوية القديمة الأخرى خلص إلى أن الكتب القديمة لحقها التزوير والتغيير بينما لم يلحق ذلك القرآن الكريم الذي قال عنه: (للقرآن تاريخ يختلف تماما عن الكتابين السماويين الآخرين, فقد نزل خلال 22 عاما وكان أتباع محمد "صلى الله عليه وسلم" يحفظونه على ظهر قلب فور تلقيه من جبريل "عليه السلام" كما أنه دُون كتابة في حياة النبي وآخر جمع له بدأ زمن الخليفة عثمان بن عفان "رضي الله عنه" أي بعد حوالي 12 عاما فقط من وفاة الرسول واكتمل جمعه في مصحف واحد بعد 24 عاما من وفاته "عليه السلام". كما تميز جمع القرآن الكريم بأنه تم في وقت لا يزال الحفظة أحياء وهم الذين حفظوه زمن النبي وظلوا يرتلونه باستمرار. إذا فقد حُفظ بشكل لا يتطرق له الشك ولا يسمح بظهور شك في صحته.) **7**  أبعد هذا من فرصة للتزوير وها نحن بعد أكثر من 14 قرنا لم ينقطع خلاله الناس عن حفظ كتاب الله ومراجعته فنقول أنه هناك فرصة لتزويره؟ صدق الحق القائل : **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)** صدق الله العظيم – الحجر 9 –

بدأ صلى الله عليه وسلم تبليغ الرسالة سرا بدعوة الخاصة والموثوق بهم إلى الدين الحنيف طوال ثلاث سنوات إلى أن أمره ربه بالجهر بما أُمر به مما أدخل المسلمين في سنوات عشر من المطاردة والملاحقة والتعذيب لكل من لا سند قبليا له أما من كان له السند ذاك مثل محمد عليه السلام فلا يطاله الأذى الجسدي ولكنه لم يسلم من صنوف الأذى الأخرى. كانت مرحلة إعداد ربانية لمن كتب عليهم مهام كبيرة في العالم ليتعلموا الصبر على المكاره, ومكابدة المظالم كي لا يظلموا مستقبلا وليربيهم على الطاعة له ولرسوله وهي حاجتهم في مستقبلهم حين يُصبحوا قادة العالم بدون وجود النبي بينهم. لما أكمل المسلمون

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**7. Dr. Maurice Bucaille / Thr Bible – The Qur’an and science / P. 268**

المرحلة التأسيسية المريرة بنجاح وبتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة حيث بدؤوا مرحلة الإستقلال والتبليغ.

كان عليه السلام يعلم علم اليقين بأن من خلق الإنسان قد أكرمه بالعقل لا لينتظر القدر بل يُعمل عقله ويجهتد فكره, وأنه تعالى جعل لكل شيء سببا لذلك كان, طوال سنوات الصمود, بالتعبير الحديث, يعمل على كسب مؤمنين من خارج مكة المكرمة. فكان يلتقي الحجاج ليعرض نفسه عليهم حتى إلتقى جماعة من يثرب في موسم الحج لعام (621 م) فبايعوه على الإسلام واللقاء في قابل وفي نفس المكان المُسمى "العقبة". في قابل إلتقى أضعاف من أسلموا في العام المنصرم وعقد معهم معاهدة ضمنوا له فيها حمايته وأتباعه مما يحمون أهليهم متى هاجروا إليهم. بذلك أوجد المكان الآمن لأتباعه الأكثر عُرضة للعذاب فأمرهم بالهجرة إلى يثرب حتى لم يبقى إلا من لا خوف عليهم لتوفر حماية عشائرهم لهم وبذلك حان موعد لحاقه بمن سبقوه إلى المهجر فوصلها بصحبة رفيق حياته أبو بكر الصديق يوم الجمعة 16 من ربيع الأول من العام 13 للبعثة (20/9/622 م). لما تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة جعل من هذا الحدث بداية للتقويم الهجري المعروف لنا اليوم.

**أرض الاســـــــــــــلام**

**شبه جزيرة العرب في فجر الإسلام**



بوصول المسلمين القريشيين وانضمامهم إلى إخوانهم أبناء يثرب التي أعيد تسميتها باسم مدينة الرسول بعد أن لحق بهم عليه السلام, وهي اليوم تُعرف بالمدينة المنورة اليوم صار المجتمع الإسلامي الوليد في أمن وأمان واستقرار وطمأنينة مما شجع قائدهم عليه السلام البدء في إقامة الدولة التي تحتاج في المقام الأول إلى أمة, فكانت الأمة قد وُلدت بوحدة الأنصار وهم أهل يثرب مع المهاجرين المكيين. أمة رمت وراء ظهرها كل تلك العصبيات القبلية والعشائرية وصنعت مجتمع الإخْوة الذين لا شيء يفرق بينهم لا دم ولون ولا جنس ولا جاه أو مكانة وإنما هو الرباط الواحد وهو الإسلام. بذلك وُلد الكيان المسلم الأول في التاريخ. لكن المجتمع الوليد, بل وأي مجتمع مهما عظم, لابد له من تامين حدود موطنه في الداخل والخارج لضمان عدم العدوان عليه. لذلك كتب النبي العقود والعهود مع المشركين في المدينة ويهودها بالقرب منها وغيرهم. بذلك صارت الدولة الإسلامية حقيقة كاملة الشروط وهي شعب وحدود وأمان ودستور أسماه النبي عليه السلام "الصحيفة" التي كتبها وقد ذكر فيها باختصار أهم ما تذكره دساتير الدول المعاصرة. **(الملحق الأول : نص دستور المدينة)** فكان بذلك قد فرق بين مهمته كنبي ومهمته كقائد أمة يبني لها ومعها أساسا متينا لبناء الدول بعيدا عن الوحي, لذلك لم يُلزم المسلمين بالقرآن الكريم كدستور بل هو نبع لكل دستور, والحديث يطول وليس مكانه هنا.

كأني به صلى الله عليه وسلم قد أراد تعليم أمته بأن دولة الإسلام التي تسهر على مصالح الناس المدنية هي دولة إيمان كذلك. لذلك أقام أول مسجد في الإسلام لا ليكون دارا للعبادة كما يريد العلمانيون المسمون مسلمين اليوم وإلا لأقام دارا للحكم بعد المسجد. كان مسجده دارا للعبادة التي لا تأخذ من اليوم كله إلا دقائق أما باقي اليوم فقد إتخذه دارا للحكم وقيادة للجيش ومدرسة للقضاء على الأمية النسبية لدى عرب ذلك الزمان ومحكمة لفض النزاعات بين الناس وناد للتسرية وقاعة للإجتماعات العامة والخاصة وكل شيء. من ذلك البيت الدولة أسس قائد الأمة أول قوة عسكرية إسلامية فلسفتها الجهاد وسلاحها أخلاق الإسلام الحربية الفريدة من نوعها قبل وبعد الإسلام وحتى يومنا هذا. بذلك تكاملت شروط قيام دولة الإسلام التي لم يحكمها النبي عليه السلام بالوحي وحده بل أساسا بالمشورة والرأي والتخطيط. صار إذا للدولة الجديدة إدارة ومجتمع أي شعب وحدودا واضحة وقوة حامية, ودستور وقيادة.

عرفنا الإنسان, منذ بدء الخليقة وحتى بعثها يوم الدين, أنه يرمي, كل من تُهدر كرامته أو يُنتزع منه ماله ومتاعه عنوة وظلما ويسكت, بالجبن والخور وأن باطن الأرض أفضل له من ظهرها. لم يكتفي كفار قريش بما فعلوه بأبنائهم الذين إختاروا عقيدة وجدوها أهدى لهم ولم يفرضوها على أحد. لما هاجروا عمد الكفار إلى الإستيلاء على أملاك المهاجرين وأموالهم ومتاعهم ودورهم. إذا من يلوم المهاجرين الذين ملكوا بعض القوة إذا ما هاجموا قريشا؟ فإن لم يكن لأجل ما نهبته منهم فانتقاما مما عانوه طوال 13 عاما بدون جريرة أو ذنب. لكن المهاجرين لم يفعلوا ذلك بل عمدوا إلى قافلة قريش التي لو ظفروا بما فيها من أموال للتجارة الضخمة ما عوضتهم إلا عن بعض ما أخذ منهم. نجت القافلة وكانت ذات الشوكة ومعركة بدر الكبرى التي أرادها الله تعالى للمسلمين ليعرفوا أنهم ليسوا ضعفاء ولا جبناء فكان نصرهم مؤزرا رغم الفرق الكبير بل والخطير بين قوتي الطرفين وخاصة عدد المقاتلينأثبت المئات الثلاث المؤمنة وبسلاح هو أقرب إلى شيء خير من لا شيء أنهم قوة متى صدقوا الله وطلبوا الجنة, فإذا بهم يدحرون ألفا من المشركين بكل ما جمعوا من سلاح وعتاد وخيل. عاد المسلمون يومها السادس أو السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة مارس 624 م بسبعين أسيرا بعد أن قتلوا مثلهم من العدو منهم قادة حرب كبار مقابل شهداء قليلون, فعلموا أن الذي يعتمد على الله يصبح قوة خارقة

توالت المواجهات حتى العام السادس للهجرة حين (628 م) حين عزم المسلمون على أداء العمرة ولكن قريش حالت دونهم ودخول البيت فكانت فرصة للقائد كي يعلم أتباعه درسا في عقد معاهدات الهدنة التي تكون في جوهرها لصالحهم وإن بدت على غير ذلك في بعض البنود. عقد هدنة مع الأعداء مدتها عشر سنوات وتأجيل العمرة لقابل. إعتمر 200 مسلم في العام التالي وعادوا بمسلمين جدد وعلى رأسهم عمر بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما, (ب لويس 45) فكان ذلك نصرا بدون حرب بانضمام قائدين فذين لركب الإسلام, ولعلمه عليه السلام وليس وحيا وإنما حنكة بشرية عرف بها قائد المسلمين عدوه الذي ما كان ليصبر لأبعد من عامين رغم أن الهدنة كانت لعشر. كما توقع فقد خرق الأعداء الهدنة في وقت كان المسلمون قد إلتقطوا أنفاسهم واستعدوا للقاء الحاسم. سار القائد الفذ على رأس عشرة آلاف مجاهد ليفتح مكة دون قتال يوم 20 رمضان العام الثامن للهجرة. الموافق للحادي عشر من يناير 630**8** وطُهرت الكعبة من الأوثان الثلاثمائة وستين (360) ودانت مكة وأهلها للمسلمين وارتعد كفارها لعلمهم كما تعودوا أن الذين أذلوهم طويلا لابد أن ينتقموا وقد صاروا قوة لا تُقهر. هنا جاء الدرس الإنساني العظيم الذي لا يصدر إلا عن عظيم بعظمة من بعثه نبيا ورسولا فأطلقهم أحرارا لم يمسهم خدش أو حتى لعنة. تسامح لم تعرفه البشرية إلا من نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم. أثبت الجاهليون العرب على كفرهم وجهالتهم أنهم أذكياء وحكماء. فقد أدركوا أن الذي كان وكيف صار لابد أن له ربا يحميه وينصره وهو في نهاية المطاف ولدهم وابن أخوانهم لذلك إختاروا الإسلام طواعية دون إلزام أو إكراه وتقاطرت القبائل تعلن إسلامها حتى صارت بلاد العرب دار إسلام بلا منازع.

**الإسلام في العالـــــــــم**

آيات قرآنية عديدة تدل على أن الرسالة المحمدية لم تكن للعرب فقط بل هي للناس كافة. لكن الله وضع شرطا على نبيه ومن يحمل رسالته من المسلمين بعده بالدعوة لهذا الدين بالحكمة والموعظة الحسنة. (لا إكراه في الدين لقد تبين الحق من الغي) صدق الله العظيم, البقرة 256. لا مجال لنشر الإسلام بالقوة المسلحة, إذا لما كانت الفتوحات الإسلامية؟ هل كما يقول البعض كانت لإرغام الدول على فتح بلدانها للمسلمين ليدعوا الناس إلى الإسلام؟ حجة أراها علينا وليست لنا لأنها تُعطي الحق أو على الأقل الذريعة للغير كي يقتحم علينا بلداننا تحت ستار الدعوة لدينه ويقول لنا أنتم أظلم لأنكم من بدأ بذلك. ثم لم نقرأ أن النبي سير غزوة واحدة أو سار على رأسها لهذا الهدف ولو إلى قبيلة عربية مسالمة أو حتى محاربة. يزعم أعداء الإسلام أن الفتوحات كانت لفرض الإسلام. اليوم وبعد أكثر من أربعة عشرة قرنا, فهل كل البلدان التي فتحها المسلمون واستقروا فيها صارت مسلمة أو حتى هناك ذكر لحادثة واحدة فرض فيها المسلمون دينهم على أحد؟ يكفي أن أقرب البلاد إلى مقر الخلافة الإسلامية في المدينة ثم صارت هي مقرا للخلافة مثل دمشق ثم بغداد لا زالت إلى يومنا هذا ذات أقليات غير إسلامية ليست طارئة وإنما وُجدت قبل الفتوحات. أليست خير شاهد وداعم للروايات التاريخية عن التسامح الإسلامي؟ كما أن كثرة العلماء في عصر النهضة الإسلامية من غير المسلمين إلا دليلا قويا آخر على مدى إبتعاد المسلمين طوال عصرهم عن الإكراه في الدين.

ما كان لنبي أو أي قائد أمة أن ينسى العلاقات الدولية وأهميتها في إستقرار دولته. لذلك مد عليه السلام علاقات دولة المدينة إلى العالم الخارجي بدءا بالجوار ولأجل ذلك أهل أصحابه فجعل منهم الحافظ للغات أجنبية

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**8. Grunebaum / Classical Islam / P. 44**

لفهم الرسائل الواردة وآخرون كتابا واتخذ لنفسه ختما لإعطاء رسائله الصبغة الرسمية للدولة. ثم صار يراسل ملوك العالم وحكامه وأصحاب الكلمة النافذة فيه. صحيح أن رسائله تدعوهم إلى الإسلام ولكنه لم يختمها مثلا بالتهديد إن رفضوا. بل في رأيي كانت رسائل إستئذان أصحاب الدار ليسمحوا بدخول الدعاة المسلمين للدعوة إلى الإسلام. لو رُفض الطلب فما كان النبي عليه السلام ليقود غزوة أو يرسل كتيبة لأحد إنما هو إعذار لنفسه أمام ربه. لكن الردود هي التي فرضت الحرب التي ظلت بعيدة كل البعد عن الدعوة للإسلام من عدمها. هذه رسالته عليه السلام إلى هرقل إمبراطور الدولة الرومانية والتي وُجد أصلها لدى أميرة عربية تعيش في لندن ببريطانيا تقول أنها آلت إليها بالميراث. يقول نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من إتبع الهدى. أما بعد, فأني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم, وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. وإن توليت فعليك إثم الأريسيين. (**ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم بأن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيء, ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا** **بأنا مسلمون**.)**9** الآية الخاتمة هي 64 آل عمران -

قد يقول المتحامل أنه هدد هرقل بذكره الأريسيين لأنه لا يعرف قصتهم, وهي ( أن في رهط هرقل فرقة تُعرف بالأروسية نسبة إلى آريوس الذي كان من رجال المسيحية وله ثقافة فلسفية كبيرة, وقد كان في الإسكندرية في مطلع القرن الرابع أيام الإمبراطور قسطنطين الكبير باني القسطنطينية وصاحب الأثر التاريخي الأكبر على المسيحية, وقد إختلف آريوس مع نظير له في الإسكندرية اسمه إثناسيوس حول طبيعة المسيح والعلاقة بين اللاهوت والناسوت فيه ومكانته بالنسبة "للأب", وقد أدى الإختلاف بينهما إلى شطر العالم المسيحي وكان أول ما تمخض عنه عند عقد المجمع المسكوني الأول في التاريخ في "نيقية" الذي تلاه عدد آخر من المجامع.10 إذا لم يكن يهدده بل كان يحذره من الفرقة في صفوفه هو وهو تحذير لا يقدم عليه الحاكم الماكر لأنه بذلك يُرشد عدوه. هذا حسب بعض الروايات ما فهمه هرقل حتى قيل أنه أسلم أو كاد ولكن حرصه على الكرسي جعله يخشى العاقبة ولا يستجيب للدعوة.

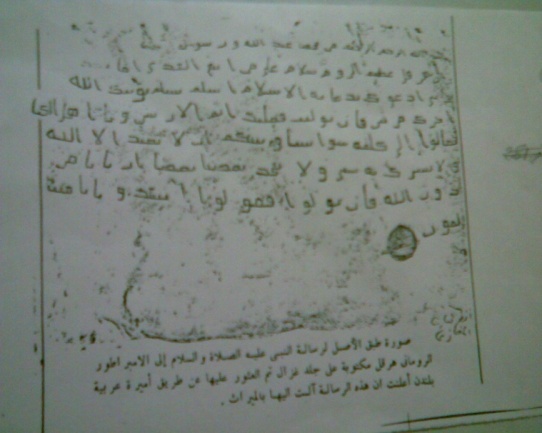
لم يراسل النبي عليه السلام هرقل فقط بل كثيرون منهم حكام أقاليم أو قادة دينيون ولكن الردود كانت كلها تقريبا سلبية وبعضها دموية. "إعتنق فروة بن عمر الجذيمي, والي عَمان (الأردن) من قبل الروم, الإسلام فاعتقله الروم ولما لم يرتد عن دينه الجديد قتلوه في العام السادس للهجرة (627-628 م). كما قتل الروم في يوليو 629 م كل أعضاء فريق الدعوة النبوي إلى الأردن الخمسة عشرة عدا واحد, وفي نفس الوقت كان موفده إلى سوريا الحارث بن عُمير قد قبضوا عليه وقتلوه. كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤسس لدولة قوية وواعدة لذلك كان مثل أي دولة يُرسل العيون, أي جهاز مخابرات, لتتبع الأمور داخل الوطن العربي وفي الخارج,

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**9. د. سهيل زكار / المغازي النبوية / ص 60** **.**

**10. د. سهيل زكار / المغازي النبوية / ذيل الصفحة 60**

**صورة ضوئية لرسالته إلى هرقل**



فجاءته الأخبار تتحدث عن الإستعدادات البيزنطية العسكرية لغزو بلاد العرب للقضاء على الإسلام."**11** فأي قائد أمة لا يرد على كل هذه الأعمال الدموية ما بالك وقائد العرب كان نبيا ومتشبع بنخوة العرب وغيرتهم؟

كان عليه السلام يعرف جيدا أن الهجوم خير وسيلة للدفاع فاستعد لملاقاة العدو إن لم يكن في عقر داره فعلى الأقل في منتصف الطريق. كان من الفطنة أن أدرك ما للتحرك ضد الروم من فوائد لدولته الوليدة والضعيفة ماديا, القوية إيمانا. ملاقاة العدو يعني أن العرب لم يعودوا كما عرفهم الروم بعد أن أسلموا, والملاقاة تعني هز الكيان الروماني حتى يعتقدوا أن قوة ما قد حصل عليها العرب وإلا لما أقدموا على الغزو وليس الإنتظار في بلادهم حتى يصلهم العدو. هكذا جمع عليه السلام ثلاثة آلاف مجاهد في منطقة الجوف قرب المدينة وأمر عليهم زيد بن حارثة, الشاب وليس من كبار القادة ليُفهم الروم أن شباب المسلمين قادرين على مواجهة كبار قادتهم وهي رسالة سياسية حربية ذات معنى كبير. إلتقت قوة البيزنطيين وحلفائهم العرب جيش المسلمين عند قرية مؤتة قرب الكرك. هنا قامت أسرة العزيزات المسيحية بفتح القرية أمام المسلمين وزودت المجاهدين بالطعام والماء. كانا أخوان أحدهما إعتنق الإسلام والثاني ظل نصرانيا لذلك أصدر النبي عليه السلام قرارا بإعفاء تلك الأسرة وأحفادها من دفع أي ضرائب أو جزية. ظل القرار النبوي معمولا به حتى القرن 19 حين فرض الأتراك ولأول مرة على أحفاد الأسرة الكريمة دفع الضرائب.

من المعروف وحتى قيام الساعة أنه من السهل إشعال نار الحرب ولكن نارها قد لا تنطفئ أحيانا لعقود كثيرة بل المعركة تجر إلى معركة أخرى والمهزوم يحاول التعويض والمنتصر يحاول الإكثار من مواقع نصره, وهذا ما كان وجر إلى الفتوحات الإسلامية التي عرفنا من التاريخ أنها ما كانت لتصل إلى ما وصلت إليه لولا إصرار الطرف الآخر على الحرب لتدمير دولة العرب المسلمة. رأينا ما فعل الروم ولم يكن منافسوهم في الإمبراطورية الفارسية بأقل حرص على إنهاء دولة الإسلام خاصة أنهما, كما كان السوفييت والأمريكان في القرن العشرين, يتنافسان في كل بقعة فوق الأرض. سبحان الله كانت تلك الحروب نموذجا متكررا لما كان في **ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**11. عبد الرحمن عزام / الرسالة المحمدية الخالدة / ص 159 (الكتاب بالإنجليزية)**

الجزيرة. المسلمون دائما قليلي العدد والعدة مقابل عدو يفوقهم دائما وكثيرا وفي كل شيء وينتصرون, وقد رأينا في العصر الحديث بل وفي عام 2011 كيف هزم شعب ليبيا حاكمه وهو الأعزل من كل سلاح ولو كان أبيض ولكنه في ستة أشهر كسر قوة هائلة للعدو المحلي وحقق نصرا عسكريا حاسما لم تحققه الدول الكبرى ولنا فيما حدث لأمريكا وأنصارها في العراق وقبله فييتنام خير دليل, وكما في العهد الإسلامي رأينا وعشنا كشهود سقوط ثاني أقوى قوة في عصرنا, الإتحاد السوفييتي الأشرس بمراحل من أمريكا, على أيد المجاهدين الأفغان الفقراء وقليلي العدد والعدة لدرجة العدم .

كما يقول المثل العربي "على نفسها جنت براقش". فقد جنت القوتان العظيمتان في ذلك الزمان على نفسيهما لاستهانتهما بقوة العقيدة الجديدة وحكمة قائد المسلمين العرب فظنوا أنهم سيمحقون الوليد في مهده فإذا به يمسح إمبراطورية الفرس من الوجود وحتى الساعة لم تقم لها قيامة ويدفع بالقوة الرومانية الأقوى من تلك الفارسية إلى أضيق حدودها لتنزل من على عرش الإمبراطوريات إلى سطح الدويلات. كل ذلك تحقق في حقبة لا تُحسب لقصرها, فتم القضاء على دولة الفرس مع حلول العام 651 م أي حوالي عشرين عاما أو أقل منذ البداية وضبط دولة الروم البيزنطيين مع العام 656 م.

كانت الإمبراطوريتان معذوران من حيث أنهما تعودتا على أمر الكيانات الصغيرة فتأتيها طائعة وتقبل ظلمها واستبدادها فكيف تبحث عن السلامة مع من لم تعرفهم إلا طارقين لأبوابها يطلبون حسنة أو رضا؟ أما المسلمون فقد علموا أنهم بدينهم فقط صاروا قوة عظمى على قلة عددهم وعدتهم. لذلك ودع العرب وإلى الأبد ذلك الخوف من الكبار وساروا يردون الطغاة بروح حربية جديدة دفعت بملايين المضطهدين إلى الانضمام إليهم طوعا بل ورغبة في الخلاص من الذل والعصف والمهانة التي طال أمدها سواء بالقتال مع المسلمين أو على الأقل عدم القتال مع عدوهم. كان المسلمون يتحركون في كل الاتجاهات في وقت واحد فوصلوا حدود الصين شرقا ولم يردهم إلا المحيط الأطلسي غربا مع العام 681 م الذي لم يعرفوا عنه شيئا حتى أسموه ببحر الظلمات وإلا لعبروه. أما شمالا فقد ملكوا الأندلس مع العام 711 م ثم جزر البحر المتوسط بل ووصلوا (ليون وأكيتان) في جنوب فرنسا عام 737 م, وجنوبا فقد توغل الإسلام في إفريقيا حتى سيطر على الصحراء الكبرى مع شمال إفريقيا.

**أمـــة إسلامية العالميــــــــة**

من التاريخ نفهم جيدا أن العرب لم يخرجوا من وطنهم طمعا في إقامة إمبراطورية عظمى كما كان يفعل الأقوياء ولا يزالون. كان هدفهم الأسمى الدعوة إلى الإسلام في هدوء وسلام وحفظ بلادهم من أي غزو خارجي, ولكن قدر الله وما شاء فعل. فها هم قد أصبحوا سادة بلاد عريضة بعرض العالم ووجدوا أنفسهم مسئولون عن ملايين البشر المختلفين جنسا ولونا وعادات وتقاليد وثقافات وتراث وحتى نظم حكم. منهم من أسلم ومنهم من لم يفعل والكل في حكم دينهم أصحاب حقوق وليس واجبات فقط. كانت مهمة صعبة ولكن ليس على من رباهم ربهم وعلمهم نبيهم. فقد نجحوا بشكل كبير في تكريم بني آدم. حفظوا للغير عقائدهم وعاداتهم

**العالم المسلم من الصين إلى الأطلسي كما في 750 م**



* الأخضر الداكن هي الأرض المفتوحة زمنه عليه السلام
* الأخضر الأفتح ما فُتح زمن الخلفاء الراشدين

وتقاليدهم وحرية ممارسة أديانهم وأبقوا الإدارات الحكومية على حالها وبموظفيها. هذا علاوة على تحقيق حريتهم الضائعة وإعادة العزة لكرامتهم المهدورة. لم يبقوا لهم معابدهم فقط بل وحتى إداراتهم السياسية دون أن يحدث إرباك فتضيع حقوق الناس

تلك المعاملة الأولى من نوعها والتي لم تتكرر حتى يومنا هذا دفعت بملايين كثيرة إلى إعتناق الإسلام حتى صار العرب قلة في دولتهم رغم سيادتهم السياسية عليها. أما النصارى فقط فضلوا المسلمين وحكمهم على أبناء جلدتهم ودينهم الذين كانوا يفتكون بهم لمجرد إتباع مذهب مسيحي غير مذهب الدولة فوجدوا من لا يشاركهم دينهم رحيما بهم ضامنا لحقوقهم وكرامتهم. أما اليهود المضطهدون دائما من قبل المسيحيين خاصة لعقيدتهم بأن اليهود من صلب المسيح عليه السلام فكانوا لا يجدون الأمان والطمأنينة إلا في ظل دولة الإسلام التي كاد لها بعضهم حين كانت في مهدها ولكن التربية المحمدية علمت المسلمين كيف يفرقون بين الظالم فيأخذوا على يده وبين من يشاركه صلة رحم أو دين أو عرق ولم يُذنب.

أثبت العرب أنهم أذكياء وطلاب نجباء حين أداروا تلك الدولة العظيمة فأسعدوا ملايين البشر من كل جنس ولون ودين دون أن يظلموا أو يستبدوا وإلا لما بقي من أسلم من البشرية إلى يومنا هذا مسلمين وقد زالت دولة الإسلام منذ قرون. كانوا يتعلمون من الجميع ويعلمون الجميع مؤكدين أن العلم يُطلب من المهد وإلى اللحد. عليه كانت إدارتهم وكل المؤسسات تتطور باستمرار وباضطراد. هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثاني خليفة مسلم يُصدر قرارا ينظم بموجبه الدولة التي كانت تتسع كل يوم فنص بداية بوضع دولة الإسلام في ذمة المجتمع الإسلامي عامة وخليفتهم خاصة. فالمرسوم واضحا حين حمل المسلمين مسئولية الدولة وشعبها عامة فالكل صار مسئولا عن توفير الأمن والأمان واحترام حقوق الغير. مهمة كان المسلمون يفهمونها ويطبقونها بكل ما يُرضي الله ورسوله. إذا لا بد من تصنيف فئات المجتمع المتنامي بسرعة كي تحدد حقوق وواجبات كل فئة في سبيل نشر العدالة وهو تنظيم كان على النحو التالي:

**الفئة الأولى:** تضم المسلمين بدون تمييز لأن الإسلام لا يفرق بين أخوة الدين عربا أم عجما ومهما كان لونهم أم أي فروق أخرى. المسلمون هم من يحملهم القانون الإسلامي مسئولية السهر على أمن الدولة وحماية حدودها دون تكليف غيرهم بشيء بل الغير ضمن مسئوليتهم. والمسلمون هم من عليه توفير حاجة الخزانة العامة لمواجهة مختلف إلتزامات الحكومة نحو الجميع.

**الفئة الثانية:** هم أهل الذمة وهم الذين لا يدينون بدين الإسلام وهم أساسا اليهود والنصارى أي الذين أسماهم القرآن الكريم "أهل الكتاب" أي الذين نزلت عليهم رسالة من السماء ثم أضاف المسلمون كل من له معتقد يدعو للخير ويُنكر الشر ويعمل على نشر الفضيلة وغير ذلك من الخُلق الكريم والسلوك السوي, ولهم كل الحقوق التي للمسلمين ويتمتعون بكل الخدمات بل من عجز عن الكسب أجريت له جراية أي معاش تقاعدي وأسقطت عليه الجزية. كل ذلك مقابل دفع ضريبة غير مرهقة تُسمى جزية ولا تؤخذ إلا ممن له دخل وقادر على حمل السلاح ويُعفى منها النساء والأطفال وكبار السن والعُمي وكل عاجز عن الكسب . يقول المنصفون من أهل الغرب أن الجزية أقل بكثير من الزكاة التي تؤخذ من المسلمين المالكين للنصاب وهي كذلك أقل بكثير مما كان يؤخذ من أمثالهم في أوربا حسب قوانين ذلك العصر. مقابل ذلك لهم كامل الحرية الدينية والتعبير والملكية والعمل حتى في دوائر دولة الإسلام ولا يُطلبون للجهاد **12**  كانت الجزية تؤخذ بدون إرهاق الذمي, فالغني كان يدفع 48 درهما ونصف ذلك يُؤخذ من أصحاب الدخول المتوسطة و 12 درهما فقط من المهنيين.

كان المسلمون يصرون على إعادة الجزية التي أخذوها من أهل الذمة متى طلبوا التطوع في الجهاد وهو لا يحدث إلا بمبادرة منهم هم. يُروى أن القائد المسلم في حمص في زمن خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أُضطر إلى سحب القوة الإسلامية التي كانت تحمي مدينة حمص السورية فهب أهلها المسيحيون يمنعونه من ذلك حتى أنهم عرضوا عليه ضعف القوة التي كان سيسحبها من أولادهم راجين بقاء الحامية المسلمة لأن وجودها كفيل بإخافة الرومان فلا يعودون فتعود همومهم. هنا أعاد القائد المسلم الجزية التي جُمعت منهم وتم إعفائهم منها.

**الفئة الثالثة:** المستأمنون وهم من يُطلق عليهم اليوم باللاجئين السياسيين أم غير سياسيين وهو حق لا توفره الدولة فقط للمستأمن بل يوفره له كل مواطن مسلم ولو كان إمرأة ومنذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. لهؤلاء كل الحقوق ولا يشتركون في الجهاد ويبقون حتى يختارون, بحرية كاملة وإقتناع, الإسلام فيصبحون في نفس وضع أي مسلم عربي أم غير عربي كما سلف. أما إن أرادوا مغادرة دار الإسلام فعلى الدولة المسلمة أن تحميهم حتى يصلوا إلى مقصدهم ويجدوا فيه الأمان وهو أمر قرآني لا مناص لأي مسلم من تطبيقه.

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**12. B. Lewis / The Arabs in History / P. 94**

**الفئة الرابعة:** هم العبيد: لا يوجد في الإسلام وتشريعاته إنسان بدون حقوق حتى لو كان عبدا مشترى, ولولا ممارسة كل العالم للعبودية لكان الإسلام قد حرمها. للعبد في الإسلام كل الحقوق التي لأي مواطن حر بل على سيده أن يُطعمه مما يأكل ويستر جسده بمثل ما يستر به جسده هو وكذلك السكن وحرية العبادة والرأي وبناء أسرة ولا يكلفه سيده بعمل فوق طاقته أو لمدة أطول مما للعامل الحر. إذًا إقتصرت عبوديته على عدم ترك سيده متى شاء, وسنرى أكثر عند الحديث عن حقوق الإنسان في الإسلام.

**حقـــوق الإنســـان**

الحديث عن حقوق الإنسان في الإسلام شيق ومبهر لمن يبحث حقا عن حقوق متوازنة تراعي طبيعة البشر والفوارق الطبيعية بينهم خاصة بين الذكر والأنثى. الأروع أن الدين الإسلامي جعل مراعاة تلك الحقوق واجب ديني مما يجعلها نافذة طلبا للأجر وليس مفروضة كما في حال حقوق الإنسان في العالم الحديث التي تُعلي جنس على آخر أو الذكر على الأنثى أو تكلف طرفي المعادلة في الحياة البشرية بما لم يُخلق له بل ولا طاقة له على القيام به. لكن حقوق الإنسان في الإسلام لا يمكن فهم قيمتها وقدرها إلا إذا عرفنا حقوق الخلق عند الأمم القديمة والحديثة على حد سواء.

**أولا - حقوق الإنسان قديمــــــا**

إذا قلنا أنه كان للإنسان منظومة لحقوق الإنسان قديما فلا يمكن بعد التعرف عليها إلا القول أنها كانت مأساة عظيمة وحركة ظالمة ديست فيها كرامة الإنسان وضاعت حقوقه. فالمرأة لم تكن إلا متاعا رخيصا وبضاعة يمتلكها الرجل والعبد كان أقل شأنا من الحيوان حتى أن قتله لم يكن له دية والغني لا يعرف للفقير حقا في ماله مما أشاع الكره والبغضاء والحسد المقيت بين بني آدم, والطفل لم ينجو هو الآخر من مساوئ ما يمكن تسميته بالحقوق. كيف كان ذلك عند أهم الأمم بدءا بمن لهم كتاب سماوي يحث على الأخوة البشرية.

**اليهــــــــود:** تُحرم الشرائع اليهودية على أتباعها مناقشة رجال الدين من أحبار ورهبان ومن على شاكلتهم. كأنهم صاروا أربابا من دون الله فوق الأرض فلا يُخطئون أو ينسون أو حتى يظلمون. القول قولهم وما على أتباع اليهودية إلا السمع والطاعة ولو فيما لا يُرضي الله ولا عباده. لم يكتفوا بهذا بل حرموا نصف البشرية من حقهم في العبادة فجعلوا الدين شأنا ذكوريا لا علاقة للأنثى به. يعتبر اليهود كل الناس الغير يهود جنس وضيع لا حق لهم في الحياة وإن سمح لهم اليهود بالبقاء فلخدمتهم خدمة العبيد للسادة ويعاملون كذلك معاملة السيد للعبد وبرروا ذلك بأن الله تعالى عما يصفون قد فضلهم على خلقه وهو ما يعني أنه العادل لن يحاسبهم عما يفعلونه ببني آدم عليه السلام. لذلك نراهم وإلى يومنا هذا لا يرعون في البشر إلا ولا ذمة. مكنهم المسيحيون من فلسطين فشردوا أهلها ثم إرتدوا على النصارى يسومونهم سوء العذاب دون أن يتذكروا أنه لو لا بريطانيا المسيحية لما أخذوا حفنة واحدة من تراب فلسطين.

**النصـــــــــــارى:** تُحرم الكنيسة المسيحية على أتباعها حرية التعبير والإعتقاد والتفكير الحر ولو كان فكرا بناء ومنطقيا ويجد القبول عقليا. قد يقول البعض أن هذا كان في قديم الزمان, نرد عليهم بالمنشور الذي أصدره البابا عام 1764 م الذي حرم بموجبة أي إجتهاد أو تفسير للنصوص المقدسة يخالف إجتهادات وتأويلات الكنيسة, بينما نجد الإسلام قد أثاب كل مجتهد بأجرين فحتى لو جانبه الصواب فله أجر ثابت. مجددا وفي عصر النهضة الأوربية وعام 1868 أصدر البابا منشورا ألزم بموجبه جميع المسيحيين علاوة على الكبت الفكري تقديم أموالهم وأرواحهم إلى الكنيسة, ومن أجلها عليهم تسفيه آرائهم وتسخير فكرهم لخدمتها.

لم يكن أذى الكنيسة قاصرا على ذلك بل سلطت الحكام على كل معتنق لمذهب غير مذهب الدولة الرسمي وكنيستها. من يخالف فلا يُعنف بل يُطارد ويُشرد ويُقتل في حالات كثيرة. خرج شر الكنيسة إلى خارج نطاق شعبها لتلحق الأذى بغير المسيحيين ولها لكل فئة مبررا. اليهود عندهم من قتلوا المسيح عليه السلام صلبا مما يستوجب على كل مؤمن بعيسى عليه السلام أن يثأر له بقتل اليهود لم يكن كلاما أجوف بل شحنا للنفوس. يحدثنا التاريخ عن مجازر متتالية قديما وحتى العصر الحديث في حق اليهود فقط لأنهم يهود. جعل رجال الكنيسة ثأرهم عند اليهود ليس عائليا فقط وإنما زمنيا بملاحقتها كل أجيال اليهود. إن صح أن اليهود زمن عيسى عليه السلام قد صلبوه فما ذنب حتى أولادهم يومها ما بالك بأجيال اليهود بعد ذلك وإلى اليوم؟ هذا في الإسلام وحده (ولا تزر وازرة وزر أخرى).

حتى اليوم والنصارى يحاولون غسل أيديهم من دم اليهود فألقوا بهم في فلسطين لا رحمة بهم وتعويضا لهم عما فعلوه هم بهم وعبر التاريخ وليست مجزرة هتلر فقط فتلك تهون أمام ما قبلها بل لعلمهم أن لفلسطين أمة ولو نامت طويلا فلابد أن تفيق يوما بعودتها إلى دينها عندها سيصبح رجالها أسودا فينقضون على اليهود بعد أن تجمعوا في محرقة واحدة ليخلصوا النصارى منهم. هذا هو الفخ الحقيقي وإلا فالنصارى غزوا قارة أمريكا بشطريها الشمالي والجنوبي فلو تبرعوا لليهود بقطعة هناك ألم يكن أفضل تعويض إذ لا منازع لهم هناك, لكن النصارى قصدوا إفناء اليهود وليس الإعتذار لهم.

إذا كان بين اليهود من يقول بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء في كتبهم فالمسيحيين يُنكرون ذلك بل ويصفونه بالمدعي وغير ذلك من الأوصاف ليس فكرا فقط بل وعملا. فهم يناصبون العداء للمسلمين وإلى يومنا هذا, الذي يُسمى بعصر حقوق الإنسان والعدل والمساواة والأخوة والمجتمع الدولي, لا يزال قادة النصارى يشنون الحملات الصليبية على المسلمين بقصد إبادتهم فقط لأنهم مسلمون. فمن إستعمار المسلمين وشدهم إلى الوراء حضاريا والفتك بهم واستنزاف ثرواتهم حتى عهد جورج بوش الإبن الذي وصف حربه على أفغانستان بالحرب الصليبية المقدسة؟ لم تكن زلة لسان فحكام الغرب المعاصر لا يتكلمون إلا بعد أخذ رأي ومشورة علماء السياسة والدين. ضربة لا يقرها المسلم الحقيقي ولو قام بها محسوب على الإسلام فلما يصنف هذا الدين كدين إرهاب ولا زلنا نشهد حملات الغرب على المسلمين ورميهم بالإرهاب الدولي بينما يرهبهم أولادهم ويقتلونهم ولم يصفوا المسيحية أو المسيحيين بالإرهاب!

**الوثنيــــــون:** رأينا حقوق الإنسان عند أهل الكتاب وسنرى المزيد عند الحديث عن المرأة والعبيد فما بال الوثنيين من عباد البقر والحجر والشمس والقمر وغير ذلك يعادون الإسلام والمسلمين؟ نسوا أنهم تمتعوا بكامل حقوق الإنسان في ظل حكم المسلمين وما أن سقطت دولة العدالة المطلقة حتى ناصب الوثنيون المسلمين العداء. لا زالت المجازر تُقترف في حق أتباع محمد عليه السلام إلى اليوم بل والغد من قبل عباد الوثن وفي حق من كان نصيبهم أن يكونوا مواطنين في ظل دولة الشرك. من الإتحاد السوفييتي ثم روسيا إلى الهند وأخيرا ميانمار وغيرها حيث لم يجد مسلموهم إلا الظلم والقهر والإذلال في أحسن الظروف وبدون جريرة إقترفوها بل فقط لأنهم مسلمون. لما صبروا واحتسبوا جاءهم القتل والتشريد والإخراج من ديارهم. كل ذلك لأنهم يعلمون قوة العقيدة الإسلامية وقبول العقل البشري لها على غيرها فخافوا على وثنيتهم الزوال رغم ضعف المسلمين المعاصرين وخورهم.

**ثانيا - حقوق الإنسان في الإســــــلام**

يقول الله في محكم آياته (**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل** **لتعارفوا, إن أكرمكم عند الله أتقاكم, إن الله عليم خبير)** صدق الله العظيم – الحجرات 13 – يخاطب الله الناس كافة وليس العرب أو المسلمين ويصنف الكريم بأنه ذلك التقي وليس ذلك النبيل أو صاحب العرق المميز أم أي شيء آخر. آية فهمها المسلمون قديما وحديثا جيدا لذلك نجدهم يتعاملون مع البشر بدون تمييز إلى جانب ما أمرهم الله به كمسلمين من إحترام جميع الأنبياء على قدم المساواة مع نبيهم محمد عليه السلام وهذا ما جعل الغرب الحاقد اليوم يهاجم نبينا لعلمه بأننا لن نرد عليه بالمثل طاعة لديننا وإلا لفعلنا كما يفعل اليهود حين يتهمون السيدة مريم عليها السلام بالزنا. حقوق الإنسان في الإسلام ليست وثيقة منفصلة عن الدين والحياة وحتى السياسة لأنها حقوقا ضمن النصوص القرآنية أي متواجدة في كل حقول الحياة البشرية دنيا وآخرة. لذلك كان الإلتزام بها قويا لارتباطها بالعقيدة والعبادة والدين عامة. كي نعلم تفاصيل حقوق الإنسان في الإسلام لابد لنا من معرفة تلك الحقوق لدى العرب قبل الإسلام لأنهم من حمل رسالة الإسلام.

**حقوق الجاهليين العرب**

كلما قرأنا أكثر عن حياة العرب قبل الإسلام ومن كل جوانبها نجدها أقرب إلى الإسلام منها إلى بقية الأمم حتى التي كان للجاهليين إحتكاكا بها. رأينا أن مناسك الحج كانت نفس مناسك الإسلام فيما عدا ما أدخل عليها من تصرفات لعلها لم تكن بقصد الإساءة. هذه بعض الحقوق التي كانت العرب تحترمها لا خوفا من الأمم المتحدة بل هي الطبيعة التي نشئوا عليها:

1. لا أحد يُنكر اليوم أن العرب عُرفوا بالنخوة والنجدة وإغاثة الملهوف وإكرام الضيف دون النظر إن كان عربيا أم أعجميا. لذلك وجد اليهود المقتولين من قبل الرومان الأمان عند العرب ومثلهم النصارى الذين لم ترحمهم دولتهم لمجرد إختيارهم مذهبا مسيحيا غير مذهبها. حلف الفضول خير شاهد على ذلك, والذي جاء ردا على إستبداد أحد المتنفذين في قريش الذي إشترى بضاعة من تاجر يمني ورفض سداد الثمن أو إعادة البضاعة. ما أن إستغاث اليمني قريش حتى هرع كبارها ليرغموا رجلهم على رد البضاعة ثم إجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان واتفقوا على حلف لضمان عدم تكرار الظلم أخذوا فيه على أنفسهم عهدا بإحقاق الحق ونصرة المظلوم والضرب على يد الظالم. كان صلى الله عليه وسلم وقتها ابن خمسة وعشرين عاما ولم يُبعث بعد. لإعجابه بحلف الفضول إعتمده بعد بعثته ليكون مكونا من مكونات أول وثيقة إسلامية لحقوق الإنسان. هل من كانت هذه صفاتهم مع الغريب يكونون ظلمة وجبابرة مع أنثاهم, رفيقة حياتهم التي كانوا يرونها عرضهم الذي لا رد على من يقترب منه إلا الدم؟ سنرى حقوق المرأة والعبد في الإسلام بل وحتى حقوق الإنسان زمن الحرب التي لا زالت زمنا لضياع كل الحقوق إلا في ظل الحرب الإسلامية.
2. لم نعرف تاريخيا أن العرب عادوا أي أمة لمجرد أنها لم تكن تعبد الأصنام مثلهم. ألم يكونوا على علاقة ممتازة مع الفرس عباد النار والنصارى حاملي الصليب؟ حتى عدائهم للإسلام لم يكن كما صار ثابتا علميا لذات الدين إنما لفهم خاطئ بأنه جاء ليقضي على ثرائهم ومنافعهم المادية. لذلك ما أن أسلموا وعرفوا أنه يزيد كل ما كانوا يخشون ضياعه حتى صاروا من أقوى المتمسكين به ولم يرتدوا حتى بعد زوال مجد المسلمين وإلى يومنا هذا.

حاء الإسلام فجعل الناس سواسية في الحقوق والواجبات ولكن كل حسب قدراته ومؤهلاته ولما خُلق له. كما جعل ذلك واجبا دينيا يُثاب فاعله ويثأم تاركه بل ويعاقب في الدنيا قبل الآخرة من قبل الحاكم المسلم. المعروف أن الإلتزام الديني أقوى من أي إلزام آخر. قال صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع (أيها الناس, إن ربكم واحد, وإن أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم, وليس لعربي على عجمي, ولا لعجمي على عربي, ولا لأحمر على أبيض, ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد, ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب) **13** ونلاحظ أنه لم يقل أيها المسلمون. الحرية واجب شرعي كذلك. يقول الله في الآية 256 من سورة البقرة (**لا إكراه في الدين لقد تبين الرشد من الغي**) صدق الله العظيم. وآيات أخرى تحث على عدم الإكراه في كل شيء, وتضمن حرية الملكية والتفكير واختيار رفيق الحياة خاصة الزوج والزوجة واختيار الحاكم وتحصيل العلم وكل الحريات تحققت زمن الحكم بالشريعة الإسلامية. أما العدالة فهي مخ الحكم الإسلامي مصداقا لقوله **(لا** **يجرمنَكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. إعدلوا هو أقرب للتقوى )** صدق الله العظيم – المائدة 8 – تعلم المسلمون من نبيهم كيف يتم تطبيق ذلك على أرض الواقع. أولا, بإقامة قوة أمنية يسوسها رجال عادلون وأقوياء في الحق وقضاء حر نزيه لا سلطان للحاكم عليه ولا يميز بين الكريم والنبيل ومن ليس كذلك. فالقوي في الإسلام ضعيف حتى يأخذ العدل منه الحق الذي غصب والضعيف قوى حتى يعيد القاضي له حقه. ألم يقل النبي عليه السلام أنه لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها!

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**13. د. علي وافي / حقوق الإنسان في الإسلام / ص 6**

لم يكن للمسلمين حقوق إنسان دعائية وإنما كانوا يطبقونها على أرض الواقع حتى أرغموا ألد أعدائهم على الإعتراف لهم باحترامهم لكل حقوق الإنسان. قال (كيروس) الملك والفارس المسيحي ومن ألد أعداء الإسلام وعلى الملأ أن العرب المنتصرين لم يكونوا أبدا مخربين. أما بطريرك بيت المقدس فقد كتب لأخيه ونظيره في القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية في القرن التاسع الميلادي أي بعد قرنين من الحياة في ظل الحكم الإسلامي ليحدثه عن عدالة المسلمين وشدة كراهيتهم للظلم وأخذهم على أيد الظالم, وأنهم لم يمارسوا يوما معهم أو مع غيرهم من غير المسلمين أي عنف أو ظلم. كان الرجل صادقا مع نفسه وربه ويكفي أن نعرف تصرف الخليفة عمر بن الخطاب القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية التي إستولت على القدس حين كتب لأهلها عهدا عام 17 للهجرة (638 م) في سابقة ضمن فيها المنتصر حقوق المهزوم ونصه كما يلي:

"هذا الإتفاق يشمل الرعايا المسيحيين, كهنة ورهبان وراهبات, وهو يضمن لهم الحماية والأمن أينما كانوا حسب مشيئتهم, و بالمثل يحمي كنائسهم ومساكنهم وأماكنهم المقدسة, وكذلك يحمي من يزور تلك الأماكن من جورجيا أو الحبشة, يعاقبة كانوا أم نساطرة, ويحمي كل من يؤمن بالنبي عيسى. كل هؤلاء يجب مراعاتهم لأن الرسول قد كرَمهم في وثيقة تحمل خاتمه نبهنا فيها أن نكون معهم رحماء وأن نضمن لهم أمنهم." **14**

إذا لا غرابة أن يشهد الأعداء وبعد قرون أن المسلمين كانوا يحترمون حقوق الإنسان كابر عن كابر. لما كان الحديث يطول في هذا المجال والمكان لا يسمح بذلك أردنا التركيز على أمور ثلاث لأنها لا زالت مثار جدل حتى يومنا هذا والأهم لا يزال الغرب ومعهم مرضى العرب يتهمون الإسلام باختراقها وهي حقوق الإنسان في الحرب وحقوق المرأة وحقوق العبيد. لذلك فلنرى ما هي الحقوق التي لم تُكتب للغير فقط بل ومورست على أرض الواقع يوم كان الإسلام الحقيقي المحمدي حاكما.

**حقوق الإنسان زمن الحرب**

بفضل الله تعالى وبما فتح به على الإنسان من العلم صرنا اليوم نتابع مجريات الحروب في وقتها ومكانها وبالصوت والصورة وإذا بنا نجدها لا زالت كما كانت قبل الإسلام زمنا للظلم وخرق كل حقوق البشر. قالوا أن القتل يكون عرضيا في الحرب ولكن تعذيب الأسرى والإعتداء على الأعراض وإنتهاك الحرمات وإهانة الدين والتبول على المصحف وإلقاءه في المراحيض وكل ما شاهدناه يُقترف بأيد من يزعمون حمايتهم لحقوق الإنسان حتى جعلوها بيد الأمم المتحدة لتكون عالمية الإلزام ويدعون أنهم من سيفرضونها. أين كل هذا وهو بعض ما يجري اليوم كما جرى بالأمس وسيجري غدا خاصة متى كان الضحية مسلم ومسلمة من تلك

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**14. . د. هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / 363**

الحقوق في الإسلام زمن الحرب والتي صارت في ذمة التاريخ صفحة ناصعة في تاريخ الحروب؟ كانت البداية يوم كان المسلمون ضعفاء في قريش ولمدة ثلاثة عشرة عام وهم يتلقون القهر والعدوان والتعذيب وحتى القتل فقط ليدربهم ربهم على الصبر على المكاره وتعلم عدم الرد بالمثل لعلمه أنهم سيكونون يوما هم القادرون. فتخرجوا وبامتياز مع مرتبة الشرف. عرفوا حقوق الإنسان كلها وخاصة زمن الحرب فاحترموها مما دفع بشعوب من يغزون إلى تفضيل الغازي المسلم على الأخ الحاكم. هذه أهم حقوق الإنسان كما حددها الإسلام زمن الحرب:أول حق جاء يوم أذن الله للمسلمين بالرد بالمثل لمن يحاربهم في الآيتين 39 و40 من سورة الحج في قوله (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله, ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) :

1. البند الأول هو حماية دور العبادة مقدما الله دور غير المسلمين على المسجد واحترام الإنسان ولو كان مشركا لأن المسلمين سيكونون هم الغالبون والمنتصرون بإذنه تعالى ووعده. وضع النبي عليه السلام عمليا كيفية تحقيق هذا البند بأن حرم على الجيوش المسلمة العسكرة قرب مناطق العدو الآهلة وعدم التعرض للمسالمين من طرف العدو خاصة النساء والأطفال والعجزة وكبار السن وكل من لا يحمل السلاح ويقاتل المسلمين حتى أنه فرض توفير المقاتلين المسلمين الحماية لأولئك في أنفسهم وأرزاقهم وسبل علاجهم. بل حرم كذلك حرق الزروع أو هدم البيوت أو قتل الحيوانات. علم عليه السلام بعد معركة طاحنة أن أطفالا للمشركين قد قتلوا عرضا فغضب غضبا شديدا حتى سأله المسلمون سبب ذلك والقتلى أبناء مشركين! رد في غضب أكبر أن أولئك الأطفال هم عند الله تعالى أفضل منهم لأنهم أبرياء, ثم ذكرهم بأصولهم الوثنية وحذرهم ثلاث بألا يمسوا الأطفال وهو تكرار يعلم المسلمون أن تكرار الحادثة يعني إحتمال معاقبتهم لو تكرر ذلك منهم بعد أن علموا حرمانيته.
2. كان الأسير بيد المجاهدين وليس الدولة ولكنهم تعلموا من دينهم كيفية معاملة الأسير. فكانوا يطعمونه مما يأكلون ويكسونه مما يلبسون ويسكنونه فيما يسكنون وله حرية ممارسة عبادته والتعبير عما يجيش في صدره. أما التعذيب وما شابه فلم يكن يخطر على بال المسلم الحقيقي. بل لا يكلف الأسير بأي عمل ولا يعامل معاملة العبد كما كان لدى بقية الأمم ولا يزال إلى اليوم. قيل أن الجنود الرومان كانوا يفاجئون بتلك المعاملة لما غرس فيهم من باطل لذلك ما أن يُطلق سراحهم بمقابل مادي أم مقابل أسرى مسلمين كانوا يروون لإخوانهم ما وجدوه من المسلمين من معاملة إنسانية حتى صار الجندي الروماني يلقي سلاحه أمام المسلم لعلمه أنه بذلك ينجو من الموت في ساحات الوغى ويتحول إلى أسير فيحيى أفضل حياة مما كانت له وسط جيشه وشعبه.
3. صحيح أن الإسلام مثل كل المخططين للحرب يبيح مفاجأة العدو ولكنه لا يسمح بما عرفناه من معنى المفاجأة وهو أخذ الطرف الآخر على حين غرة وهو غافل ليس لديه ما يدل على إمكانية وقوع هجوم عليه إنما هي المفاجأة زمن الحرب. لا تُشن الحرب في الإسلام دون سابق إنذار. المسلم ملزم بإتاحة فرصة الحل السلمي لسبب الحرب لأنه يفضل استتباب السلام في العالم. ينصح عليه السلام المسلمين بألا يرغبوا في الحرب بل يدعوا الله أن يسود السلام. فإن فشلت الحلول السلمية وصارت الحرب الحل الوحيد أعطى المسلمون عدوهم فرصة الإستعداد لمواجهتهم بتوجيه إنذار له وبعد نهاية موعد الإنذار يُفسح المجال أمام المقاتل المسلم كي يفاجئ عدوه سواء من حيث ساعة البداية أو أثناء مجريات المعارك. رغم ذلك وبأمر الله تعالى يقبل المسلم السلم ويوقف الحرب ( وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) صدق الحق – الأنفال 61 – هكذا أمر وليس إذن فقط.
4. علاوة عما تقدم حرم الإسلام أثناء الحرب تجويع شعب العدو أو قطع ضرورات الحياة عنه أو الدواء بهدف فرض إستسلام المقاتلين لأن الإسلام يفرق وبحدة بين المقاتل وأهله الغير مقاتلين. بل كانوا يعالجون جرحى عدوهم ولو كان قائدا كبيرا ويخبرنا تاريخ الحروب الصليبية كيف كان المسلمون يعالجون جنود الصليب وقادتهم ويسمحون لهم بالعودة إلى مواقعهم أصحاء لأنهم لم يفقدوا مثلنا بعد الروح الإسلامية الصادقة والأصيلة. هذا قسيس وطبيب في نفس الوقت كان يرافق الحملات الصليبية في الشرق المسلم فلاحظ أن جنوده الجرحى كانوا يحتالون ليتسربوا إلى جانب المسلمين للعلاج ويتجنبوا علاجه الذي يصيب بالإعاقة أكثر من الشفاء. فذهب هو للمسلمين ليعلم أن الجنود كانوا على حق. لذلك أخذ من الأطباء المسلمين علمهم وعاد به إلى الوطن ليفيد الأوربي المعذب. أبعد هذا من دليل على عظم حقوق الإنسان زمن الحرب حتى الجنود المحاربين يعالجهم عدوهم المسلم ولا يأسرهم؟

**حقوق الـــرقيق في الإٍســـــــــــــــلام**

كان الرق وللأسف ولا يزال, وإن إتخذ أشكالا خادعة, من الممارسات البشرية المقبولة من كل الأمم. كان الرقيق يعامل معاملة المتاع البخس وكان للسيد حرية التصرف فيه بيعا وشراء واستثمارا وحتى قتلا. حتى أسرى الحرب كانوا كثيرا ما يُسترقون خاصة إذا عجز أهل الأسير عن الفدية لفك أسره بل حتى المدين قد يتحول إلى عبد متى عجز عن سداد دينه وبحكم المحكمة كان عليه قبول الاستعباد من قبل صاحب القرض حتى يسدد الدين الذي عليه وإلا ظل عبدا وربما باعه صاحب الدين إيفاء لدينه وحالات كثيرة أخرى كانت تؤدي إلى وقوع الحر في قيد الاسترقاق. هكذا كانوا يُوجدون مداخل لاسترقاق الناس والإسلام أوجد مخارج من الرق لكل إنسان. لذلك كله وأكثر لم يحرم الإسلام الرق إبقاء للمسلمين على فرصة معاملة العدو بالمثل رغم الفرق الشاسع كما أسلفنا بين الرقيق بيد مسلمة وذلك بيد غير مسلمة. لم يقف الإسلام عند هذا الحد بل أوجد من المخارج الكثير التي تُحرر الرقيق بيد المسلم وهي كما يلي:

1. يُحرم الإسلام إستعباد المسلم لأخيه في الإسلام
2. القاضي المسلم ملزم بالحكم لصالح النصراني الذي يطلب ولدا ما ليتبناه وينازعه مسلم يريد إسترقاقه لأن الإسلام يقدم مصلحة الإنسان على حتى إعتناق الإسلام.
3. يعد الإسلام من يعتق عبدا بأن له جزاء عظيما وهي جنة الخلد التي يفرح بها المؤمنون.
4. ولد الأَمَة المستعبدة من سيدها يولد حرا أي لا يجوز معاملته كعبد أو بيعه. هذه الأمة تصبح حرة آليا فور وفاة سيدها وهي غير قابلة للتصرف بها منذ إنجابها للولد.
5. للعبد في الإسلام كامل الحرية الفكرية والدينية فهو مسترق جسديا فقطجعل الإسلام الرق مقتصرا على جسد الرقيق بدون إرهاق أو أذى وبدون حرمانه من الراحة التي يحتاجها والكرامة التي تلزم كل إنسان خاصة أن المسلم يعرف أن الله كرم بني آدم. على السيد أن يطعم عبده ويكسوه ويسكنه بمثل ما يفعل مع نفسه وأهله. يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: من يجوع عبدا وجب تجويعه, ومن يقتله وجب قتله فيه, وهكذا مع أي أذى يُلحقه بعبده يجب أن يُحكم به عليهكثير من العبادات والجرائم والأخطاء جعل الدين جبرها بعتق رقبة كما في حالة القتل الخطأ فالعتق هو الحل الأول والمفروض ما لم يكن متوفرا للقاتل من رقبة للعتق فتأتي الحلول الأخرىيقول الله تعالى في سورة التوبة الآية 60 (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب..) صدق الله العظيم. الصدقات هي فريضة الزكاة فجعل الله نصيبا منها لعتق الرقاب أي العبيد.

هكذا لم يمنع الإسلام الرق ولكنه جعل له معاملة إنسانية كاملة ومخارج كثيرة وما ذكرناه منها هي أمثلة فقط لذلك وجدنا المسلمين أحرص الناس حتى اليوم على عدم إسترقاق أحد. أما الحالات التي نقرأ عنها فهي تصرفات مسلمين ضعيفي الإيمان لا يمكن أخذ سلوكهم حجة على الإسلام.

**المــــــــرأة:**

المرأة هي الشريك الند للرجل ولكنها تتميز بكونها تمثل الركن الجميل في المجتمع والصورة البهية التي تزين أركان الحياة البشرية. نرى اليوم الإعلانات التجارية تكاد تقتصر على النساء لأن خلقتها من تجلب الزبائن وليس خُلقها. المرأة تختلف عن الرجل في أنها وعاء لذلك يمكن إغتصابها خاصة أنها جسديا لا تملك قوة الرجل للمقاومة لذلك نجد في عصر إقحامها في مجالات لم تُخلق لها ففشلت وبدلا من الإعتراف بذلك عادوا يُجرمون الرجل. لم نرى مقاتلات نساء على الجبهات الحربية ولو لدى الذين ملئوا كتائبهم بها. أما الإسلام فقد أعطى كل من الرجل والمرأة الحق المناسب لما خُلق له كل منهما. يقول "Green": الرجل بطبيعته هو الراعي والحامي للمرأة لذلك أعطاه الإسلام درجة على المرأة ليس فيها تميز فوقي ولا وضاعة لها. كي نعرف قيمة المرأة في الإسلام لابد لنا من معرفة قيمتها لدى أجداد من أوجعوا رؤوسنا اليوم بالحديث عن حقوق المرأة لعلهم يخجلون من أنفسهم فيصلحوا ولو حال المرأة المعاصرة عندهم.

**المرأة عند القدمــــــاء**

كان الإغريق أصحاب حضارة عظيمة حتى فرضت نفسها على الروم حين سيطروا على بلاد الإغريق فظلت حضارتهم بل ولغتهم تزدهر في ظل المحتلين الرومان. لكن المرأة الإغريقية كانت محرومة من أبسط الحقوق كإنسان. إعتبر الإغريق المرأة رجس من عمل الشيطان لذلك حرموها من كل الحقوق التي تلزم الإنسان, بل وكانت تُعامل كمتاع بخس يباع ويُشترى. ألزموها بيت الرجل أب كان أم زوج وحصروا رسالتها في التفاني في إرضاء الرجل وتربية أولادها منه وطاعة أوامره بدون نقاش ويبقى له حق التصرف فيها كيفما شاء ولولا حاجة الذكر غريزيا ربما كانوا قد حكموا على المولود الأنثى بالموت. عرفنا من التاريخ أن الإغريق كانوا يتخلصون من الأطفال الذين يعتبرونهم غير أسوياء وهم أولادهم, فهل كانوا سيوفرون حياة الأنثى لو لا الحاجة لها كمتعة ولطرف واحد

لم يكن الهنود أقل سوء في تعاملهم مع أنثاهم, وهذا مقتطف من شرائعهم كافية لمعرفة حال المرأة الهندية قديما. تقول شرائعهم (إن الوباء والموت والسم والأفاعي والنار خير من المرأة) **15** لذلك كانوا يأمرونها بأن تلقي بنفسها في أتون النيران التي كانت تلتهم جثمان زوجها الميت وإن لم تستجب دفعوا بها إلى النار عنوة لأنهم كانوا لا يرون لبقائها بعد زوجها حية من حق لأنها خلقت لأجله, وقد ذهب.

اليهود أهل كتاب سماوي حرفوه لينصبوا من أنفسهم سادة لباقي خلق الله ويفترون على الله بأنه إختارهم كشعبه المختار. إذا من يفتري على الخالق لا غرابة أن يفتري على الخلق بل ولا غرابة أن يكون رأيهم في المرأة ظلما صُراح. جاء في سفر الجامعة: (درت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا, ولأعرف الشر أنه جهالة, والحماقة أنها جنون, فوجدت أمرَ من الموت, المرأة, التي هي شباك وقلبها أشراك ويداها قيود ... رجلا واحدا بين ألف وجدتُ. أما إمرأة فبين كل أولئك فلم أجد)**16**

الرومان أصحاب إمبراطورية عظيمة الشأن كادت تحكم كل عالم زمانها ولها حضارة إزدادت رفعة وتقدما حين طعموها بالحضارة الإغريقية كما أسلفنا ولكنهم لم يعرفوا للمرأة ولو ذرة خير مما وجدته عند غيرهم. كان الرومان يعتبرونها أَمَة تتبع الرجل وفي خدمته. إعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية مخلوق من المرتبة الثانية. عقد مؤتمر في روما ليخرج بقرارات إعتبرت المرأة كائنا بدون روح, لذلك لا حق لها في الإرث. بعد ذلك حرموا عليها أكل اللحوم أو الضحك خشية أن تلوث البيئة. أما الكلام فهو ما لا يجب أن تفكر فيه خاصة خارج منزلها. زيادة في الحيطة كانت المرأة مهما علا شأن أهلها أو زوجها لا تُرى في الشارع بدون قفل مثبت على فمها لمنعها من الكلام وكما أسلفنا حفاظا على طهارة البيئة. رسالتها الوحيدة هي خدمة الرجل وأطفاله منها وترتيب المنزل له, ولم يتوقف تحذير الرجل منها لكونها أداة غواية يستخدمها الشيطان لإفساد قلبه الطاهر, لذلك كانت تتعرض للضرب.

عُقد مؤتمر في فرنسا عام 587 م فاعترف المؤتمرون بأن المرأة إنسان. نقلة عظيمة وتاريخية وكأنها لم تكن كذلك منذ خلقها الله., ولم تكتمل الفرحة فقد أكد المؤتمر في نفس القرار أن المرأة إنسان ولكنها خُلقت لأجل الرجل. ظلت المرأة الفرنسية على ذلك الهامش حتى العام 1938 عندما سُمح لها ولأول مرة بحقها في فتح حساب مصرفي جاري وممارسة حقها في التوقيع على الصكوك والوثائق الرسمية والإرث.

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**15. د. أحمد شلبي / الإسلام (بالإنجليزية) / ص 308**

16. **عفيف طبَارة / روح الدين الإسلامي / ص 331**

في بريطانيا أصدر ملكها هنري الثامن (1509 -1547 م) قرارا حرم بموجبه على المرأة قراءة الكتاب المقدس . ظلت المرأة حتى عام 1850 غير محسوبة كمواطنة, كما حُرمت من كل حقوقها الشخصية حتى العام 1882, فلم يكن للأنثى حق الملكية وظلت ملحقة بوالدها أو زوجها. حتى منتصف القرن العشرين كان ممنوع على النساء الاشتراك في النوادي والاتحادات الطلابية في جامعة عظيمة مثل جامعة (أكسفورد) ولم تُعطى هذا الحق البسيط إلا منذ يوم 26 يونيو 1964. هذا هو حال المرأة في الغرب الذي ينَظر علينا ويتهمنا وللأسف منا من يتجاوب معه فيجتر ترهاته. فما هو حال المرأة الغربية اليوم؟؟؟

**المرأة عند الغـــرب اليــــــــوم**

من الجهل والضلال أن نجد وحتى في ظل الربيع العربي أي في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين من يجتر من بيننا مقولات بالية كاذبة مدمرة حول حال المرأة العربية المظلومة من قبل الرجل. أما هناك عند الغرب فهي مساوية للرجل ومتمتعة بكامل الحقوق التي للرجل ولا يعيقها شيء. كنا نصدق ما نسمع حتى عشنا في الغرب وتعاملنا معه فعرفنا حال الرجل والمرأة عنده فإذا بها في هم لم تشهده المرأة العربية زمن الجاهلية. لقد وضع كاتب غربي أسلم فعرف الفرق بين الإسلام والمسيحية فقال: "كنا في الماضي نقول – تلك عاهرة- فصرنا اليوم كلهن أصبحن عاهرات بطريقة أم بأخرى ".**17**  هذه بعض وليس كل مكاسب المرأة الغربية التي تطالب بها الضالات من بنات المسلمين في هذا الزمن الرديء:

1. أخف ضرر هو أن الأنثى متى تزوجت فقدت لقب أسرتها لصالح لقب أسرة زوجها الإنسان لا يعيش بدون إنتماء ولا أعز عليه من انتماءه إلى والده الذي يجري دمه في عروقه. أما الزوج فقد يكون أمرا طارئا. فهل من المنطق أن تحمل المرأة لقبه وقد يطلقها بعد حين مهما كانت قيود الطلاق صعبة؟
2. باسم مساواة المرأة مع الرجل من حيث الحرية الجنسية جعلوا المرأة لكل من هب ودب وكأن الإباحية مسموح بها للرجل ولا ضرر على المرأة متناسين عمدا أنها من تحمل وبالتالي تعاني من تربية من تنجب لأنها أنجبت في سفاح وبرغبتها. كان نتاج الحرية هذه (مليون طفل أمريكي يُعتدى عليهم جنسيا ... وإثنا عشر مليون طفل بلا أب في كل عام ... وفي بريطانيا ثمانية ملايين إمرأة بالغة غير متزوجة, 90% منهن يمارسن الجنس, وحالة الطلاق بين كل حالتيْ زواج ... ويُبلَغ عن حالة إغتصاب كل سبع دقائق في المكسيك.) **18** وهلم جرة. مع العلم أن أمريكا توصف بالمحافظة في مقابل دول أوروبا. هكذا إختلطت الأنساب وكثر أولاد الحرام وعلماء الإجتماع يعلمون ما ينتج عن ذلك من مصائب إجتماعية.

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**17. عبد الرحمن قرين / المرأة في الإسلام / موقع الجودة على العنكبوتية 20/12/2009**

18**. شوقي / الحضارة العربية الإسلامية / ص 9**

1. كأن الخطة يهودية ابتلعها الغرب المسيحي حتى صار القانون يعاقب الزوج الذي يعاشر زوجته دون رغبة منها بتهمة إغتصابها. أما أن تكون للزوج مع زوجته عشيقة يلجأ إليها عند رفض الزوجة فذلك لا غبار عليه لأنها ستكون مثله لها عشيقا. أي عقل يقبل مثل هذا التصرف غير التشجيع على تلويث الأرحام وخلط الأنساب ورفع نسبة العوانس وزرع العاهرات في البيوت التي يجب أن تبقى طاهرة مما وسع مجال المنحرفات؟
2. لا حق للزوجة العاملة حتى في الطعام على زوجها. روى لي صديق عاش في الغرب حادثة مزرية حصلت أمامه في بداية تواجده هناك. قال أن صديقا غربيا عزمه على وجبة في منزله. جلس ومضيفه يأكلان ولكن زوجة المضيف لم تشاركهما. سألها الليبي إن كانت شبعانة, فنفت ومباشرة قالت فقط لأنها لم تشترك في ثمن الوجبة. قال صديقي أنه شعر بالفخر يزداد كونه عربي ومسلم لا يخطر بباله حرمان الغريب من الطعام ما بالك بالزوجة.
3. المعروف ضمن حرية المرأة الغربية ومساواتها بالرجل أن العلاقات الغير شرعية يتحمل كل طرف فيها تبعاتها وطبعا لا تبعات تلحق الرجل. لو حملت الصديقة من صديقها فما عليها إلا الصمت وتربية ولدها وعلى حسابها لأنها كانت راضية فيشب الولد أو البنت مجهول النسب. لذلك نسمع كثيرا عن إرتفاع حالات الإجهاض عند الغرب بل وتدور دائما حوارات حول تقنين حق الإجهاض إذ بعض دول الغرب لا تبيحه. لازلت أذكر أن الرئيس الأمريكي ريجان سُئل عن سبب معارضته الإجهاض فرد بأنه لم يقصد إلا إحترام حقوق الإنسان والحمل متى خُلق صار إنسانا وقتله إهدارا لحقه في الحياة.
4. مساواة المرأة بالرجل الذي يفاخر الغرب به لم يزد عن أحد أمرين: إما الكذب على المرأة والمجتمع فتبقى تقوم بما تقدر عليه فقط ويكون معها رجل ليقوم بما لا تقدر هي عليه. رأيت في إدارات البريد الأمريكية كل الموظفين تقريبا من النساء مع وجود بعض الشباب وإذا بي أكتشف أن الشباب وجدوا لأجل دفع عربات الطرود وإحضارها إلى الموظفة فقط أي حمال ولعله أعلم منها. إذا لتأكيد الكذبة تحملت الإدارات معاش موظف إضافي. أما الأمر الثاني فهو الذي طبقته الدول الشيوعية التي فرضت على المرأة أعمالا ليست لها أبدا فترى الفتاة في ريعان شبابها وقد دمرتها تلك الأعمال فحالت إلى حالة هي أقرب إلى العجوز أحيانا.

سئل الرئيس المصري أنور السادات عن سبب معاداته للإشتراكية ومنذ متى؟ قال أنه كان وهو رئيسا لمجلس الأمة في زيارة إلى ألمانيا الشرقية وإذا به وهو في جولة حرة يشاهد عجوزا تكنس الشارع ولم يلحظ وجود منزلها. سأل المرافق عنها, فأوضح له أنهم يؤمنون بوجوب عمل الإنسان ليأكل حتى يعجز, وهذه العجوز قادرة على كنس الشارع على الأقل. قال السادات: يومها لعنت الإشتراكية وحمدت الله أن إشتراكيتنا العربية تحيل المرء على التقاعد وهو أصح من هذه مرارا كثيرة. إتهمت جمعيات حقوق المرأة الأمريكية قائد سلاح الجو تقريبا بمعاداته للمرأة لعدم وجود مقاتلين من النساء. دافع بالنفي وشرح أن المرأة تصلح لأعمال دون أعمال لطبيعتها. روى أنه حدث مرة أن طارت إحداهن ولولا حرصه على أن يكون مساعد المرأة رجلا لضاعت المرأة والطائرة. يومها تعرضت تلك الجندية للدورة الشهرية وهي تقود الطائرة الحربية في الجو ومن عادتها أن تفشل وتصاب بدوار في بداية الدورة فلو لم يشدها المساعد جانبا لوقعت الطائرة والخسارة كبيرة لو ماتت هي لأن بناء الإنسان يحتاج لسنوات وأموال كثيرة.

**الجاهليون العرب والمـــــــــــرأة**

اليوم ونحن نثير التراب عن تاريخ المرأة عند عرب الجاهلية فلا نملك تغييره لأنه صار في ذمة التاريخ وليس واقعا لا يزال طور التكوين والتطور. تصفح التاريخ يقنعنا أنها كانت في وضع لا يمكن مقارنته لا من قريب ولا من بعيد بأخواتها في بقية العالم وقتها بل أزعم أن حالها كان أفضل من حال أختها الغربية اليوم. كانت المرأة في الجاهلية تعيش حياة أفضل بمراحل. لم يكن العرب قد صنفوها كرجس أو نجس أو تساءلوا إن كانت إنسان أم غير إنسان أو عاملوها بشيء مما سبق لنا شرحه. رغم ذلك فقد كانت تعاني من بعض السلبيات وستبقى هي وحتى الرجل يواجه سلبيات لا تعجبه أو تنقصه بعض مطالبه. يقول مؤرخون مسلمون وعربا أنها كانت تُدفن في طفولتها المبكرة بحجة الخوف من أن تجلب لأبيها العار لما تكبر أو لأي سبب آخر. عندما كنا في سن المراهقة فعندما نسمع مثل هذا الكلام نتساءل بين بعضنا: إذا كيف بقي الجنس العربي إلى اليوم؟! كما قالوا بأنها لم تكن تُعطى نصيبها من الميراث ولم يقولوا كيف كانت المرأة تستأجر الرجال للمتاجرة لها بمالها؟!. وزاد البعض بأنها كانت تُرغم على ممارسة البغاء. حاولت جاهدا أن أجد أدلة منطقية تدعم كل هذه المزاعم فخرجت بحقائق على ما أعتقد وهي كما يلي:

1. بعض المؤرخين المسلمين ضخموا بعض الحالات الظالمة للمرأة بدافع إكبار ما حقق الإسلام من عدالة للمرأة بفرض حقوقها على الرجل. قصدهم شريف ولكنهم نسوا أن الإسلام لم يكن يوما في حاجة لمن يجعله كبيرا أو عادلا أو منصفا فهو بذاته وأعماله كذلك فلا يحتاج للمبالغة ما بالك بالكذب.
2. نسي المؤرخون المسلمون كذلك أن القبائل العربية لم تكن موحدة العادات والتقاليد فعمموا وأد البنات على أنه سلوك عرب الجاهلية بينما ربما كان تصرف بعض القبائل ولعلها كانت قليلة.
3. إتهموا أسلافنا قبل الإسلام بأنهم لم يورثوا الإناث. يقول عمر فروخ: "والإرث في الجاهلية حق الرجال الذين يركبون الخيل ويحملون السلاح, فالطاعنون في السن والصبيان لم يكن لهم حق الإرث. أما النساء فكان الرجال يرثون منهن ويرثونهن كما يرثون المتاع والأموال. ولقد كانت القاعدة العامة في الجاهلية أن المرأة لا حق لها في إرث قريبها المتوفى. على أن الأخبار وردت في أن المرأة في بعض القبائل كانت ترث أحيانا" **19** ذكر عمر فروخ أن بعض القبائل تورثهن وهو من قلة قليلة ممن أرخوا للعرب من العرب وذكروا هذه الحقيقة. حرمان البنت من الإرث, للأسف ولجهل عرب اليوم, نجده

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

19. (النت ؟؟؟)

مطبقا في بعض القبائل الشاذة عن القاعدة العامة. معظم المؤرخين المسلمين اليوم يسكتون عن الحديث حول مصدر ثراء أمنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

1. يكتبون عن أيام العرب وكيف حربا قامت لأربعين عاما فأكلت الآلاف من الرجال والسبب في بساطة قتل أحدهم ناقة إمرأة, وليس المرأة ذاتها. فأي عقل يقبل أن يموت آلاف الرجال نجدة لإمرأة قُتلت ناقتها وهم يزدرون المرأة عامة؟ لم نقرأ أن القدماء من غير العرب كانوا يدافعون عن المرأة تأكيدا لاحتقارهم لها, فلما نُسقط ذلك على تاريخنا قبل الإسلام؟
2. عادة ما نقرأ عن وأد البنات ولا يقول الكاتب شيئا عن العمر الذي كانت تدفن فيه حية إلا قلة قالوها بأنها كانت توأد في طفولتها المبكرة ولا يمكن أن يكون ذلك مع من تتعدى تلك المرحلة. (وأد الجاهليون أولادهم بنات وصبيانا في أحوال نادرة. إذا وُلد أولئك الأولاد مشوهين, أو إذا كان الوالد فقيرا كثير العيال, أو إذا كان مع فقره وضعفه مئناثا, وكان يخشى ألا يستطيع الدفاع عن بناته في الحرب.) 20 أقول أن معظم من يثيرون قصة الوأد لا يذكرون شيئا عن موقف الأب وهو يدفن فلذة كبده حتى كنا نتصور الأب رجلا سفاحا قاسي القلب يجر ابنته ربما من شعرها وبكل قسوة يدفنها حتى صرنا آباء فعلمنا أنه إن وُجد واحد على هذا الحال فمقابله آلاف على غير ما وصفوه. لم يخبرونا بما أخبرنا به قلة قليلة من المنصفين الدارسين للتاريخ بنزاهة أن تاريخ الآباء مليء بمشاعر الأسى والحزن مثل قول أحدهم بعد وأد إبنته وقد إنهمرت دموعه حزنا ( يعلم الله أني أحبك ولو لا خشيتي عليك من فقري المدقع فتصبحين جارية في أيد ظلمة لا تسلمين من أذاهم حتى في عرضك لما دفنتك). هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى لم أجد فيما إطلعت على مراجع بالخصوص أمثلة كثيرة عن حالات الوأد وأكثر الحالات ترديدا هي وأد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابنته حين كانت تنفض التراب من على لحيته فظل يبكيها طوال عمره. إذا هي حالات فردية ومعزولة ولا يجوز أن نتخذها قاعدة عامة وسنرى أكثر عما يدعم قولنا هذا. اليوم نجد رجال الصين يوأدون بناتهم ولا أحد يهاجمهم لأن الهدف هو الإسلام وليس شفقة بالبنت.

لم تكن المرأة في الجاهلية معروفة بالثراء فقط بل حتى بالعلم كما سيأتي ذكره عند الحديث عن التعليم. فقد كان للعرب طبيبات وشاعرات وقارئات وكان الرجال يفخرون بهن ولم يمنعوهن من ذلك وهم قادرون وقتها. من الثابت أنه كان في قريش 17 نفر يعرفون الكتابة والقراءة وخمس نساء. علما أن الرجل كان يطلب ذلك لحاجته التجارية فما حاجة المرأة في بيتها للقراءة؟ لم يكن تعليم الطب ميسرا إلا خارج الجزيرة لذلك كان الرجال يتعلمونه في الخارج ثم يعلمون بناتهم الراغبات في علم الآباء, لذلك كان في قريش وما حولها طبيبات مثل زينب طبيبة بني أود المتخصصة في علاج أمراض العيون والجراحة. ورُفيدة من بني أسلم البارعة في مداواة الجروح والضبعة, وكن يعالجن الذكور كذلك. سيكون لنا حديث مفصل في مكانه لا حقا.

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**20. عمر فروخ / العرب في حضارتهم وثقافتهم / ص 74**

1. تعدد الزوجات حتى قيل أن البعض كان يتزوج مائة إمرأة دون أن يذكروا أمثلة وبالإسم والدليل والسبب وأي قبيلة كانت تسمح بذلك لأن القبائل لم تكن خاضعة لنظام واحد فلكل نظامها. حد علمي وفي حدود ما قرأت طوال حياتي لم أسمع عن هذا إلا في العصر الحديث وفي القبائل الإفريقية التي لا زالت تعيش على الفطرة تقريبا. "كان نظام تعدد الزوجات سائدا قبل ظهور الإسلام في كثير من شعوب العالم, وخاصة في الشعوب الآرية والسامية.... ولا علاقة للدين المسيحي في أصله بتحريم التعدد, وذلك أنه لم يرد في الإنجيل نص صريح يدل على هذا التحريم... كان لشارلمان ملك فرنسا ... زوجتان شرعيتان وعدة جوار, ويُستفاد من أحد قوانينه أن تعدد الزوجات لم يكن محظورا على عامة الشعب ولا على رجال الدين أنفسهم... وكل ما هنالك أن النظم الكنسية المستحدثة بعد ذلك قد استقرت على تحريم تعدد الزوجات ..." **21**  أي وحدة الزوجة ف الذي هو موروث عن مرحلة ما قبل إعتناق المسحية وقد سارت عليه عدة شعوب لزمن ولم يكن طارئا أستحدثه دينهم الجديد. إذا لم كن عرب الجاهلية وحدهم من عددوا وفي حدود مقبولة وليس كما يُشاع عنهم ظلما.
2. دفع المرأة لممارسة الدعارة لمنعهم إياها من الزواج كلام لا يستقيم أبدا مع ما عُرف تاريخيا عن عرب الجاهلية بالغيرة على أعراضهم والموت من أجل صون كرامة أنثاهم. ثم ها هي هند بنت عتبة زوج أبو سفيان تعلن إسلامها فيطلب النبي منها ومن معها من النساء قسم البيعة المتضمن ما معناه ألا يزنين فتدخلت هند مستغربة حتى قالت (أو تزني الحرة يا رسول الله!) والحرة هي أم وزوجة وابنة وأخت وخالة وكل قريبات الرجل العربي. إذا من هن اللائي كان الرجال يغصبهن على البغاء اللهم إلا بنات حانات اليهود اللائي لا أصل لهن ولا شرف, أو من لا إنتماء لها كالتي تقع في السبي وما شابه وهن مظلومات ولكن لا يجب أخذ الشاذ كقاعدة عامة.

**المرأة في ظل الإســــــــــــلام**

هنا لا نعني حقوق المرأة المسلمة فقط وإلا لقلنا " حقوق المرأة المسلمة" وإنما نقول المرأة, أي إمرأة في الإسلام, لأن الدين الإسلامي جاء لكل الناس (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) لذلك فهي حقوق عالمية لكل نساء الأرض أخذ بها من أخذ وتركها من ترك ولكنها تبقى عالمية. جاء الإسلام ليجد المرأة على ما سبق لنا شرحه فأكد الصالح لها وأزال المضر بها. لا يعرف الإسلام تغليب أحد على أحد **(إن** **أكرمكم عند الله أتقاكم)** رجلا كان أم إمراة. لذلك نظم حقوق الطرفين وليس كما نسمع اليوم فرض ما يُسمى بحقوق المرأة وكأن الرجل ليس له حقوق. إذا جاءت حقوق الطرفين إسلاميا بما يتفق وما خُلق كل منهما له, فلا يصح مثلا نقل الطوب بسيارة ركاب إذ للطوب شاحنة, ولكل حقوق وعليه واجبات تتفق وقدراته واستعداداته وإمكانياته وبنيته الجسمية والعقلية والعاطفية وباختصار يراعي الإسلام كل الفروق إلى جانب نظام العلاقة بين الطرفين كما حددها رب العباد. يمكننا تلخيص حقوق المرأة مسايرة للعصر فيما يلي .

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**21. (مجلة منبر الإسلام لشهر فبراير 1963 م – ص 54 و 55 )**

1. في ضوء ما تقدم سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في العديد من الواجبات والحقوق. كلاهما مطالب بالبيعة بالإسلام ليصبح مطالبا بأداء الفرائض التي لا فرق فيها بينهما. يعاقب الرجل مثل المرأة على ترك الفرض كما يُثاب كل منهما على أداء الفريضة. كلاهما مطالب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طبعا كل حيث يكون عمله ناجعا وقد توجد المرأة في الأسواق لهذا الغرض إن قدرت. يُروى أن النبي عليه السلام أجاز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لامرأة تُدعى سمراء بنت نُهيك الأسدية وكانت تمرق في الأسواق آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر وكانت تحمل سوطا لردع من لا يرتدع.
2. الإرث: لا أقول ما يقوله البعض بأن الإسلام أعطى المرأة نصيبا من الإرث الذي حُرمت منه زمن العصر الجاهلي فقد سبق لنا تفنيد ذلك. لكني أقول أن نصيب المرأة وهو نصف ما يرث شقيقها جاء أكثر من حقها بالنظر لما فرضه الإسلام وألزمت العادات والنظم الإجتماعية الرجل به. دينيا فالذكر وحده من عليه واجب إعالة والديه وإخوته وحتى أقاربه ثم وحده من يدفع المهر لمن يود الاقتران بها ولا حق له في مالها مهما كثر وهي في عصمته فوحده المكلف بالإنفاق عليها وعلى أولادهما, وإذا طلقها أو حتى لو طُلقت عليه كان من يتحمل التبعات المادية والنفسية وحده. إذا النصف الزائد عنده يتبخر في كل ذلك وللمرأة فيه نصيب سواء كانت أما أو أختا وغيرهما بينما للمرأة النصف خالصا لشخصها. قال عمر بن الخطاب رضي عنه وهو يقبل الحجر الأسود أنه لو لم يرى النبي عليه السلام يقبله ما فعل. أقول لولا الإيمان بأن طاعة الله خير للعبد دنيا وآخرة لقلت أن الرجل هو المظلوم في مجال الإرث. هذا علاوة على أنه في بعض الحالات ترث الأخت مثل أخيها تماما.

بينما يقول بعضنا بعكس ما في الإسلام من عدل في الميراث نجد عقلاء الغرب يقولون الحقيقة مثل الدكتور الفرنسي (جوستاف لوبون) الذي كتب يقول (... ومبادئ المواريث التي نص عليها القرآن على جانب عظيم من العدل والإنصاف ... والشريعة الإسلامية منحت الزوجات, اللواتي يزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف, حقوقا في المواريث لا تجد مثلها في قوانيننا.) **22**

1. تعدد الزوجات: أعجبني ما كتبه الدكتور علي عبد الواحد وافي **23**  فبعد أن أشار إلى إباحة الإسلام للتعدد ولكنه قيده بأربع زوجات بشرط القدرة على تحقيق العدالة في الإعالة وحتى المعاشرة, تطرق لأسباب الإباحة بالتعدد فقسمها على النحو التالي:
2. المبررات الطبيعية المتعلقة بالنسبة بين الإناث والذكور, فقد أثبتت بحوث علم السكان (الديموغرافيا) أن الذكور أكثر تعرضا للموت من الإناث أثناء الميلاد ومرحلة الطفولة الأولى مما يجعل الذكور دائما أقل من الإناث حتى بين تلك الشعوب التي تتميز بمواليد ذكور أكثر من الإناث ويبقى الفرق واحد عند الجميع من بني آدم لصالح تفوق عدد البنات.

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**22. عفيف طبارة / روح الدين الإسلامي / ص 298**

**23. د. علي وافي / تعدد الزوجات في تاريخ الحضارة الإسلامية وفي شريعة الإسلام و.../ ص 55 – 56 - 57**

1. المبررات الإجتماعية العامة: توزيع الأعمال بين الجنسين يجعل الذكور أكثر تعرضا للموت في مراحل الشباب وما بعدها وأقصر منهن أعمارا فالرجل عليه العبء الأكبر في تدبير المعيشة وهو من يكون طعم الحروب. مثلا, هلك في الحرب العالمية الثانية زهاء عشرين مليونا من الرجال بينما لم تهلك من النساء إلا بضعة آلاف. هذين السببين رفعا من نسبة تفوق الإناث على الذكور بشكل أكثر وأخطر. ولما

كان الرجل إجتماعيا وحده الحامل لعبء بناء الأسرة لذلك يعجز كثيرون عن ذلك إما مدى الحياة أو لسن متقدمة بينما تبقى المرأة صالحة دائما للزواج في أي وقت.

1. الضرورات الخاصة: وهذه تشمل إكتشاف عقم الزوجة أصلا أو حدوثه بعد الزواج, فينتفي تحقيق الأغراض العمرانية والوقاية من الوقوع في الرذيلة. كما قد تُصابة الزوجة بالمرض الذي يحول دون صلاحها كزوجة فينتفي غرض إعفاف الزوج وطهارة المجتمع. أليس التعدد أفضل من وجدة الزوجة التي تُلقي بصاحبات هذه الحالات إلى الشارع كي يتسنى للزوج حق الأبوة أو العفاف. التعدد يُبقي على تماسك الأسرة وهو في صالح المرأة العاقر وفي صالح تلك التي فقدت الرغبة ولها ولد فيحفظها التعدد وبنيها من فقدان الأبوة الركن المكمل للأمومة لإعطاء المجتمع عناصر صالحة.

بالإضافة لما تقدم وبما أنه لا حياء في الدين فنقول أن للتعدد فوائد أخرى نذكر منها ما يلي:

1. المرأة وعاء يمكن أن تُوتى في أي وقت سواء كانت راغبة أم غير راغبة بينما هذا لا يتحقق عند الرجل إلا عند الرغبة, وهي التي تحمل فلو كان لها حق التعدد لاختلطت الأنساب وتنازع الأزواج حول نسب الحمل لمن يكون منهم.
2. تتعرض المرأة للكثير من عوامل الهدم التي ليست لدى الرجل نتيجة طبيعة خلقها لتقوم بالرسالة التي خُلقت لأجلها, فمن الدورة الشهرية إلى الحمل فالرضاعة فتربية جميع أفراد المجتمع في شخص الطفل. هذا إلى جانب أنها تشارك الرجل الأمراض التي تعتري البشر. لذلك قلما تجد إمرأة مستعدة لمواصلة المعاشرة بعد الستين على أبعد أجل ومعظمهن قبل ذلك. الواقع وبالإحصاء يقر أن غالبية الزوجات يودعن الرغبة مبكرا حتى أن بعضهن وفي دول منعت التعدد كن يتحايلن على الرجل كي يعدد وهن موافقات على الإذن له فقط ليتركهن لحالهن, أما الرجل فمن المعروف جدا أنه يبقى قادرا في الغالب ربما حتى التسعين من عمره.

لما كان الإسلام حريصا على طهارة المجتمع ونقاوة النسب أوجد حدودا قاسية توقع على الزناة من الطرفين لذلك هل من العدل منع التعدد؟ لما كان الإنسان غير قادر على تغيير طبيعة الجنسين يُصبح من صالحه التعدد وخاصة المرأة فالأصلح لها أن تكون ولو زوجة رابعة لها حقوق الزوجة وكرامة المحصنة على أن تكون كما نراها في الغرب يتلقفها الرجال كاللعبة للتسلية ثم يرمون بها بعد قضاء وطرهم منها كالفضلات. كل علماء الإجتماع أكدوا على فساد الإباحية من عدة جوانب خاصة في مجال نشر أبناء السفاح الذين عادة ما يشبون أعداء لمجتمعهم. ناقشتُ شخصيا كثيرات في الغرب حول هذا الموضوع فوصلنا دائما إلى قناعتهن بأن الزواج أفضل مائة مرة مما يُسمى بالحرية ولو كانت المرأة زوجة عاشرة.

1. الزواج الصحيح في الإسلام هو ذلك الذي تكون نية الطرفين فيه التأبيد لأن الطلاق مكروه في الإسلام كونه حل عند الحاجة القصوى فقط, لذلك فلو عجزت المرأة علاوة على طبيعتها في رفض المعاشرة عند سن معينة أو سوء العشرة, فهل التعدد أفضل أم تمزيق الأسرة بالطلاق أصلح؟
2. قوامة الرجل على المرأة: القوامة هي في الواقع رئاسة لمؤسسة الأسرة, وهي رئاسة لا يستغني عنها أي مجتمع حتى في عالم الحيوان ما بالك بعالم الإنسان. والأسرة هي مثل كل مؤسسات المجتمع البشري الأخرى من حاجة المجتمع لحكومة وحاجة الشركة لمدير كي تُصبح ناجحة وهلم جرة. الرئاسة لا تكون لأي عنصر في أي جماعة بل لمن له مؤهلات القيادة وشروطها والرجل خُلق ولم يخلق نفسه قادرا على التحكم في عواطفه واتخاذ القرارات بعد تفكير وتدبر وروية إلى جانب ما سبق لنا شرحه من تكوينه الجسدي يكون بذلك الأقدر على قيادة الأسرة كي تزدهر. أما المرأة فهي عاطفية لزوم رسالتها في تربية النشء. رأينا معظم النساء متى غضبن من الأزواج طلبن الطلاق فلو إستجاب أي زوج لطلب رفيقة حياته وطلقها نجدها سرعان ما تندم وقد تعمل ما في وسعها للعودة إلى حضن الزوج. قال أحد الظرفاء أن الله جعل الطلاق ثلاث مرات فقط لذلك جعله بيد الرجل أما لو جعله بيد المرأة لما حدده بحد لعلمه بما خلق. فقد تطلق المرأة زوجها وتعيده إلى عصمتها مرارا في اليوم الواحد. والحديث يطول وليس مكانه هنا. نختم بشهادة الغرب مثل (لوبون) القائل :

"إذا أردنا أن نعلم درجة تأثير القرآن في أحوال النساء وجب علينا أن ننظر إلى ما كانت عليه هذه الحالة أيام إزدهار حضارة العرب. فقد روى المؤرخون أنه كان لهن من الشأن ما إتفق لإخواتهن حديثا في أوربا التي إقتبست من عرب الأندلس نبيل الطبائع وكريم العادات. ذكرنا في فصل سابق أن الأوربيين أخذوا من العرب مبادئ الفروسية وما إقتضته من إحترام المرأة, والإسلام حقا لا النصرانية هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه. فأنت إذا نظرت إلى سيرة أمراء النصارى الإقطاعيين في القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئا من الحرمة للنساء, وأنت إذا ما تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن علمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظا نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى)**24**

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**24. عفيف طبارة / روح الدين الإسلامــي / ص 361**

**بناء الدولة المســــــــــــــلمة**

**الإسلام نظام حكــــــم:**

يقول الحق (... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) صدق الله العظيم – المائدة 44 - رأينا كيف نظم الدين الإسلامي جوانب الحياة البشرية إجتماعيا وحربيا وكيف نظم علاقة الحاكم بالمحكوم والقائد بالرعية؟ كما في كل شأن نجد في القرآن الكريم الكثير من الخطوط العريضة بالتعبير المعاصر لنظام الحكم والسياسة ومن سيرته صلى الله عليه وسلم نجد التطبيق العملي لذلك بحيث لم يفارق الدنيا إلا وقد علَم أصحابه النجباء كيف تُبنى دولة العلم والإيمان في توازن بين طرفي المعادلة لم تعرفه البشرية حتى في زماننا هذا. نسمع اليوم ونقرأ عن حبائل السياسة ودهاليزها وضرورة الخداع والمكر السيء وحتى التزوير ليكون الحاكم ناجحا في حكمه ولم تقتنع الأمم بفساد ذلك بعد عقود من الممارسة بدون تحقيق نجاح واحد بينما سياسة الإسلام المبنية على الصدق والعدل وإلتزام العهود وعدم الإستهانة بالكذب والتزوير وباختصار الحكم بنزاهة مطلقة جعلت دولة المسلمين تعمر طويلا وتبني حضارة يكفي أنها لا زالت معينا حيا يغرف من معينه العلماء في أصقاع الأرض.

لا تقوم الدولة الإسلامية على قوة وسيطرة الفرد أو الحزب أو الجماعة, إنما تقوم على تعاون ورضا جميع طوائف الآمة في الحدود الشرعية الملزمة للكل. ورد في الآية 38 من سورة الشورى قوله تعالى **(والذين إستجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى** **بينهم ومما رزقناهم ينفقون)** صدق الله العظيم. عليه فالسلطة في الإسلام لا تتحقق إلا عبر تمازج ثلاثة أسس: الشريعة, وأهل الحل والربط وهم قادة الأمة الأحرار, وإمام الأمة أي رئيس الدولة أوسمه ما شئت.

**شريعــــة العـــــدل:**

هي القانون الذي يحتكم إليه الناس في الدولة الإسلامية, وهي مرنة ومتطورة وقابلة للتجديد لمواجهة متطلبات الحياة البشرية ومتغيرات العصر. لذلك كانت ولا زالت صالحة لكل المجتمعات. أساسها الأول القرآن الكريم ثم السنَة المشرفة فالإجتهاد والقياس. تهدف الشريعة إلى تحقيق المساواة بين كل الناس وترسيخ الإيمان, وإقامة الشورى في جميع الأمور وذلك بنص قرآني وليس إجتهادا كما في قوله تعالى في الآية 159 من سورة آل عمران **(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** فاعف عنهم واستغفر لهم **وشاورهم في الأمر**), وتوفير الحرية في المعتقد بأمر رباني هو الآخر بعدم إكراه أحد ليدخل الإسلام, والفكر أي المعارضة السياسية والتملك وحيث إحتاج الإنسان للحرية وتحقيق العدالة لكل الناس بغض النظر عن أديانهم وألوانهم, صعاليك كانوا أم أمراء, أشراف أم غير أشراف أو أي إختلاف آخر. يقول صلى الله عليه وسلم: ( إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد, وأيم الله,لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) **25**

**أهل الحـــل والعقــــــــــــد:**

وهم زعماء الأمة ورؤسائها وقادتها وعلمائها العالمون بشريعتها ومصالحها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقضائية والإدارية وغيرها من المصالح الدنوية. في العصر الحديث يمكننا القول أنهم علماء الأمة في الشريعة والقانون المحلي والدولي وكبار المتخصصين في جميع المجالات كالهندسة والإقتصاد وغيرها وشيوخ القبائل ورؤساء الأحياء في المناطق الحضرية وكل من على شاكلتهم. يشترط فيهم نقاوة السريرة والخبرة في مجالاتهم والقدرة على إتخاذ القرار الحر والسليم دون خوف أو وجل أو طمع. مهمتهم إختيار رئيس الدولة الذي يقسم أمامهم القسم الشرعي ثم يتولون أمر محاسبته وإقالته متى أتى بموجبات ذلك التي أهمها خرقه لأي بند من بنود الشريعة الإسلامية, ولهم تعيين من يحل محله في حالة العجز أو الموت. أما حكام زماننا من المسلمين الذين نبذوا الحكم بالشريعة فيكفي ما نعيشه من حروب ودمار بينهم وشعوبهم فقط لأن الناس طالبوهم بالتنحي بعد صبر طويل على مظالمهم ألا محدودة.

**إمام الأمــة** وهو الرئيس أو الملك أو الأمير أو سمِه ما شئت لأن الإسلام لا يهتم بالإسم وإنما الفعل وهو الحكم بما أنزل الله تعالى أي الحكم بالعدل والقسطاس المستقيم وإشاعة السعادة والأمان بين الأمة وحماية الحدود وتنمية المصالح الوطنية وكل ما يهم الناس ويأخذ بأيديهم إلى التقدم والتحضر دون التخلي عن الأساس المتين وهو الدين الحنيف. ليس في الإسلام توريث للسلطة ولا قصرها على الشريف من غيره بل هي حق لكل مواطن تتوفر فيه شروط معينة مثل البلوغ والذكورة والسيرة النقية وسلامة العقل والحواس والحرية والعلم خاصة بالشريعة الإسلامية لأنها الدستور الذي سيحكم به والعدالة الجامعة والقدرة على مواجهة الصعاب وحل المشاكل بما يُرضي الله والعباد وصلاح الرأي والشجاعة والنجدة والغيرة على الوطن والناس يعين الرئيس بموجب عقد يبرمه مع أهل الحل والربط.

**المؤسسات السياسيــــــة:**

الإدارة المقصودة بها هنا هي تلك المؤسسات التي تحتاجها كل دولة ومهمتها مساعدة الحاكم على خدمة الناس والقيام بما تنص عليه الشريعة على الوجه الأكمل. ولدت الإدارة الإسلامية في المدينة المنورة زمن النبي عليه صلاة الله وسلامه, فكانت بسيطة ببساطة المجتمع الوليد الذي كان همه الأول ترسيخ عقيدته وحماية مجتمعه من المتربصين به وهم كثيرون. ثم تطورت تبعا لتطور المجتمع والحياة البشرية وخاصة ما أحدثته الفتوحات الإسلامية من حاجات مستجدة, وبذلك ظهر نظام الوزارات منذ زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**25. منصور الحرابي / الدولة العربية الإسلامية / ص 53**

الله عنه حين أنشأ في المحرم سنة 20 للهجرة وزارتين سُمِيتا بديوان الخراج (المالية) وديوان الجند (الدفاع), وديوان هي عبارة فارسية تعني السجل, وبحسب الحاجة ظلت الإدارة تنمو وتتطور بتبني ما وجده العرب لدى الأمم التي دانت لهم من نظم وغيرها مما يتفق وحاجة الدولة الواسعة والأمة المتنوعة.

لعلنا قد قدمنا ما يلزم لنفهم لما كان التعليم العربي الإسلامي ناجحا بشكل عظيم ومبهر وفي فترة زمنية قصيرة في ضوء ظروف ذلك العصر وجهالة العالم المحيط بدولة الإسلام الناشئة لعلمنا وعلم كل بناة الدول المتقدمة والحكومات الرشيدة حقا في كل زمان ومكان بأن النظم السياسية الفاشلة لا يمكن لها أن تبني لأمتها مجدا. توفر العدل وحسن إختيار القيادة وإقامة إدارة ناجحة وضمان حقوق الناس والحرية وكل ما قدمناه في الفصل الأول هو ضرورة حتمية لإحداث التقدم الذي يُحدثه التعليم الوطني وليس المستورد وهو ما بناه أجدادنا الأشاوس, والذي سنبدأ من الفصل التالي الحديث عنه وهو موضوع بحثنا هذا.

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب**

**صدق الله العظيم**

**الزمــــر**

**9**

**الفصــــــل الثانــــــــي**

**العلم نور لأهل الفضل مقســـــــــوم**

**كلمــــــــــــة**

قصدتُ إختيار شطر من بيت من الشعر العربي كعنوان لهذا الفصل والقائل:

العلم نور لأهل الفضل مقسوم \*\*\* وصاحب العلم في الدارين مرحوم

نعم, فقد ظل علماء الإسلام والعروبة نبراسا لكل علماء الأرض في زمانهم وفي عصرنا وبإذن الله إلى يوم الدين, لأنهم لم يفهموا باكورة الوحي بالإسلام "إقرأ" فقط, بل عملوا بها, فسادوا سياسيا وعلميا وحضاريا وفي كل ميادين الحياة. التعليم هو الجسر الوحيد الذي يعبر عليه كل من طلب السعادة في الدنيا والآخرة, وهو الذي إذا دُمر, دُمرت الأمة كلها ولو كانت من أغنى بلدان الأرض أو أقواها.

عشنا زمن الملكية التي ورثت شعبا أميا هجائيا لأكثر من 90 بالمائة, فإذا بها أعطت التعليم, رغم خلو يجدها من المال, كل الجهود ومن اليوم الأول لإقامة حكومة مؤقتة وحتى أزاحها أئمة الجهل وقد قطعت أشواطا كبيرة في مجال التعليم, كما ونوعا, مما ساعدها على تنمية كل مجالات الوطن والحياة البشرية. ثم استفرد الباغي بالسلطة فشد التعليم إلى الوراء وبشكل ربما لا مثيل له في التاريخ. لم يغلق المدارس, بل زاد من عددها, وبدلا من جامعة واحدة ورثها عن عهد النور فقد أقام عشر جامعات أو أكثر ولكنه هدم الكيف التعليمي لدرجة صار للوطن مئات الآلاف من المتعلمين الذين يحملون أوراقا تقول بأنهم متعلمون ولكن الواقع يكشف مدى جهلهم. لذلك قلنا أنه أخطر تدمير للتعليم لأن الذي حمل درجة علمية جامعية وهو خالي الوفاض من الكم العلمي الحقيقي لن يعود للتعليم ليُصحح مساره وحاله وبذلك يُصبح الوطن وكأنه عاد إلى العام 1950.

يعرف القاموس الإنجليزي التعليم أو التربية بأنها عملية تدريب منظم وتعليم يهدف إلى تحقيق التحصيل العلمي واكتساب القدرات وتنمية القوى الذهنية والعقلية والسلوكية. **26** أما المؤتمر الدولي الذي إنعقد تحت

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**26. قاموس إنجليزي (أكسفور أدفنست .....) / ص 276**

رعاية (اللجنة الدولية للتربية) فقد عرف التربية على النحو التالي: (هي العمل المنسق المقصود الهادف إلى نقل المعرفة وخلق القابليات وتكوين الإنسان والسعي به في طريق الكمال من جميع النواحي وعلى مدى الحياة).**27** جاء الإسلام, كما رأينا في الفصل الأول ليكمل منظومة الحياة البشرية ويجعلها سعيدة في الدنيا ومثابة في الآخرة. لذلك فالإسلام يجُبُ الذنوب التي للإنسان قبل إسلامه ولكنه لا يجب عناصر سعادته المادية. عليه فكل التعريفات السابقة وما يستجد منها مستقبلا هي من مكونات فلسفة التربية الإسلامية مع إضافة الحلقة المفقودة فيها وهي الجانب الروحي.

عرفنا أن الحضارات في كل الأزمنة ما كان لها أن تقوم وتزدهر إلا في ظل تعليم ناجح ومعطاء وهو ذلك التعليم الناتج عن تراكم الخبرة البشرية من لدن آدم عليه السلام وإلى اللحظة الراهنة. لذلك تضمن القرآن الكريم والسنة المشرفة كل ما يلزم لبعث تعليم ناجح يساعد المسلمين بل الإنسانية كلها على إقامة حضارة سامقة تنفع البشرية قاطبة. عرف العرب المسلمون كل ذلك بدليل أنهم بادروا من فورهم ورغم مشاغلهم الحربية إلى بعث تعليم عربي إسلامي مبني على بقايا الحضارات التي سادت قبلهم ثم بادت, فأخذوا منها ما ينفعهم دنيا وآخرة. قاموا بعملية تنقية تراث البشر من كل غث وتبني كل سمين ثم أصلحوا النافع فيه وأضافوا إليه حتى غدا إسلاميا إنسانيا بلا منازع. لم يستنكفوا عن أخذ ما عند الوثنيين من إغريق وهنود أو عند الكتابيين من نصارى ويهود. لذلك وجب تقديم نبذة عن الحضارات التي كانت أساس الحضارة العربية الإسلامية, حضارة العلم والإيمان.

**الحضارة الإغريقيـــــة**

لعل الحضارة الإغريقية كانت من أهم مصادر الحضارة الإسلامية كونها الأقرب عهدا إلى العصر الإسلامي مما أعطاها ميزة أنها تضمنت ما في الحضارات السالفة. كان للإغريق حضارة قديمة إلا أن المعلومات المتعلقة بها شحيحة لدينا, لذلك نقدم ما كانت عليه قبل ظهور الإسلام وقبل أن يغتالها الرومان إثر إعتناقهم للمسيحية. ""كانت مظاهر عبادة الآلهة تشكل الغذاء اليومي للإغريق في المنزل وفي الحياة المدنية. عندما يصل الطفل إلى سن التعليم كان يتعلم ترتيل الشعر الغنائي وطقوس العبادة. كانت المدارس وكل المؤسسات تحت رعاية الآلهة, فكانت الممرات بين الفصول تزينها التماثيل النصفية للآلهة, وكانت الصلاة والتراتيل الممجدة للآلهة جزء لا يتجزأ من التمارين اليومية لتلاميذ كل مدرسة, وشملت كل صفحة للقراءة إشارات مباشرة إلى الآلهة." **28** رغم هذا الربط بالدين فقد أقام الإغريق حضارة سامقة وصنعوا الكثير في كل العلوم, ولكن تحول الدولة الرومانية التي كانت تحكم بلاد الإغريق كذلك إلى المسيحية قضى على كل ذلك التراث الإغريقي العظيم بتهمة أنه تراث وثني سيُفسد الروح البشرية. ظل التراث الإغريقي مدفونا ومحرم الإقتراب منه حتى جاء العرب المسلمون فبعثوه من مرقده, أو قل بعثوا ما نجا منه من أيد التدمير والتخلف. في

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**27. د.أحمد الفنيش / أصول التربيـــــــــــــة / ص 15**

**. F. EBY & C.F. Arrowood “The History and Philosophyof Education …” P. 191 28**

ظل جبروت الكنيسة التي سادت الأمبراطورية الرومانية الواسعة لم يعد التعليم تدريبا حرا لقوى الفرد أو مصدر تنوير عبر دراسة العلوم المختلفة والفلسفة, بل صارت التربية محصورة في تغذية الروح, بحيث يتلقى الفتى ما يكفيه للقيام بالعبادة الكنسية.

**الحضـــــــــارة الرومانيـــــــــــة 29**

شهد تاريخ التعليم الروماني في عصريه الجمهوري والإمبراطوري ومنذ تأسيس روما خمس مراحل مهمة حتى العام 529 م حين أغلقت المدارس الوثنية من قبل الإمبراطور (جوستينيان) وهي كالآتي:

1. منذ تأسيس روما عام 753 ق م حتى العام 275 ق م : كان تعليم الأطفال يتم في المنزل وعلى أيد الأبوين أو العبيد ومقتصر على التعليم الأولى.
2. من 275 قم إلى 132 ق م: أقامت روما مدارس عليا على أسس إغريقية وأنشأت مدارس تعليم قواعد اللغة الإغريقية والبلاغة الإغريقية.
3. 132 ق م إلى 100 ق م : وصل الأدب اللاتيني إلى عصره الذهبي وازدهر تعليم قواعد اللغة اللاتينية, وبدأ تعليم الطب والقانون. كما ظهرت المدارس العامة المدعومة من قبل الحكومة بعد أن كان التعليم شأنا خاصا طوال المرحلتين السابقتين. سياسيا تحولت الدولة الرومانية إلى إمبراطورية وولدت المسيحية.
4. 100 ق م إلى 275 م : شهد الأدب الروماني عصره الفضي, وتوسعت رعاية البلديات للعلم والعلماء كثيرا, وصار القانون مادة تُدرس في الجامعة. وازدهر تعليم الطب الإغريقي. دينيا, إنتشرت المسيحية في أنحاء الإمبراطورية.
5. 275 – 529 م : أصبح استبداد الدولة بالسلطة أعظم عن ذي قبل. تعليميا, احتكرت الدولة التعليم وفرضت الترخيص على كل من أراد ممارسة وظيفة المعلم. أما دينيا, فقد بدأت المرحلة بتسامح أكبر حتى صارت المسيحية دينا للدولة, وبذلك تم طي صفحة التعليم ونور العلم نهائيا لكونه تعليما وثنيا وعليه أغلق (جوستينيان) عام 529 م آخر مؤسسة للتعليم القديم لكونه كان يوفر تعليما ملحدا, فكتب بذلك نهاية كل شيء يمكن تسميته بالتعليم. كأنه كان يعلن بذلك ميلاد العصور الأوربية الوسطى الشديدة الظلام.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**29. F. Eby and C.F. Arrowood, “The History and Philosophy of Education …” PP. 515 – 516 – 517**

**التربيــة الفارســــــية**

من المعروف تاريخيا أن الإمبراطورية الفارسية كانت ثاني أعظم قوة في عالم ذلك الزمان مثلما كان الإتحاد السوفييتي بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين. لم يكن المجتمع الفارسي أو دولته معاديان للعلم والحضارة, لا دينيا ولا سياسيا, إلا أن حض فارس كان أقل مما كان لدى الرومان زمن تحضرهم. أما الأنثى عندهم فلم يكن حالها أفضل من أختها في ظل الحضارة الرومانية. لم يكن لها حق التعلم إلا في الحدود التي كانت لأمها وهو الدور الوضيع المحدد لها في الحياة المنزلية. لم نقصد أن رسالة المرأة المنزلية وضيعة بل كان حال المرأة في المنزل وضيعا ومهانا ومنزوع الكرامة. إذا التعليم المتاح كان قاصرا على الذكور.

كان النظام الإجتماعي في بلاد فارس طبقي لدرجة أن كل طبقة وكل أهل صنعة كانوا يتميزون بملابس خاصة بهم, لذلك كان ابن العامة يتعلم مهنة أبيه بطريقة التدريب المباشر, أي العمل مع والده حتى يتشرب حرفته. كما كان والده مسئولا عن تعليمه مبادئ دينه بالتلقين الشفوي, فإن لم يقدر على ذلك أوكل أمره إلى إحدى المعابد لتعلمه الدين مشافهة بدون قراءة أو كتابة, لأن تلك المهارتين كانتا محتكرتان من قبل أبناء الذوات والحكام الذين كانوا وحدهم يتلقون ما يمكن تسميته بالتعليم المنظم, فكان يعلمهم مربون خاصون العلوم المقدسة والآداب والموسيقى والرياضة البدنية واستعمال السيف وبطبيعة الحال القراءة والكتابة.

ا**لتعليم العربي الجاهلــــــــــــي**

يخبرنا التاريخ أن العرب كانوا أصحاب عدة حضارات قديمة سادت طويلا ثم بادت لتصبح حياة العرب حياة بداوة وجاهلية. لذلك لم يعد العرب في حاجة لتعليم مقصود ومنظم ولكنهم لم يكن لهم عداء أو حتى تحفظ من تعلم أي علم وجدوا حاجة لهم فيه مثل الطب والفلك واقتصاص الأثر وغيرها, ورأينا فيما سلف من حديث أنهم لم يحرموا المرأة من تعلم أي علم, لذلك كان لهم شاعرات وصلت قدرة بعضهن إلى الحكم على إنتاج الرجال من الشعر ودون أن يجد الرجل أي مضاضة, وكان منهن الطبيبات وغير ذلك.

كانت التربية لدى عرب الجاهلية تُعنى كذلك بإعداد النشء للحياة في البيئة البدوية. كان النشء يتعلم الصيد والقنص والرماية وإعداد آلات الحرب وتربية الماشية ويتم ذلك عن طريق المحاكاة والتقليد والنصح والإرشاد والتوجيه من الكبار والوالدين والأقارب وبدون إحتكار من أي نوع كان. هذا في البادية أما في المناطق الحضرية فكان التعليم يشمل تعلم المهن والصناعات كالهندسة والطب والتجارة والنقش. كان هدف البدو والحضر من ذلك هو بث روح الفضيلة وغرس الصفات الخُلقية كالشجاعة والإخلاص والوفاء والنجدة وكرم الضيافة إلى جانب تعلم مهنة ما. كما كانوا يعملون على تنمية القوى الجسدية للأفراد وإعدادهم ليصبحوا مقاتلين أشداء

كان مقياس المتعلم عند كل العرب هو ذلك الشاعر الجزل والخطيب المفوه والطبيب البارع وكل من له باع في علم ما (ذكرا كان أم أنثى). يُقال أن أول من تعلم القراءة والكتابة وبعض الحساب في قريش هو سفيان بن أمية بن عبد شمس وذلك على يد بشر بن عبد الملك الذي تعلمها من الحيرة. ظل طلب هذه المهارات محدود لقلة الحاجة إليها ورغم ذلك فعند ظهور الإسلام كان لقريش وحدها 17 رجل وخمس نساء يقرئون ويكتبون ويعدون. جلهم من التجار الذين يعبرون الحدود العربية للمتاجرة مع الخارج حيث لتلك المهارات فوائد في تحقيق أرباح أفضل لأنها تجنبهم الكثير من تلاعب التجار هناك. رغم عدم حاجة المرأة لهذه المهارات لأنها لم تكن ولن تكون إلى يوم الدين قادرة على الترحال عبر الصحاري القاحلة للمتاجرة, فقد كان عند مولد الإسلام في قريش وحدها كذلك خمس نساء يعرفن مهارات القراءة والكتابة والعد وهن: حفصة بنت عمر, وأم كلثوم بنت عقبة, وعائشة بنت سعد, وكريمة بنت المقداد, والشفاء بنت عبد الله العدوية وكانت الأخيرة تُعلم حفصة بنت عمر رضي الله عنهما عندما تزوجها النبي عليه السلام فطلب منها إكمال رسالتها مع حفصة كان الرجال الذين يتعلمون الطب في الخارج يعلِمون من رغبت من النساء المهنة لذلك وُجدت طبيبات عربيات وقد سبق لنا ذكر إثنتين في قريش وما حولها.

كان العرب الجاهليون حريصون جدا على تنمية قدراتهم الثقافية والعلمية على محدوديتها حتى أنهم أقاموا لها ركنا للنشاطات الثقافية والمبارزات العلمية في كل سوق تجارية في حركة ذكية للإستثمار الثقافي والعلمي بهدف توسيع الشهرة فينتشر العلم والثقافة تبعا لذلك إذ كانت الأسواق تجمع التجار والزبائن من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية الشاسعة. من تلك الأسواق المزدوجة الأغراض, التجارية والثقافية, التي عُرفت عبر التاريخ نذكر مجنة وعُكاظ وذو المجاز وغيرها كثير ولكن أشهرها عُكاظ في نخلة على مقربة من مكة. كما كان للعرب إهتمامات علمية متعددة. اهتموا بالقمر الذي كان ينير سماء لياليهم فعرفوا أنه يدور حول الأرض مرة كل ثمانية وعشرين يوما تقريبا. من تراثهم الشعري يتضح لنا أنه كانت لهم آراء فلسفية. مثلا, كان طُرفة بن العبد (يرى أن الغاية من الحياة هي اللذة المادية العاجلة, ثم لا يُلقى بالا إلى موقف الناس منه في ذلك, ما دام هو وحده سيتحمل نتائج سلوكه) **28**

عرف العرب الكواكب الخُنس التي أقسم الله بها في كتابه الحكيم وهي الكواكب السيارة زُحل والمريخ الذي عربوا إسمه عن الآرامية, وعُطارد والمشتري والزُهرة. لقد عرفوا تلك الكواكب بأسماء فارسية أو فارسية معربة أوعربية كذلك, فزُحل, مثلا, أسموه (الطارق) وهو إسم عربي أصيل. أما من الحساب فقد عرفوا الأعداد والعشرات والمئات والآلاف. كأنهم أخذوا بعض الجبر من الأمم الأخرى, فمن الثابت أنهم "تعلقوا بالمعادلة البسيطة ذات المجهول الواحد حتى كثر القول فيها في شعرهم وأسمارهم". **29**  الطب حاجة الإنسان في كل زمان لذلك أعطاه الجاهليون كبير عنايتهم حتى طلبوه في الخارج خاصة في بلاد فارس وكذلك ديار

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**28. فروخ / العرب في حضارتهم وثقافتهم / ص 103**

**29. نفـــــــس المرجـــــــع / ص 90**

الروم, علاوة على خبرهم المحلية الخاصة بتوفير العقاقير. وسبق لنا الإشارة إلى أسماء تمثيلية للأطباء العرب رجالا ونساء.

بما أن عملنا هذا خاص بمرحلة الحضارة والتعليم الإسلامي, فما قدمناه من أمثلة قليلة جدا عن الحياة العلمية لدى عرب الجاهلية هي مجرد تمثيل لا حصر لأنهم عرفوا أضعاف ما ذكرنا. هكذا كان العرب وكأني بخالقهم كان يُعدهم للرسالة العالمية العلمية والحضارية التي سنرى أنها لم تكن مصدر سعادة البشرية في زمانها فقط بل كانت وحدها التي جعلت حضارة عصرنا ممكنة, ولم تكن خاصة بالعرب والمسلمين في زمانها, بل كانت لكل الناس وبُنيت أيدي البشرية كلها لأن العرب كانوا من الذكاء والفطنة وحتى العلم أن يعرفوا أن الحضارة هي بلا ريب الولد الشرعي للتعليم, والتعليم لا يقوم إلا بالمساهمة من كل الناس, فاستحقوا عن جدارة لقب صناع سعادة البشرية قاطبة في الماضي وفي الحاضر.

**التعليـــم العربـــي الإسلامـــــــي**

**مدرســـــة الرســــــول**

من المفارقات التاريخية ولحكمة ربانية أن ينزل الوحي بالإسلام على رجل أمي, لا يقرأ ولا يكتب, وإن نطق لغة فصيحة لا عوج فيها مثله مثل قومه, ومن حكمته تعالى أن ذلك الأمي كان رائدا لأعظم تعليم ربما في كل التاريخ البشري الذي أوجد حضارة عظمى ومتميزة لكونها حضارة علم وإيمان لا تغليب فيها للمادة على الروح ولا العكس. لم تكن الفرصة متاحة طوال السنوات الثلاث عشر الأولى في مكة المكرمة لإقامة تعليم منظم وهادف, ورغم ذلك فقد بدأ النبي عليه السلام تعليم المؤمنين الأوائل أمور دينهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم , لذلك أعتبرها أول مدرسة في الإسلام. بعد الهجرة بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم مسيرة التعليم الجاد والهادف. أقام المسجد ليكون مؤسسة تعليم إلى جانب رسالته الدينية والسياسية. كان النبي صلى الله عليه وسلم قد شن حملة واسعة لمحو الأمية بين العرب, فصار المسجد مدرسة للجميع ولكل المستويات.

لم يتوقف الأمر على المسجد, بل أقام عليه السلام إلى جانب مسجده في المدينة ما عُرف (بالصفٍة) لتكون بمثابة المدرسة الإبتدائية لتعليم الصبيان ولمحو أمية الكبار, وأقام عليها الصحابي الجليل عبد الله بن سعيد بن العاص فلعله كان أول معلم مسلم وظيفته التعليم فقط. ثم توالت المساجد حتى بلغت تسعة في المدينة كانت كلها مدارس لطلب العلم, ولم يفوت النبي فرصة لصالح التعليم إلا واغتنمها. بعد غزوة بدر عاد المسلمون بسبعين أسيرا ورغم حاجتهم الأكثر من ملحة للفدية المالية إلا أنه, عليه السلام, فرض على المتعلمين من الأسرى أن يفدي كل واحد منهم نفسه بتعليمه القراءة والكتابة والعد لعشرة من صبيان المسلمين ولم يقبل منهم غير ذلك. كان ذلك درسا عظيما استوعبه المسلمون حتى رأينا خلفاؤهم المنتصرون يشترطون كتبا ومخطوطات كتعويض من العدو الذي كانوا يهزمون ويرفضون القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

صحيح أن العرب والمسلمين عامة كانوا يعتزون بلغتهم أيما إعتزاز خاصة بعد أن كرمها الله فجعلها لغة كتابه الكريم, ولكن الصحيح كذلك أن الرسول عليه السلام كان يُعد أصحابه لقيادة حركة علمية حضارية عالمية لذلك وضع البذور الصالحة لذلك فجعل بعض أصحابه يتعلمون لغات أجنبية كان لها شأنها في ذلك الزمان, مثل طلبه من زيد بن ثابت رضي الله عنه تعلم لغة أجنبية, فلبى بشكل مذهل ويُعد من المعجزات حين تعلم لغة أجنبية في أسبوعين فقط بفضل ما منَ الله به على العرب من ملكة حفظ فريدة بين الناس تقريبا. هكذا كانت الدفعات الأولى من مدرسة المدينة علماء كبارا في شريعة الله وشعب متعلم بالكامل كان سبب إنتشار العلم حيثما حل العرب في أنحاء العالم كما كانوا ومن علموا من غير العرب خير من أقام تعليما حضاريا عظيما أساسه اللغة العربية وظله الدين والفضيلة ومحتواه كل ما عرف الإنسان من علوم وقيم وأخلاق وإيمان.

يعرف العالم المعاصر ما لإحصاء السكان والإحصاء عامة من ضرورة في التخطيط ووضع برامج التنمية والتطوير. ظننا أن هذا الإنجاز من علوم العصر الحديث وإذا بالتاريخ يفاجئنا بما لم يكن يخطر على بالنا. ما أن إستقر المسلمون في المدينة حتى أمر صلى الله عليه وسلم وفي العام الأول للهجرة بعض صحابته بعدِ كل من شهد أن لا إله إلا الله في المدينة, ذكورا وإناثا, صغارا وكبارا. روى البخاري قائلا: (قال صلى الله عليه وسلم أكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس, فكتبنا له ألف وخمسمائة نفس) **30**

**نمــو تعليم الإســـــــــــلام**

كان العرب المسلمون يعتمدون في كل صغيرة وكبيرة دائما على ربهم, فاستعانوا بما تعلموه من قرآنهم ونبيهم قولا وعملا. طور المسلمون التعليم النبوي المنظم والمقصود والهادف رغم الحروب التي فُرضت عليهم فجعلوها ليس أداة نصر وتوسيع ملكهم بل وسبيلا ووسيلة للوصول إلى تراث الأولين الحضاري فكانوا بحق: يد تقاتل الظلم والإستبداد بالسيف والأخرى تحمل القلم لمجاهدة الجهل والظلام. كان التراث العلمي قد دُفن منذ قرون مما جعل مهمة العرب المسلمين شبه مستحيلة بل ومستحيلة في بعض الجوانب إلى أبعد الحدود, ولكنهم كانوا شعب معجزات لا زالت تُبهر قارئي التاريخ. كان التراث القديم قد قُبر أو حُبس بعيدا عن الأعين زمن الإمبراطورية الرومانية المتنصرة التي سادت معظم العالم تقريبا مما حرم البشرية من إيجاد بداية متاحة لنهضة جديدة ولكن العرب لم يعرفوا العجز بعد أن صاروا مسلمين فأخرجوا تلك الكنوز أو قل ما نجا منها من التدمير ليصنعوا منه أساسا لحضارتهم لعلمهم ألا حضارة للإنسان إلا بالإنسان كله.

بسرعة المتلهف لتطوير التعليم في أقصر مدة ممكنة, كان المجاهدون يرسلون بكل ما يصل أيديهم من التراث الحضاري القديم إلى المدينة حيث يتلقفه المترجمون المتزايدون باضطراد لنقله إلى العربية ليتولاه

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**30. صبحي صالح / علم الحديث ومصطلحه / ص 18**

العلماء بالدراسة والتنقيح والتصحيح والتنقية ثم الإضافة إليه وتحويل الإنتاج إلى طلاب العلم. بذلك عجت المكتبات المسلمة بالكتب العلمية رغم صعوبة النسخ وقلة توفر المواد الصالحة للكتابة عليها التي كانت في البداية رُقع من الجلود في الغالب. كانت أمة العرب المسلمة أمة علم, فلم يتردد أحد كان قادرا على المساهمة في تنشيط الحركة العلمية. المتعلم يساهم بعلمه: ترجمة ونسخا وكتابة على المنوال ووضع المصنفات وغير ذلك من النشاطات والإسهامات العلمية, وصاحب المال كان يقدم الدعم المادي اللازم لتسريع النشاطات العلمية والثقافية. يأتي على رأس الممولين الحكام والأغنياء ورأينا أن الحكام كانوا يطلبون حقهم ممن يهزمون وثائق علمية هو أزهد الناس فيها وهم أحرص الناس على الحصول عليها رافضين القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

بتلك الهمة العالية أمكن للمسلمين تطوير تعليمهم بشكل مضطرد محافظين وبقوة على أساسه القرآني والنبوي. ضمت مناهج التعليم عندهم علوم هللينينة مثل الطب والرياضيات وعلوم تقنيات, ومن الهنود أخذوا ما

وجدوه عندهم من طب ورياضيات وأدب, ومن الفرس وجدوا ما استفادوا منه في تطوير آدابهم العربية وحتى علومهم الدينية وأي علم آخر. لم يجدوا بطبيعة الحال في التراث القديم ما يعينهم على معرفة طرق البحثالصحيحة ولكن الله كان معهم ففتح عليهم عبر التجربة باختراع طرق للبحث فكانوا يُخضعون العلوم التقليدية إلى تطبيقات عملية وللتحليل العلمي حتى توصلوا ولأول مرة في تاريخ البشرية إلى المنهج التجريبي-التطبيقي, وعلى الرغم من صعوبة النسخ والنشر والطباعة فقد وفر العرب كل ما احتاجه طلاب العلم والعلماء من نسخ من كتب العلوم المختلفة فكانوا بحق مجاهدين أشداء ولكن بالقلم وشعار "إقرأ". كأن العرب في عُجالة من أمرهم فلم يكتفوا بما كان يصلهم من المقاتلين على الجبهات من مصادر العلم بل صاروا يشكلون البعثات العلمية الممولة جيدا لتبحث عن وثائق التراث القديم, وكانوا يجزلون العطاء لمن يبيعها لهم أو حتى يدلهم على مكانها وبذلك كانت كل بعثة تعود بقوافل محملة بالكتب ومختلف المراجع خاصة من بلاد الإغريق وآسيا الصغرى وغيرهما من المناطق حتى التي خارج سلطان المسلمين.

عجيبة همة العرب والمسلمين, فلم يقتنعوا بكل ما سلف فقد صاروا وكأنهم علماء آثار ينقبون في خبايا الأرض لا بحثا عن كنز من أجل الثراء المادي بل بحثا عن كتاب هنا أو مخطوطة هناك. روايات كثيرة يحفظها لنا التاريخ حول النتائج الباهرة لذلك التنقيب. تقول هونكة: (إستطاع العرب كذلك أن يكشفوا كثيرا من الكنوز, ففي قبو مظلم تسكنه الفئران والعناكب في الإسكندرية, عثر القوم بين حجرين هائلين على كتاب في فنون الحرب, كما عثروا على كتاب آخر في قدر مغلقة تحت جدران دير سوري)**31**  حصل أبو إسحاق بن شهرام في آسيا الصغرى على مكتبة ضخمة في معبد قديم في مكان مقفل ومحرم فتحه منذ قرون كثيرة وكانت عليه حراسة مشددة من قبل الكنيسة. استخدم شهرام علاقته القوية مع ملك الروم فظل يُلح عليه ليفتح له تلك المكتبة حتى حصل على إذنه فكانت فرحته لا توصف بذلك الكنز الحقيقي العظيم الذي قدرته بعض الروايات

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**31. د. زغريد هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 376**

بحمولة ألف جمل حسده عليه علماء الإسلام وسخر منه ملك الروم أن يفرح بما لا قيمة له وكان من أكبر الزاهدين فيه ولم يعلم لو أنه طلب من المال الكثير لحصل عليه بيسر من المسلمين.

على العكس مما صرنا إليه اليوم, ونحن أحفادهم, فحق فينا المثل الليبي: (النار تُخلف رماد), فقد كان العرب قراء جيدون ولا يشبعون من القراءة أبدا بل كانوا يجدون فيها كل الفخر الذي كانوا يتباهون به على بعضهم البعض. حتى الحكام رغم مشاغلهم فقد كانوا منافسين أقوياء للعلماء. هذا الخليفة الأندلسي (الحكم) العلامة في الأدب والتاريخ قرأ وعلق على كل كتاب في مكتبته والتي إزدانت بأربعمائة ألف كتاب, وكان يرسل بتعليقاته إلى مؤلف كل كتاب. أما العلماء فحدث عن شغفهم العلمي ولا حرج, فكانوا يضعون نصب عيونهم قوله صلى الله عليه وسلم (أطلبوا العلم من المهد وإلى اللحد). أبو الريحان البيروني المتوفى عام 439 ه = 1048 م كان قد علم أن أحد طلابه النجباء وجد حلا لمسألة في نظام الميراث الإسلامي, فما أن عاده ذلك الطالب النجيب حتى طلب منه إخباره بذلك الحل ليكون آخر ما يتعلمه في الدنيا, فاعتذر التلميذ بحجة أنه ليس الوقت المناسب لمثل هذا الحديث ولكن البيروني, وهو في فراش الموت, لم يتركه حتى أخبره وانصرف. لم يبتعد الطالب عن منزل أستاذه إلا خطوات حتى سمع عويل النساء كدليل على وفاة البيروني, وكأن روحه كانت معلقة بذلك الحل الذي أبى البيروني إلا أن يتعرف عليه قبل الرحيل.

كانت فرص التعلم متاحة للجميع خاصة الفقراء وحتى إبن شديد الثراء لم يتقاعس عن طلب العلم وإنتهاز فرصة المشاركة في النهضة التعليمية. وجدنا في صفحات التاريخ فقراء معدمون يُفترض أنهم لم يجدوا وقتا إلا للكد من أجل لقمة العيش وإذا بالتعليم الإسلامي يعطيهم الفرصة فيصبحوا علماء كبارا يجلس إليهم كل طالب علم. هذا الجاحظ, تاجر خبز وسمك فقيرا, أصبح عالما جليلا وأستاذا لجيله ولأجيال كثيرة قادمة ولا يزال من القمم التي يدرس لها طلاب العلم في العصر الحديث. الإمام الشافعي الذي نعرفه صاحب مذهب إسلامي سنَي يتبعه ملايين المسلمين لم يكن إلا ابن أرملة فقيرة كانت عاجزة عن توفير لقمة العيش لهما ما بالك بحاجته التعليمية من قلم وحبر وورق وغيرها. تعلم وصار صاحب مذهب عظيم بفضل الله والتعليم الإسلامي, والحديث يطول.

**دعائم التعليم الإسلامـــــي**

تقول المؤرخة الألمانية الشهيرة زغريد هونكة (أن ما حققه العرب لم تستطع أن تحققه شعوب كثيرة أخرى كانت تمتلك من مقومات الحضارة ما قد كان يؤهلها لهذا. بيزنطة وريثة الحضارتين الشرقية والإغريقية بقيت على جهالتها, مع أنها بلغتها اليونانية, كانت أقرب الناس إلى الحضارة الإغريقية. والسوريون هم تلاميذ الإغريق, كان لهم من الحضارة قبل الإسلام حظ وفير, ولقد نقلوا, عن طريق الترجمة, كثيرا من أعمال الإغريق إلى لغتهم, ولكن أيضا, كبيزنطة, فشلوا في أن يجعلوا مما إقتبسوه من الإغريق بذرة لحضارة تزدهر كما فعل العرب فيما بعد.) **32** (هونكة 354-355) كل هذه الحقائق الباهرة ثم يقول أعداء الإسلام والمرضى من المحسوبين عليه بأن حضارة المسلمين كانت من صناعة غير العرب. لما لم يتحضر أولئك قبل أن يُصبحوا في ظل حكم العرب كما ورد أعلاه وبأيديهم كل وسائل التحضر؟ اليوم نرى للغرب حضارة عظيمة فهل هي قاصرة على علمائه أم أنه يجند ملايين العلماء من كل جنس ولون ومنهم آلاف العرب والمسلمين؟ لما لا يقول هؤلاء أن حضارة الغرب ليست من فعل أهله؟

تقول هونكة كذلك (ولو لم يخلق أبناء الصحراء, في زمن وجيز, من هذه البقية الباقية من بصيص النور الواهن المشرف على نهايته شعلة وضاءة لأدركت تلك الحضارة نهايتها الحتمية **33** صدقت هذه المنصفة والمؤرخة الألمانية المحايدة. كان تراث الأولين ميتا لو لا أن أخرجه العرب من مرقده وبعثوه من جديد ووفروا كل ما يلزم للإستفادة منه وصنع مثله ثم التقدم إلى الأمام حتى صار علم الأقدمين في ذمة التاريخ لما أحدثه فيه علماء الإسلام من تطوير وإضافات وإبداعات وإختراعات واستكشافات. تظهر عظمة الله في عباده المسلمين متى عرفنا كيف تم بعث ذلك التعليم وخاصة البداية التي ما أحوجنا اليوم إليها. لو قلدنا أجدادنا لكنا اليوم على الأقل بين الدول المتقدمة إن لم نكن على رأسها. كيف كان ذلك من أجداد خوارق وكيف صار لدى أحفاد كواسل؟

**حركة الترجمـــــــــة**

لم يفعل العرب مثلنا اليوم فيعلموا أجيالهم اللغات التي كُتبت بها مراجع العلوم المختلفة التي وصلت إليهم, بل وجهوا جهودهم وأموالهم وكل إمكانياتهم لحركة عظيمة لا زالت حديث التاريخ وهي حركة ترجمة كل ما وصل إلى أيديهم إلى العربية وبذلوا في سبيل ذلك كل مرتخص وغال حتى صارت مهنة الترجمة والنسخ والتأليف وكل ما تعلق بها مصدرا مهما وسخيا جلب له البشر من كل أنحاء العالم. بدأت حركة الترجمة منذ وصول أول وثائق التراث القديم إلى المدينة. لما كان العرب قادمون من عالم التخلف والجهالة إلى عالم مثله,فلم يكن أمامهم إلا أن يتعلموا ويعلموا أنفسهم بأنفسهم بطريقة الخطأ والصواب. ظلوا يخطئون فيقومون أخطائهم عبر المزيد من البحث عن سبب الخطأ حتى وصلوا إلى الصواب بحيث صارت حركة الترجمة واضحة منذ منتصف القرن الهجري الأول.

""لقد مرت حركة الترجمة في المشرق الإسلامي, وعبر أربعة قرون من تاريخها, ابتداء من القرن الأول وحتى منتصف القرن الرابع الهجري, بمراحل مختلفة من النضج والكمال. فالترجمة في القرن الأول الهجري هي غير الترجمة في القرن التالي, أي أن التباين كائن بينهما في أمور عدة منها: ثقافة المترجم معرفته

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**32. د. هونكة /شمس العرب تسطع على الغرب /ص 354 و 355**

**33. د.هونكة /شمس العرب تسطع على الغرب /ص 358**

بالمادة المترجمة ودرجة إتقانه للغات التي ينقل منها وإليها, وعدد تلك اللغات التي يُتقنها, والمحيط الذي ينقل فيه, والمصادر التي ينقل عنها, إلى غير ذلك من أمور هي من صفات ومميزات الترجمة."" **34** إذا يمكن الحديث عن تطور الترجمة في العهود الأربعة التالية: الترجمة في العصر الأموي ثم حالها زمن الخليفتين العباسيين المنصور والرشيد, لنصل إلى زمن المأمون ونختم بعهد ما بعد المأمون.

كانت حركة الترجمة قد وُلدت في عهد الراشدين ولكن بدايتها كحركة فقد إنطلقت زمن الخلافة الأموية حيث تم وضع الأساس المتين لها, لذلك لا غرابة أن يكون الناتج ضعيف المستوى وبدائي, ولكن بدون ذلك ما كان للترجمة أن تعرف الإبداعات التي تلت في العهود الثلاثة التالية. وتكامل تطور الحركة في العهد العباسي, فشهدت الترجمة زمن الخليفة المنصور وولده الرشيد تطورات مهمة من حيث المادة المترجمة, وتزايد عدد المترجمين وثقافتهم ونمو خبراتهم, والكم الذي صار في الإمكان نقله إلى العربية. الأهم أن الدعم المادي إزداد بشكل ملحوظ أكثر من ذي قبل لأن الدعم, طلبا للأجر الرباني بدأ مع بداية الحركة. شهد عهد الخليفة المأمون بن الرشيد تطورات عظيمة في كل المجالات فبلغت حركة الترجمة قمة نضوجها بفعل الجدية في المرحلتين السابقتين ومن الجميع, حاكم ومحكوم, ولأن المأمون كان عظيم السخاء متى تعلق الأمر بالعلم والترجمة من أهم مجالات العلم والتعليم. يكفي أنه كان يُعطي المترجم أو المؤلف وزن ما ترجم أو ألف ذهبا ويراه دون حقه, لذلك تضاعف عدد المتقاطرين على بغداد من العلماء ونافس الأغنياء, أو قل حاولوا منافسة, المأمون في كرمه.

إزدان عهد المأمون بميلاد مدرسة ترجمة جديدة لا يزال منهجها في اعتقادنا من أفضله إلى يومنا هذا. تلك هي مدرسة أسحق بن حنين العبادي المتوفى عام 260 ه = 873 م العربي النصراني القادم إلى بغداد من الحيرة العربية وكان يتقن أربع لغات إتقانا كاملا وهي: السريانية واليونانية والفارسية والعربية, لذلك كان قادرا وبجدارة على إيجاد اللفظ العربي المرادف لكل لفظ أجنبي من اللغات الثلاث التي كان يتقنها. "أما منهج حنين في الترجمة, يقوم على أساس الحصول على النسخة الأصلية لأي كتاب يروم ترجمته, أي أن حنين كان يُفضل التعامل مع أصل الكتاب المراد ترجمته, وفي حالة تعذر الأصل, نرى أن حنينا لا يعتمد على نسخة واحدة في مثل هذه الحالة, بل يرجع إلى نسختين فأكثر للمقارنة والربط فيما بينها, الأمر الذي أضفى على ترجماته طابع الدقة, ومما زاد في ترجماته أهمية أنه كان يلجأ إلى الطريقة التي عُرفت باسمة, وأعني بها طريقة الترجمة بالمعني." **35** ظهر ابن حنين المدعو أسحق لأبيه في الطور الرابع للترجمة فكان مثل أبيه في كل شيء, سواء من حيث إتقانه للغات أو منهجه في الترجمة ولكنه بز والده في إتقانه للغة العربية مما أعطى أعماله الغزيرة أهمية خاصة. فعلا لقد تتلمذ على يد والده وترعرع في مدرسته فبزه مما يُفرحه وهو في قبره ينتظر جزاء ربه.

شهدت المرحلة الأخير, أي مرحلة ما بعد المأمون, شيئا من الفتور في مجال الترجمة ربما لكثرة الم توفر الذي كان في حاجة لوقت كي يدرسه العلماء ويتناولونه بما كانوا يفعلون حتى يُصبح صالحا للتعليم,

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

34. **رشيد الجميلي / حركة الترجمة في المشرق الإسلامي .../ ص 25**

35. **رشيد الجميلي / حركة الترجمة في المشرق الإسلامي .../ ص 25**

لذلك هدأ نشاط المترجمين دون أن يتوقف وسرعان ما عاد إلى سابق نشاطه مع منتصف القرن الرابع الهجري وفي كل الوجوه السابق الإشارة لها, فظهر مترجمون أكفاء ليُحسنوا تطوير ميراث الأسلاف, كما شهدت المرحلة ميلاد الطب العربي أي الطب المعتمد أساسا على مراجع عربية, كتابة وتأليفا.

شهدت حركة الترجمة بعد المأمون فترة من الفتور فكانت بمثابة مرحلة إستراحة لكثرة ما توفر للعلماء من الأعمال التي تحتاج لوقت كي يكملوا دورهم في تناولها وتصبح مراجع علمية صحيحة ومناهج مفيدة لطلاب العلم. ثم استؤنفت الترجمة في عهد الخليفة العباسي المتوكل المتوفى عام 247 ه = 861 م. تلا ذلك فترة فتور جديدة إستمرت حتى القرن الرابع الهجري لتنهض مجددا. شهد عصر ما بعد المأمون والمترجم أسحق بن حنين العبادي جيلا جديدا من المترجمين مثل ثابت بن قرة وولده سنان, ومتَى بن لوقا البعلبكي, وابن زرعة وغيرهم. إمتاز عصرهم بظهور الطب العربي أي أن المصنفات الطبية صارت تعتمد على مراجع عربية خالصة. كيف ولدت وتطورت حركة الترجمة التاريخية العظيمة؟

**مراحل نمو حركة الترجمة:** ولدت حركة الترجمة مبكرا والتي كانت ترجمة حرفية أي ترجمة النص كلمة بكلمة فيكون الناتج نصوصا عربية ركيكة وضعيفة تجعل العلماء يبذلون الكثير من الجهد والوقت لتصحيحها حتى تُصبح واضحة الفهم. لا أحد يلوم المترجمين في تلك المرحلة إذ لم يجدوا من يعلمهم هذا العلم ولا وجدوا مراجع تفيدهم فاعتمدوا على أنفسهم فكانوا يجتهدون وهم مثابون بلا شك إذ بدونهم ما كان للترجمة أن تتطور إلى ما رأينا, بل ولما قامت للعرب حضارة علمية. لولا جهود المترجمين في المرحلة الأولى التأسيسية لما وُلدت طريقة حنين بن أسحق العبادي الفذَة. لم يعرف العقل العربي المسلم في ذلك الزمان البهي العجز أو الجمود. فقد ظل المترجمون يُبدعون بعد حنين ولم يتوقفوا عند طريقته رغم أنها عظيمة الشأن بل لا زالت الأفضل حتى الآن.

جاء المترجمون بعد حنين بطريقة مبتكرة ثالثة وهي التي تعتمد التلخيص والإختصار. فيها يقرأ المترجم النص الأجنبي حتى يفهم موضوعه ثم يكتب مختصرا أو ملخصا له بالعربية. تتطلب هذه الطريقة علاوة على الشرط الأساسي وهو إلمام المترجم بالعربية واللغة المنقول منها أن يكون من المتخصصين علميا في موضوع النص المراد ترجمته. فالطبيب يترجم كتب الطب والصيدلاني ينقل المصنفات الخاصة بالعقاقير والأعشاب الطبية, والأديب يُترجم النصوص الأدبية, وهكذا. رغم صعوبتها فقد كان لها مترجمون قادرون وعاليي الأهلية نذكر منهم عبد الله بن المقفع ويعقوب بن أسحق الكندي ويحيا بن عدي.

**مراكــــز الترجمـــــة:** تعامل العرب مع حركة الترجمة تعاملهم مع كل علم, فكانوا يساهمون في تنشيطها وتطويرها شكلا وموضوعا, كل حسب إمكانياته وقدراته لذلك كثرت المراكز المتخصصة في أعمال الترجمة وتنوعت إذ كان الجميع, أفراد وجماعات, قد ساهموا في أعمال الترجمة حتى في منازلهم, ولكن يبقى لكل نشاط مراكز بارزة ذات أثر واضح وشامل. ذ كر الجميلي في مبحثه سبعة مراكز هامة وهو لم يقصد, بلا شك, أنها وحدها وُجدت في عالم الإسلام وهي كما أسماها مدرسة: الإسكندرية, وأنطاكية, وحران, ونصيبين, والرها, وجنديسابور, وبيت الحكمة البغدادي. نكرر فنقول أنه إلى جانب تلك المراكز التي كانت تمتهن الترجمة وما يتعلق بها من نسخ وغيره, صارت لدكاكين الوراقة, أي مكتبات بيع الكتب ولوازم الكتابة, ركنا متخصصا في الترجمة, وكذلك الحال بالنسبة للمكتبات العامة. باختصار فحيث أمكن إقامة مكان للترجمة أقامه العرب.

لا أمل القول بأن عبقرية أجدادنا كانت فريدة من نوعها, فقد فهموا وعرفوا الطريق الصحيح نحو التقدم في وقت لم يكن لهم في عالمهم كله من يهديهم إلى ذلك كما هو الحال معنا اليوم, ولكننا نقلد الغرب ونتنكر لأجدادنا فلم نفلح منذ قرابة القرن بينما صنعوا هم حضارة عظيمة من لا شيء. عرفوا أن التقدم لا يتم بعيدا عن اللغة الأم علاوة على الدين القويم المشجع لطلب العلم, وهذا لا يتحقق إلا بترجمة المراجع الأجنبية كي يُجنبوا طلابهم عناء ترجمة ما يسمعون بلغة أجنبية لأن المرء أكثر فهم بلغته ولو كان من علماء اللغة الأجنبية. ساعدت حركة الترجمة بحق على نقل العلوم القديمة إلى العقل العربي ليصنع منه حضارة عربية إسلامية عظيمة الشأن.

**قنــــوات ثقافيـــــة:**

نقصد بالقنوات الثقافية هي تلك المسالك التي إنتقلت بها علوم الأولين إلى العالم الإسلامي, وما كان هذا ليحدث لولا ما تحلى به الغزاة المسلمين من تسامح وحفظا لما وجدوه لدى الشعوب التي خضعت لسلطانهم من عادات ومعتقدات دينية وثقافة. لذلك يمكننا تحديد نقل الثقافات القديمة إلى المسلمين في القنوات التالية: **36**

1) مواد يونانية نُقلت إلى العربية مباشرة.

2) مواد نقلت إلى العربية عبر الفارسية.

3) مواد تُرجمت من الهندية إلى الفارسية ثم إلى السريانية والعبرية والعربية.

4) أعمال لعلماء مسلمين إعتمدت على مراجع أجنبية غامضة المصدر.

5) ملخصات وتعليقات عربية على أعمال يونانية أو فارسية.

6) أعمال ذات مستوى متقدم عما كان قبل العصر الإسلامي ولكن لا يمكن لها أن تتطور في العصر الإسلامي بدون أسس تعليمية هللينية, وسريانية, وزرادشتية, وهندية.

7) أخيرا, أعمال ظهرت لمواهب فردية أو بدوافع إقليمية بغض النظر عن التعلم قبل الإسلام.

إستفاد المسلمون من جميع المسالك في وضع مناهج تعليمية مفيدة في بناء حضارتهم وإحداث تقدمهم المادي.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**.Mehdi Nako Steen / History of Islamic Origin of Western Education/ P. 14 36**

**الوراقــــــــــة:**

الوراقة عند العرب هي تلك الدكاكين التي كانت تبيع الكتب ولزوم الكتابة والنسخ, والتي سرعان ما أصبحت دورا للنشر والتوزيع, ثم أضافت أعمال الترجمة إلى نشاطاتها. كانت محلات تجارية يؤمها المثقفونفأصبحت مسارح للثقافة والحوار العلمي تعمل يوميا, وقد ظهرت مع بداية العهد العباسي. كانت تلك المحلات تنسخ الكتاب الواحد بمقابل في متناول الجميع وهو دينار واحد. كما كان يؤمها المثقفون والعلماء فصارت كذلك مسارح للثقافة والحوار العلمي اليومي منذ بداية العهد العباسي. لما كان الوراقون في الغالب من العلماء فقد كانوا يُثرون محلاتهم بالمزيد من المؤلفات التي كانوا يصنفونها بأنفسهم. لم يتوقف أصحابها عند هذا الحد بل كانوا يجوبون العالم بحثا عن مخطوطة غير متوفرة لديهم أو لم تُعرف من قبل والتي كانوا يحققون من ورائها ربحا كبيرا وفي ذات الوقت يكونون قد أضافوا الجديد إلى حركة العلم العربية الإسلامية.

**المكتبـــــــــــــات**

من عظمة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم أنه وضع نواة لكل شيء لتكون نبراسا لأمته فيقلدوه في كل شيء زمن نهضتهم الحضارية فتقدموا وقلدنا نحن الغير فتخلفنا. كانت له عليه السلام مكتبة في منزله كان يجمع فيها ما دونه كتبة الوحي. بعد وفاته نُقلت الصحف إلى منزل صديقه وخليفته أبو بكر رضي الله عنه, واستملها خليفته من بعده حتى آلت إلى رابع الخلفاء فجمع صحف القرآن الكريم في مصحف واحد. كما كان لأصحابه مكتباتهم الخاصة نذكر منها مكتبات كل من علي بن أبي طالب, وسعد بن عبادة الأنصاري, وعبد الله بن مسعود, وأسماء بنت عميس, وأبو هريرة, وعبد الله بن عمرو بن العاص, وعبد الله بن عمر, وابن عباس, وعروة بن الزبير وآخرون رضوان الله عنهم أجمعين.

لاشك أن ما سبق لنا الحديث عنه من النموذج النبوي والصحابي إتخذه صحابته وكل المسلمين نموذجا يُحتذى فطوروه حتى صار مكتبات متنوعة. أقاموا مكتبات للمطالعة العامة والخاصة وفي كل مكان من المسجد والمنزل وحتى أصغر مركز للعلم. صارت المكتبة عند العرب الشغوفين بالعلم أهم قطعة أثاث في أي منزل لغرض المطالعة وأحيانا حتى للزينة إن صح التعبير إذ لم يكن المرء ينال التقدير والإحترام بماله أو جاهه وإنما بمكتبته وما كان فيها من كتب كما وكيفا. صنف المؤرخون المكتبات الإسلامية على ثلاثة أنواع هي: مكتبات عامة, ومكتبات خاصة, ومكتبات بين هذه وتلك. لنعرف شيئا عن كل نوع.

كان لكل مكتبة إدارة تسهر على خدمتها وخدمة زبائنها مكونة من عدد من الموظفين بحسب حجمها والخدمات التي تقدمها. من موظفي المكتبة: أمين المكتبة ويسمى (الخازن) ومهمته السهر على كل شئون المكتبة ومتابعة طاقمها العامل والسهر على راحة الرواد, وقد يكون للمكتبة أكثر من خازن متى كانت أكبر من أن يتولى أمرها واحد فقط.ومناول الذي مهمته أن يدل القارئين على مكان الكتاب وإن لم يعثروا عليه أحضره لهم. مترجمين يثرون المكتبة بالمزيد من الكتب المنقولة في مختلف العلوم والتي يتولاها النساخ لإعمار أرفف المكتبة بأكثر من نسخة واحدة لكل كتاب وهي لن تصل إلى هناك إلا بعد أن يجلها المجلدون لحفظها من الهلاك ومن الطبيعي ألا تخلو مكتبة من يد عاملة يُبقون عليها نظيفة, ويعيدون الكتب التي لا يعيدها القارئ وغير ذلك من الأعمال. كل أولئك يكثر أو يقل عددهم حسب المكتبة. كما كان للمكتبات الكبيرة مشرفين غير مقيمين يتقاضون نفس ما يُصرف للخازن ومهمتهم القيام بزيارات تفقدية لضمان سلامة محتوى المكتبة وحسن أدائها لواجباتها. كان لكل مكتبة فهرس لتسهيل الوصول للكتاب المطلوب. كان لكل مكتبة فهرس لتسهيل الرجوع لأي كتاب عند طلبه.

لم تكن المكتبات الإسلامية قاصرة على ما تشتري أو تنسخ من كتب ومراجع بل كان المسلمون يجدون في التبرع سبيلا للحصول على أجر رب العالمين. كان بعض المتبرعين يضعون شرطا ما مثل ألا تعير المكتبة كتابه لأحد بل تعرضه للمطالعة داخل المكتبة. أما إعارة الكتب فكانت ممارسة منذ عرف المسلمون المكتبات, وكانت تتم بشكل يحفظ الكتب حرصا من المسلمين على ألا يلحق مصادر العلم أي أذى. مثلا, كان يُستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه أو منه, وبعض المكتبات لا تعير شيئا إلا للمنتمين إلى المكان التي هي فيه, وأخرى تطلب تأمينا مقابل الكتاب, ويلزم المستعير التعهد بعدم إحداث أي شيء في الكتاب كتصحيح ما يراه خطا أو إعارته لغيره أو دفعه ضمانا لأي شيء, وأن يعيد ما استعار في الموعد المحدد للإعارة. كل هذه الشروط لم تكن سارية على العلماء لما كانوا عليه من علم وسمعة وسيرة حسنة. أعجبني تصنيف الدكتور أحمد شلبي للمكتبات الإسلامية على ثلاثة أصناف وهو تصنيف حديث بلا شك:

**المكتبات العامــــة:** هي تلك التي أقيمت في المساجد والمدارس والمدن ومراكز البحث والدراسة ومن أمثلتها "بيت الحكمة" في بغداد التي أسسها هارون الرشيد. **37** كانت بعضها تقوم بكل نشاطات المكتبة وكذلك أعمال الترجمة والنسخ والنشر. كان هذا النوع من المكتبات يكثر في المدن بحسب حجم المدينة ولم تخلو منها مدينة إسلامية. مدينة بغداد, عاصمة الخلافة العباسية, وقبلة العالم كانت تعج بمائة مكتبة عامة في العام 277 ه = 891 م. تتميز المكتبات العامة بأنها تفتح أبوابها للجميع.

**مكتبات بين العامة والخاصة:** سُميت بهذا الإسم لأنها لم تكن مفتوحة للجميع عدا العلماء والباحثين وطلاب العلم والمترجمين. كما لم تكن خاصة بصاحبها مثل المكتبة المنزلية وما شابه لا يستخدمها إلا مالكها. كان الحكام والأغنياء أكثر من أقام هذا النوع من المكتبات تقربا لله تعالى وللعلماء كذلك من خلال العلم, لذلك كان يُشترط الحصول على إذن مسبق لدخولها ودائما لا شروط تسري على العلماء ومن في حكمهم. كانت هذه المكتبات كبيرة حتى أن بعضها يضم ثلاث مكتبات**38**. لثراء الذين كانوا يقيمونها كانت في العادة تضم الكثير من الكتب والمخطوطات النادرة التي قلما يقدر على شرائها العامة وقد لا يشتريها الوراقون لغلائها. لذلك كان العلماء وطلاب العلم والمترجمون وغيرهم أكثر من يؤم هذه المكتبات.

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**37. أحمد شلبي / تاريخ التربية الإسلامية / ص 181**

**38. نفــــس المرجــــــــــــع / ص 193**

**المكتبات الخاصــــة:** هي تلك التي كانت ملكا خاصا بالعلماء ومن في مقامهم. عليه كانت كثيرة ويصعب إحصائها.لشغف العامة والخاصة بالعلم فقد صارت كما أسلفنا أهم ما يفكر فيه المرء من أثاث في منزله أو مكان عمله الخاص به. لقد كان شعراء العرب يقرضون الشعر في مدح الكتب ومصادر العلم حتى ليُخيل للمرء أن الشاعر كان يخاطب رجلا عظيما أو حبيبة متيما بها. كانت المكتبة الخاصة بما فيها من كتب وحدها عنوان ثراء المرء ولو كان بالتعبير الحديث مليونيرا, فلم يكن المال يُعطيه أي جاه بل المكتبة فقط وما فيها من الكتب النادرة والنفيسة. عليه كان الفقير صاحب المكتبة المهمة يجد كل التبجيل والإحترام لا يجد مثله أغنى الأغنياء. يزداد شأن المالك علوا إذا حوت مكتبته النادر من الكتب. لذلك كان للبعض ممن لا اهتمامات علمية لهم مكتبات خاصة بهم يولونها عنايتهم الفائقة.

روى الحضرمي قائلا: ( أقمت مرة في قرطبة ولازمت سوق كتبها أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه إعتناء, إلى أن وقع, وهو بخط جيد ففرحت به أشد الفرح, وجعلت أزيد في ثمنه, فيرجع إلي المنادي بالزيادة عليَ, إلى أن بلغ فوق حده, فقلت له: يا هذا, أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلَغه إلى ما لا يساوي. قال فأراني شخصا عليه لباس رياسة, فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا, إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك, فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده. فقال لي لا أدري ما فيه, ولكن أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد, وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب. فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته, ولم أبالي بما أزيد فيه, والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير.) **39**

**ميزانيـــة التعليـــم**

عندما نقول ميزانية التعليم, وفي كل العصور, فلابد أن نقصد كل المجالات الثقافية وكل النشاطات التي تصب نتائج أعمالها لصالح النهوض بالتعليم مثل حركة الترجمة السابق الحديث عنها والمكتبات وما شابه, وهو ما فهمه العرب وهم ينهضون بأمتهم ويبنون حضارتهم. كان كل المسلمين حريصين على مساعدة أي مؤسسة لتقوم برسالتها كاملة غير منقوصة لذلك عملوا على توفير ميزانية تغطي كل إحتياجاتها, وقد بدأت في شكل تبرعات سخية من كل قادر بدءا بالخلفاء والحكام والأغنياء وانتهاء بالمواطن العادي. كان المسلمون قد نعلموا من دينهم السخاء ويزداد كرمهم عندما يتعلق الأمر بالعلم والتعليم ولهم في دينهم التشجيع الكبير لعلمهم بأن كل دعم ولو بكلمة طيبة له أجره الجزيل عند رب العالمين وهم أحرص الناس على ذلك. لذلك كان القادرون يتبرعون بسخاء وبدون توقف أو إرباك.

أقول دائما أن العرب كانوا عباقرة, فقد فكروا مبكرا في إيجاد مصادر ثابتة لدعم الحركة العلمية والثقافية لا تتأثر بفقدان المتبرع للمال أو تفضيل خلفه للإستثمار في مجالات أخرى أو حتى إفلاس الدولة> لم يفكروا طويلا حتى تذكروا نصيحة نبيهم عليه السلام لأحد الصحابة بوقف أرض لوجه الله وهو حل ينفع

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**39.** **د.زغريد هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 388 – 389**

التعليم وكل المؤسسات الخيرية وذات الخدمة الإجتماعية والمنفعة العامة. هكذا قام نظام الوقف الذي يخرج فيه المرء من ملكية موجودات ثابتة كالعقارات بمختلف أنواعها أو الأراضي وما شابه لتصبح ملكا خاصا بالمؤسسة المتبرع بها لها لا تعود لصاحبها قط, فيستثمرها القائمون على المؤسسة لصالحها. بذلك صار لمؤسسات العلم والثقافة والأعمال الخيرية دخولا ثابتة بل ومتنامية باضطراد. رغم هذا الحل الجذري فلم يتوقف المتبرعون من أهل الخير عن التبرع.

يقول (جيب و باون): "كان معظم دخل المؤسسات الدينية (وهي مؤسسات التعليم وقتها) يأتي على هيئة هبات خاصة لأراضي أو أي ممتلكات ثابتة فيما كان يُعرف بالوقف الذي يقيمه عدد لا محدود من الحكام ومن الأفراد القادرين ومنذ العصور الأولى للإسلام وذلك لصالح مساجد أو مدارس أو دور إنقطاع للعبادة أو أي مؤسسة خيرية من أي نوع كانت, وهي هبة أبدية لا رجعة فيها." **40**

كي نعرف حجم وقيمة الوقف الإسلامي ولمدرسة واحدة نقدم للقارئ نص وثيقة الوقف التي كتبها نور الدين زنكي حاكم سوريا للمدرسة النورية في دمشق عام 567 للهجرة الموافق 1172 ميلادي وقد توفي بعد ذلك بعامين. النص واضح على عتبة المدرسة إلى يومنا هذا وهو كما يلي:

(بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذه المدرسة الملك العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن آق سنقر ضاعف الله ثوابه ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه ووقف عليها وعلى الفقهاء والمتفقهة بها جميع الحمام المستجد بسوق القمح, والحمامين المستجدين بالوراقة خارج باب السلامة, والدار المجاورة لهما, والوراقة بعونية الحمى, وجنينة الوزير, والنصف والربع من بستان الجورة بالأرزة, والأحد عشر حانوتا خارج باب الجابية, والساحة الملاصقة لهما من الشرق, والتسعة حقول بالدارية, على ما نُص وشُرط في كتب الوقف رغبة في الأجر والثواب, وتقدمة بين يديه يوم الحساب," فمن بدَله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه. إن الله سميع عليم," وذلك في مدة آخرها شعبان سنة سبع وستين وخمسمائة.) **41**

تحدد العبارة الأخيرة موعد تسليم الممتلكات التي تم وقفها إلى إدارة المدرسة, وللمرء تصور مردود كل هذا الوقف ولمدرسة واحدة إذ لا يُسمح بالإنفاق من ريع الوقف على غير المؤسسة التي أوقف لها حتى لو زاد عن حاجتها لأن الزيادة لابد أن تُستثمر في تطوير المؤسسة والخدمة التي تقدمها وكذلك فتح مشاريع إستثمارية جديدة .

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**H.A.R.Gibb and H. Bowen “ISLAMIC SOCIETY AND THE WEST” / P. 165 . 40**

**41. شلبــــــــــي / تاريـــخ التربيـــة الإسلاميــــــــــــة / ص 136**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**يؤتي الحكمة من يشاء, ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا, وما يذكر إلا أولوا الألباب**

**صدق الله العظيم**

**البقـــرة**

**269**

**الفصــــل الثالــــث**

**تطور وازدهـــار التعليـــم الإسلامــــي**

**تطوير البنية التعليميــــــــــة:**

قرن ونصف القرن من الإنتصارات المتتالية ومن التقدم الحضاري والصناعي والتجاري أسفر كل ذلك عن تزايد مضطرد في ثراء الأمة الإسلامية مما حقق للتعليم أكثر مما إحتاج فأعطى ثمارا يانعة وعظيمة سواء في ميدان العلوم الدينية أو الدنيوية أوصلت الأمة الإسلامية مع نهاية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) إلى بداية المرحلة العظمى لإزدهار التعليم والحضارة الإسلامية. رأينا أن التعليم المنظم والهادف كان قد وُلد في المدينة على يد رسول العلم صلى الله عليه وسلم منذ الأشهر الأولى لقيام المجتمع الإسلامي الأول في التاريخ. ثم تولى المسلمون تطوير التعليم مع التشبث وبقوة بأساسيه الديني والدنيوي حتى وصل عصره الذهبي خلال الفترة من 750 م إلى 1150 م نتيجة تناولهم العلوم المختلفة ببراعة فريدة وبروح إسلامية تربوية وعلمية. حافظ المسلمون على أن يبقى تعليمهم عربي اللسان وإسلامي الجوهر والبيان. تعليما صالحا للبشرية قاطبة, من آمن منهم بخاتم الرُسل أو من لم يؤمنوا حتى لو كانوا مشركين وثنيين.

لا شك أن التعليم العربي الإسلامي قد شهد عدة مراحل من التطور, أهمها تلك البداية على أيد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم, ثم شهد بناء التعليم على ذلك الأساس المتين مرحلتين كبيرتين. فقد وصل التعليم خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ( التاسع والعاشر الميلاديين) إلى مستويات متقدمة عظيمة رغم إعتماده كليا على ما نسميه اليوم بالقطاع الخاص, وكان لنظام الوقف البديع دوره الأساسي في توفير الدعم اللازم لمؤسسات التعليم والمعلمين والمتعلمين والإداريين مما ساعدهم على أداء مهامهم على الوجه الصحيح والكامل بدون إنقطاع أو إرباك أو إضطراب. وصلت جميع العلوم خلال هذه المرحلة إلى قمة مجدها وأوج نموها لم تصله على أيد أحد من قبل ولم يحققها الغرب لاحقا لعدة قرون بعد تخلصه من سطوة الكنيسة وتخلفها المقيت بالنظر لتلك الفترة الوجيزة خاصة إذا أخذنا في الإعتبار أن العرب بدأوا من نقطة الصفر الكبير بينما بدأ الغرب من حيث وصل العرب المسلمون.

أما خلال المرحلة الثانية الكبرى على مدى القرون الحادي والثاني والثالث عشرة الميلادية, فقد ظهر دعم الدولة الرسمي للتعليم ولكن بدون إلغاء أو حتى إعاقة المساهمات الخاصة ولو من شخص الخليفة والحكام وسواء كانت تبرعات فردية أو وقف ثابت. كما شهدت المرحلة ظهور مدارس أساسها مذهبي كانت بمثابة مؤسسات تتفق وتوجهات الدولة وسياستها. مبعث هذا التوجه كان قيام الدولة الشيعية في مصر كمنافس للخلافة السنية في بغداد. تميز التوجه المذهبي بأنه لم يكن على حساب بقية المدارس الحرة ولا ناقضا لها بل أوجد منافسة علمية دفعت بالتعليم إلى تحقيق المزيد من التقدم ووجد طلاب العلم المزيد من الدعم المادي مثلهم مثل الباحثين والدارسين من العلماء, ولم نعلم أن هذه المؤسسات المذهبية كانت قاصرة على أتباع المذهب بل كانت تفتح أبوابها لكل طالب علم.

**فلسفة ونظريــة التعليــــــم**

جوهر التربية في الإسلام هو كل علم أو عمل أو نشاط يؤدي إلى السمو الروحي والأخلاقي والإجتماعي والفكري لأن الإسلام يرحب بكل ما يؤدي بالإنسان أي كان إلى الأفضل والأكمل ويرفض ما هو على العكس من ذلك **42** معيار ذلك يحدده القرآن الكريم وتفسره وتطبقه السنة المشرفة بتقديم ما يلزم من تفاصيل. فقد وردت عبارة العلم ومشتقاتها في القرآن الكريم تسعمائة مرة وهو ما لم يتسنى لأي شيء آخر. هذا لأهمية العلم والمعرفة التي يُعنى بها كتاب الله ولا غرابة من دين كان أول الوحي به ليس دعوة للإيمان ونشر الفضيلة وعبادة الواحد الأحد بقدر ما كانت دعوة إلى طلب العلم, كل علم (إقرأ ...) لأن الإسلام عند الله هو خاتمة رسالات السماء إلى البشرية بعد أن قدمت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها الأساس المتين للعقيدة الواحدة وليس كما حرفها أهلها, فجاء الإسلام ليُكمل منظومة الحياة التي أرادها خالق الخلق لمن خلق دنيا وآخرة.

يساوي القرآن الكريم في ذكره لعبارتي الدنيا والآخرة فأعطى كل منهما 115 مرة كدليل على أن رب العالمين يُفهم عباده بأن عليهم العناية بالدنيا عنايتهم بالآخرة بدون تغليب هذه على تلك وهو ما فهمه أجدادنا فسعدوا في دنياهم ونرجو ونظن أنهم كذلك في أخراهم بفضل الله الغفور الرحيم. لقد رفع الله قدر العلماء في قوله تعالى في الآية 28 من سورة فاطر (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء. إن الله عزيز غفور) صدق الله العظيم. الحث القرآني على طلب العلم كبير وتطبيقات النصوص المقدسة في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم قولا وعملا أكثر من أن تُحصى مثل قوله عليه السلام (العلماء ورثة الأنبياء, والأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما, وإنما ورَثوا العلم, فمن أخذه أخذ بحظ وافر)

نظرية التعليم تمتعت بثراء قرآني ونبوي كبير. مثلا, لقد عالج القرآن الكريم كل شيء في حياة الإنسان من نشوء الخليقة والإنسان وطبيعته ونظام الطبيعة والمجتمع والكون وكل الظواهر والمظاهر. " الإسلام في أساسه نظام تربوي متكامل يتناول الكائن البشري بجوانبه الفكرية والسلوكية والجسمية والعقلية والروحانية, وهو يستهدف تحرير هذه الجوانب في الإنسان: تحرير العقل من الوهم, وتحرير النفس من الخوف والعبودية, وتحرير الجسم من الخضوع للذات والشهوات." **43**

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**42. د. عمر الشيباني / فلسفة التعليم / ص 27.**

**43. الفنيش / أصول التلربية / ص 184**

مما تقدم كله نجد أن مصادر بناء فلسفة تربوية تعليمية إسلامية عديدة, أولها وأساسها المتين هو القرآن الكريم, ثم السنة المشرفة, فالقياس الشرعي والإجماع المعتبر, والتفسيرات الصحيحة الصائبة, والإجتهادات الموفقة, وجعل الإسلام للمجتهد أجران إن أصاب, وأجر واحد ثابت لو لم يوفق. تُقدم هذه المصادر معا فكرة شاملة حول فلسفة الوجود والمعرفة والقيم, وهو كل ما يحتاجه رجال التعليم في أي زمان أو مكان لبلورة فلسفة تربوية صالحة عربيا وإسلاميا وعالميا.

**بناء فلسفة تربوية عربية إسلامية:** عرف علماء التربية العربية الإسلامية من الأجداد الأشاوس ومن الحاضر كيفية بناء فلسفة للتعليم العربي الإسلامي, كما عرفوا الشروط والمقومات الواجب توفرها في بناء مثل تلك الفلسفة كي يصبح التعليم العربي الإسلامي ناجحا في كل زمان ومكان, فيكون عطاءه وافرا وخريجوه من أفضل المؤهلين كما كانوا في زمن النهوض العربي الأول, ويمكن تلخيصها فيما يلي:

1. أن تكون فلسفة التعليم في جميع مبادئها ومحتوياتها ومعتقداتها متمشية مع روح الدين الإسلامي والفهم الواعي السليم بعقائده وتعاليمه وتشريعاته. (لو وُجد هذا البند في فلسفة التعليم العربي المعاصر لما رأينا ما نعيشه من قتل وتكفير وتدمير للأمة وعلى أيد أبنائها وباسم الإسلام زورا وبُهتانا.)
2. أن ترتبط بقوة بواقع المجتمع وثقافته ونظامه الإجتماعي والإقتصادي والسياسي, ومصالح الناس, وآمالهم واحتياجاتهم ومشكلاتهم.
3. أن تكون منفتحة وقابلة للإستفادة من جميع التجارب الإنسانية الصالحة.
4. أن تُبنى على أساس من التجربة الطويلة والناجحة, وعلى الدراسة العميقة للحياة والعلوم والخبرات البشرية.
5. أن تُعنى وبشكل متوازي وشامل بالروح والثقافة والحياة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والنفسية والتربوية التي تؤثر إيجابيا في العملية التربوية.
6. أن تكون إنتقائية وهي تتعامل مع مصادر غير إسلامية, فتأخذ منها الصالح والعملي والمفيد مع التحوط وبلا مبالغة كي لا تترك المهم فيه.
7. أن تخلو من التناقضات والتضارب بين المبادئ والمعتقدات التي تُبنى عليه.
8. أن تكون سليمة الفروض والمسلمات والأفكار التي تقوم عليها.
9. أن تراعي الواقع بدون مبالغة أو مثالية زائدة أو لفظية غير سليمة.

10, أن تكون مرنة بحيث تقبل التعديل والتغيير والتطوير واستيعاب كل جديد دون التخلي عن الأساس الإسلامي وجوهر التربية في الإسلام.

11, ألا يقتصر بناءها على فئة ما. بل تكون نتاج عمل جماعي يضم أكبر عدد ممكن من المتخصصين والمهتمين والمشتغلين بشؤون التربية والتعليم والفكر الفلسفي الإسلامي والفكر الفلسفي العام وكل علم ذو علاقة بفلسفة التربية والتعليم والتدريب.

**أهداف التعليــم:**

تهدف التربية العربية الإسلامية في أساسها إلى تقوية وترسيخ الإيمان بالعلم الذي يدل على عظمة الخالق وقدرته وسلطانه. لذلك تهدف لمساعدة الإنسان, خليفة الله في الأرض, من حسن إستغلال مواردها وثرواتها بتزويده بالعلوم المساعدة له على ذلك. لذلك, فطبيعة التربية الإسلامية هي إقران الإيمان بالعلم, والعبادة بالعمل, والفكر والأمل بتنمية الروح والوجدان, والغاية بالوسيلة الصحيحة. (كما تهدف التربية الإسلامية إلى بناء حضارة مفتوحة الحدود وشاملة لكل ما في الحياة من مجالات التقدم والرقي في أسسها الفكرية والنفسية والمادية.)44 يمكن القول, إذًا, أن التربية في الإسلام تهدف إلى تحقيق التدريب العملي المبني على التعليم الشامل لكل العلوم الأساسية الدينية والدنيوية التي تنصهر في بعضها البعض بإحكام فريد ومبهر لكل العقول كما فعل أجدادنا. يكون التطبيق العملي في التربية الإسلامية مدعوما بنظريات حكيمة وعلمية ودقيقة والتي يتم إخضاعها لكل المناهج العلمية التي تؤكد صحتها وصلاحها وخاصة منهج التطبيق العملي والتحليل العلمي. يتضح أن الهدف الأساسي لتلك التربية ليس الحفظ والترديد المبهم عادة والغير باعث على الإبداع, بل تهدف إلى تحصيل ملكة الإستخراج والاستنباط وسرعة الانتقال من الدوال إلى المدلولات. عليه يمكن تلخيص سمات تلك التربية فيما يلي:

1. إمتزاج العلم بالعقيدة لضمان توجيهه إلى الخير ونفعه لعامة البشرية.
2. إرتباط العلم بحاجات المجتمع ومنافعه.
3. الإهتمام المتوازن بالروح والعقل والجسد.
4. التعرف على الفروق الفردية بهدف إعطائها حقها من الإهتمام والتفعيل.
5. الإهتمام بالجوانب العملية والتطبيقية لكل علم.
6. الإهتمام بالتعليم النافع لكل مرحلة من مراحل عمر الإنسان.

هذه هي مقومات الفلسفة التربوية التي إعتمدها أجدادنا فنجحوا نجاحا فريدا في عظمته. كان العالم فيهم موسوعة تمشي على الأرض. فالطبيب فقيها والكيميائي كذلك وهلم جرة. قلنا دائما أن الأهداف التعليمية في الإسلام كانت دينية ودنيوية منصهرة بشكل يصعب التفريق ما هو ديني وما هو دنيوى, ولكن لأجل الفهم في عصرنا الراهن نوردها على شكليها كما يلي :

1. **الأهداف الدينيـــة:** وهي تلك الأهداف التي أساسها قرآني وهي منظومة من التربية الروحانية كالاعتماد على الله في كل أمر, وتعمل التربية على غرس الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. كما تهدف أيضا إلى الإلمام قولا وعملا بقواعد الإسلام والعبادات والأحكام,

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**44, الفنيش / أصول التربية / ص 18**

واكتساب الأخلاق الحميدة والسلوك السوي, والتعود على معاملة خلق الله على قدم المساواة بعقيدة أن البشر كلهم لآدم وآدم من تراب, وتهدف التربية الإسلامية إلى إيجاد الحافز الديني اللازم لنيل أكبر قدر من العلم, دينيا كان أم دنيويا, عرفه الإنسان بفضل من الله ومنَة منه.

**الأهداف الدنيويــــة:** تعمل التربية الإسلامية على تسليح المسلم بكل علم نافع يؤدي إلى إحداث التقدم الحضاري وسعادة الإنسان في الدارين, وتحث على تزويد كل مواطن بنصيب وافر من كل علم شرعي أو تطبيقي تجريبي حسب قدراته. (مهدي 41) وتنمية قدراته على البحث والدراسة والتجربة والتحليل والاختبار العلمي الصحيح. بفضل الله تعالى وجهود العرب الصادقة والمضنية وصبرهم الجميل الذي لم يعرف النفاذ وصدق نواياهم وعزيمتهم الأكيدة حقق العرب والمسلمون جميع أهداف التربية الإسلامية بطرفيها بنجاح منقطع النظير لأنهم فهموا دينهم وصدقوا مع ربهم فكان ناصرا لهم في ساحات الوغى بمثل ما نصرهم في ساحات الحضارة والبناء.

إمتزاج كلا نوعي الأهداف زمن التربية الإسلامية أعطى المسلمين وغير المسلمين, أي الإنسانية, رجالا لا يُحصون عددا مثل جابر بن حيان المشهور إلى يومنا هذا بأنه من أعظم علماء الكيمياء وطبيبا ماهرا رغم أنه كان صوفيا, فأين الصوفي اليوم الذي يعرف ولو شيئا عاما عن الكيمياء أو الطب أو حتى مبادئ في أي لغة أجنبية؟؟

**السلـــم التعليـــمي**

عرفنا نظم التعليم في العصر الحديث أنها تشترك في سلم تعليمي واحد مع فوارق بسيطة ومعظمها تتركز على التسميات. نجد السلم يتشكل تصاعديا بعد رياض الأطفال من الإبتدائية فالإعدادية ثم الثانوية والمرحلة الجامعية العامة وأخيرا التخصص العالي. بتفحص التعليم الإسلامي نجده يسير على نفس النمط ولكن بدون حدود قاطعة تفصل المراحل عن بعضها البعض كما في عصرنا, وهذا الصعود يفرض حال تحصيل العلوم إذ لا يمكن للطفل أن يفهم شيئا في الإعدادية بدون إجتيازه الإبتدائية بنجاح وهكذا. إذًاً كان سلم التعليم الإسلامي يقدم للطفل المبتدئ العلوم في شكل موجز وواضح وسريع وعمومي ليصبح أهلا للمرحلة التالية حيث التفصيل الأدق بعض الشيء لنفس المواد تقريبا. في المرحلة الثالثة أي الجامعية, التي عُرفت بحلقات الدرس بالجامع, يبدأ التخصص في مجال ما ثم يزداد التخصص دقة حتى يصبح الطالب عالما جليلا أي دكتورا بالتعبير المعاصر. رغم هذا التماثل بين الماضي والحاضر فلابد من ميزة لكل عصر. فقد عُرف سلم التعليم الإسلامي عندما اكتمل تطوره بقسمين كبيرين هما: مرحلة التعليم الأولي (الإبتدائي) ومكانه عادة الكُتاب, ثم مرحلة الجامع ومؤسسات التعليم المماثلة التي تضم كل مراحل ما بعد الإبتدائي . كانت حلقات الدرس تقدم المستوى الذي تقدمه الثانوية اليوم ثم تتصاعد في شكل حلقات ذات مستوى جامعي أول.

أما الدراسات العليا فكانت تتم في دكاكين الوراقين والملتقيات الأدبية ومنازل العلماء وقصور الكبراء والحكام والخلفاء. لأنها كانت أعمال تأليف وتصنيف أو ترجمة يقوم بها العالم بمبادرة منه أو بطلب من الخلفاء أو الحكام أو الأغنياء فيتولون توفير كل إحتياجاته حتى يُكمل العالم عمله فيكون قد صار في مصاف كبار العلماء. طلب المأمون من العالم (الفرَاء) وضع كتاب في كل أصول النحو ووفر له ما لزم من مكان مريح ومُنفق يلبي طلباته ووراقين وكتبة وجواري إلى أن أكمل عمله. فنال علما ومالا وسعد الخليفة بإنتاجه وهو بمقاييس زماننا يكون قد حضر رسالة في درجة الدكتوراه. أين أولئك الحكام من حكامنا اليوم الذين لو فكروا في تأليف شيء فلن يكون إلا وضع مجلد عن حياتهم الشخصية, أما من يُجهد نفسه في إخراج المؤلفات العلمية فهو أبعد من أن يُفكر الحاكم اليوم فيه.

عرفنا فيما تقدم أن العلم في الإسلام للجميع, ذكورا وإناثا, وأنه مرنا بحيث تضمن فرصا للفقير ولو كان معدما, وأن التعليم كان لا يعرف علوما دينية وأخرى دنيوية لا تلتقيان لأن المسلمين لم يكون بينهم لا العلماني ولا التحرري (الليبرالي) ولا الشيوعي ولا أي تصنيف غير أنه كان مجتمع الإسلام. لذلك كله لا غرابة أن يكون البيت المسلم الذي كما أشرنا عند الحديث عن المكتبات كان لا يخلو من مكتبة. كل ذلك أهل البيت ومن في البيت من أم في المقام الأول ثم أب متعلمان ليكون قادرا على إعداد أطفاله للتعليم المنظم إعدادا سليما وصالحا. عليه لم يجد علماء التربية الإسلامية حاجة إلى مؤسسات تُعد الأطفال للمدرسة.

إذاً كانت مرحلة ما قبل التعليم الجاد من إختصاص المنزل والأم خاصة. كان الأبوان هما من يقررا متى يرسلا طفلهما, ذكرا أو أنثى, إلى المدرسة وعادة ما كان يحدث ذلك بين الخامسة والسابعة من عمر الطفل لأن السابعة عند المسلمين هي موعد تدريب الطفل على أداء الصلوات المكتوبة وكانوا يرون أن المدرسة أفضل في هذا المجال وأقدر على إعداده كي يتقبل المحافظة عليها عند بلوغه العاشرة حين يُصبح عرضة للعقاب على تركها حسب الشريعة. ثم قد لا تُتاح للطفل التعود على صلاة الجماعة ومعرفة ما يتعلق بها في المنزل. أما في المدرسة فالأستاذ هو الإمام والعدد يكفي حتى لإقامة صلاة الجمعة لو لم يكن يوم الجمعة عطلة عند المسلمين. ورد في كتاب بعنوان (الإرشاد والتعليم) حيث كتب صاحبه:

"والطفل صورة عائلته , فكل ما فيها من خير أو شر, وكل ما سمعه ورآه ينطبع فيه, ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور في تربية الأبناء, ومن ربى ماله ولم يرب ولده فقد ضيع الولد والثروة, وتربية الفضائل لا يمكن أن تُكتسب في المدارس بل يجب ممارستها مع الطفل من يوم يعي الخطاب ويفهم الكلام." **45**

كانت الأم عند حسن ظن المربين. فقد كانت تغرس في طفلها الإيمان بالله وطاعة الأبوين واحترام الكبار وصلة الرحم وود الأقارب والجيران. كان يتم ذلك عمليا مع القليل من الكلام لإدراك الأبوين أن الصغير يتعلم بالتقليد أكثر من التلقين والدروس الملقاة عليه. لذلك كانوا يصطحبونه معهم في زياراتهم لذوي الرحم ليتعلموا صلة الرحم وعند الصلاة في المسجد وغير ذلك من الأعمال المراد طبعها في طفلهم. كما كان الأبوان يحفظانه ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **د. شلبي / تاريخ التربية الإسلامية / ص 211**

بعض السور القصيرة وشيء بسيط من القراءة والكتابة والعد وإذا لزم الأمر أوكلا أمر تعليمه هذه المهارات الثلاث إلى معلم خاص. ولا شك أنهما لم يحرمانه من الإنضمام إليهما عند الصلاة. هكذا يكون الطفل قد أُعد إعدادا صحيحا ليبدأ التعليم المدرسي المقصود.

البداية الجادة كانت تتم في الكُتَاب القريب من المنزل حيث يتعلم الطفل الكثير وخاصة حفظ كتاب الله تعالى الذي متى أكمله أطلق عليه لقب (حامل كتاب الله) وهو لقب كان يُطرب الولد ويفرح الوالدين ويظلا يفخران بإنجاز ولدهما أو ابنتهما. كانت نهاية المرحلة الأولى هذه محكومة ببلوغ الأطفال سن الرشد التي كانوا يقدرونها ببلوغ البنت الثالثة عشرة والولد الخامسة عشر فلا يستمر الإختلاط بعد ذلك. عادة ما كانت هذه المرحلة تستغرق بين خمس وسبع سنوات لأن التعليم كان مفتوحا للكل, كل حسب قدراته واستعداداته أي كانت الفروق الفردية مراعاة بدقة. أما المحك الثاني فكان إستكمال الطفل حفظ كامل كتاب الله ولو لم يبلغ الرُشد بعد. نهاية المرحلة بالبلوغ هي لفصل الجنسية فقط فيواصل كل في محيطه بنفس الكُتاب أو في كتاتيب خاصة بكل جنس أو في المنزل على يد معلم خاص.

تميز نظام التعليم العربي الإسلامي ليس فقط بهذه الحرية بل وبالمصداقية. فقد كان المعلمون في جميع المراحل يراعون الفروق الفردية فيتعاملون مع تلاميذهم أو طلابهم في ضوء ذلك فلا يُحبطون البطيء التحصيل ولا يُضايقون عامة الطلاب بتمجيد الأذكياء كل حين. لذلك لم يحددوا موعد الالتحاق بأي مرحلة ولا متى على الطالب أن يتركها. فكان النابغون ومن هم غير ذلك يواصلون تعليمهم حسب قدراتهم فلا يُحبط النابغة بإلزامه بسلم محدد ولا البسيط بطرده في موعد محدد. لذلك نقرأ عن علماء كبار وهم في سن الشباب المراهق وآخرون بدأوا تعليمهم وهم رجال. (للتعلم على يديه. الطبيب الذائع الصيت, ابن سيناء, بدأ دراسة الطب وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره, وحنين بن أسحق أكمل تعليمه الأساسي في الطب في مدرسة جنديسابور وهو في السابعة عشرة من عمره. يقول ابن سيناء عن نفسه: "ثم رغبتُ في علم الطب وصرتُ أقرأ الكتب المصنفة فيه." **46**  حتى أنه صار أهلا لتعهد المرضى وبنجاح وهو ابن ستة عشرة عاما فقط.

**مناهـــج التربيــة العربيـــة**

ولد التعليم الإسلامي في حضن أمة متعلمة بالكامل بفضل قائدهم محمد صلى الله عليه وسلم, وقد ساعدهم تداول الفُصحى كلغة تخاطب يومية, وسليقة الحفظ العالية التي جُبلوا عليها على سرعة إستيعاب العلوم المستجدة عليهم وتطويرها حتى صارت عربية إسلامية بلا منازع. لم تكن لهم دراية بالفرق بين الكتب المنهجية وتلك العامة, ولكن حفظهم للقرآن الكريم, الكتاب التربوي الرباني, أعانهم على الإختراع. فتح العرب بلاد واسعة وكثيرة مما جعلهم سادة مهد التراث الإنساني الثقافي القديم إلا أنهم لم يجدوا فيه ما يهديهم إلى معرفة أن للتعليم كتبه الخاصة. عملوا عقولهم حتى تفتقت عن إختراع لم تعرفه البشرية من قبل وهو التفريق بين الكتابة **ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**46. ابن سيناء يتحدث عن نفسه/ مجلة العربي الكويتية / نوفمبر 1986 / ص 46**

للتعليم وتلك العامة. وصف علي بن العباس المتوفى عام 994 م التراث الطبي القديم بأنه جيد الشرح ولكنه غير صالح كمنهج دراسي ومرجع تعليمي. وأردف انه لم يجد كتابا واحدا شاملا ويحتوي على كل ما هو ضروري لتعلم الطب, فتعابير أبي قراط اليوناني كانت غامضة وتحتاج إلى الكثير من التعليق. أما كتب جالينوس فقد وجدها كثيرة الترديد وليس بينها كتابا واحدا صالحا كل الصلاح للتعليم.

يقول "نيوبرجرNeuberger " (إن العرب هم الذين أدخلوا النور والترتيب على تراث القدماء الذي طالما إكتنفه الغموض ونقصه التسلسل, ومكان النقل الآلي للفقرات وتجميع المعلومات واضطراب المخطوطات الكثيرة لدى البيزنطيين, مكان كل هذا, صنف العرب كتبا مختصرة جامعة عظيمة التماسك صبوا فيها كل المواد الدراسية الخاصة, وعرفوا كيف يقدمون العلوم في أشكال سهلة, وصاغوا في لغتهم الحية التي لم تمت فيها كلمة, تعابير علمية مثالية)**47**

تزداد مصداقية التعليم العربي الإسلامي وضوحا في أن قاموسا عربيا واحدا وُضع في ستين مجلدا, وقد دُعم بشرح توضيحي لكل كلمة, وفي تلك النتائج العلمية الباهرة التي أدت إلى إحداث إستكشافات وإكتشافات واختراعات وإنجازات عظيمة أدت بالضرورة إلى قيام حضارة عربية إسلامية سامقة. كان العرب أول من وضع كتبا منهجية لكل مرحلة تعليمية. لقد فرقوا بين الكتابة العامة والتأليف لأغراض تربوية تعليمية الذي يحتاج لدربة خاصة, ودراية واسعة, وعلم غزير, وخبرة تربوية عريضة لا تحتاجها الكتابة العامة. جاءت المناهج الإسلامية محققة لأهداف تعليمهم بشقيها الديني والدنيوي دون تغليب أي منهما على الآخر وفي تمازج فريد. كانت مناهج تساعد على سهولة الفهم ويسر الإستيعاب والرغبة في العلم.

شمل المنهج الأولي تحفيظ القرآن الكريم وهي خطوة مهمة ثبت حتى الآن أنها خير ما يُطلق اللسان ويُيسر فهم بقية المواد. ثم يتعلم الطفل الدين خاصة التدرب على ممارسة العبادات وأولها الصلاة فالقراءة والكتابة والحساب. كما يتعلم بعض الشعر والقصص والسباحة إن أمكن, وكذلك الأدب وركوب الخيل. بعد أن دخل اللحن على اللسان العربي بفعل الإندماج مع المسلمين وغير المسلمين من العجم صارت قواعد اللغة تُدرس في هذه المرحلة. كان المعلم يتدرج مع تلاميذه من السهل البسيط إلى أن يصل بهم إلى الأكثر جدية.

أما مناهج المرحلة التالية وهي المعادلة للثانوية والجامعية عندنا التي لم تعرف فاصلا حادا كما هي اليوم, فقد كانت مثل الأولى دينية دنيوية متكاملة ولكن لمعرفة ما كان يدرسه الطلاب بعد الإبتدائي يمكننا تقسيم المنهج إلى مقررات دينية ودنيوية, تقسيم لم يكن لا معتمدا ولا معروفا زمن النهوض الحضاري الإسلامي وإنما نقدمه على ما يأتي لتسهيل الفهم على أجيالنا:

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**47. .زغريد هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 286**

1. بالنسبة للمنهج الديني الأدبي فقد شمل تدريس الفقه والنحو وعلم العروض وعلم الكلام والكتابة وعلم الأخبار (التاريخ) وأحيانا الحساب.
2. علميا كان المنهج يدرس العلوم الطبيعية مثل الطب بفروعه وعلم المعادن والمناجم, وعلم النبات, وعلم الحيوان, والكيمياء, والرياضيات من حساب وجبر وهندسة, وعلم الحيل والآلات الرافعة والميكانيكا والفلك والعمارة وكل علم عرفه المسلمون. كان منهج هذه المرحلة الثانية والكبرى يزداد كما من حيث المواد الجديدة وكذلك نوعا من حيث محتوى العلوم والطرق المتبعة في توصيل المعلومة.

**طــــرق التدريـــــــــــس**

**المرحلة الأولــــى:** كان معلم الكتاب في العادة معلم واحد وهو الذي يملك المبنى أو يستأجره ويقوم بتدريس كل المنتسبين إليه. ولا سلطان عليه من الحكم. كان المقابل مشاهرة أو مساناة أو بقدر ما تعلم الطفل. كان الكُتاب عبارة عن حانوت أو عدة حجرات إذا فاق عدد المنتمين للكتاب قد يستأجر معلمه معلما آخر وكان في العادة يستخدم البارزين من التلاميذ ليتخذ منهم روادا لمجموعات من الطلاب يقومون بالتدريس لهم تحت إشرافه المباشر فيُصلح لهم أي خطأ قد يقعوا فيه. بذلك كان الطفل يبدأ التدرب على وظيفة المعلم عمليا وهو لا يزال تلميذا, وكون المعلم يختار المتفوقين فكأنه يزود حقل التعليم بمعلمين نجباء. أما طريقة توصيل المعلومة فهي أن يتلو المعلم على مسامع التلاميذ الآيات المراد تحفيظهم إياها وهم يكررون وراءه حتى يطمئن إلى حفظهم إياها, عندها يأمرهم بكتابتها على ألواح فيصححها لهم ثم يمحونها وبذلك يكونون قد تدربوا على الكتابة, وهكذا بالنسبة لبقية المواد وإن إختلفت الطريقة بعض الشيء. هذه الطريقة لا زالت متبعة إلى يومنا هذا في الكتاتيب حيث وُجدت والعجيب أن خريجيها لا يزالون أفضل من خريجي المدارس الحديثة وعلى مر العصور.

**المرحلة الثانيــــة:** الطريقة المتبعة في هذه المرحلة لما بعد الأولى هي نظام الحلقات ذات المستويات التعليمية المختلفة وهي مفتوحة لمن رغب ولو كان عابر سبيل أو ضيوف محتملين حتى انه كان يُترك فراغ مخصوص لذلك. كان الطالب يختار ما يناسبه من حلقة فيجلس فيها حتى يكتفي ثم ينتقل وبإرادته إلى حلقة أعلى مستوى وهكذا حتى يُكمل المرحلة الموازية لنهاية الدراسة الجامعية عندنا. يُروى أن الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه كان أول من إعتمد الحلقة كطريقة تعليمية مقصودة رغم أن النبي عليه السلام كان يُعلم أصحابه وهو جالس على الأرض وهم أمامه في شكل حلقة هلالية. كانت حلقته حسب بعض الروايات تضم 1600 طالب علم لذلك كان يقسمهم إلى مجموعات بواقع عشرة لكل منها وعلى رأسها طالب نبيه يتولى التدريس تحت المتابعة الدقيقة لأبي الدرداء. يجلس شيخ الحلقة ساندا ظهره إلى احد أعمدة المسجد ويجلس طلابه أمامه على شكل هلال رأساه عنده حيث يجلس النبهاء يليهم الأقل نباهة وهكذا. هذه حقائق كانت ممارسة ولا يجب أن نقارنها بحاضرنا لأننا لسنا كما كانوا, لا رغبة في العلم ولا استعداد للتضحية من أجل تحصيله, فجل طلابنا يبحثون عن النجاح بأي وسيلة وبدون عناء.

"يبدأ الشيخ درسه أو محاضرته بالقراءة من ورقة يكون قد أعدها مسبقا أو يقرأ من كتاب معين ليشرح المحتوى مشجعا طلابه على تدوين ما يسمعون ليكون مرجعهم في نهاية المحاضرة كي يوجهوا أسألتهم بالخصوص. كان الشيخ يشجعهم كذلك على إبداء آرائهم بكل صراحة ولو خالفت رأيه, وكان يدربهم على كيفية دعم الرأي بالحجة وبالحوار العلمي. كان لا يمل تكرار مقولة ( لا أعلم) إذا لم يعرف الرد ولا يجد في ذلك حرجا ويذكرهم دائما بأن من قال أعلم فقد جهل ومن قال لا أعلم فقد علم أو أفتى, ويُردف بأن ذلك نصف العملية التربوية وأهم نصف فيها. وعندما يقول (والله اعلم) يعلم الطلاب أن المحاضرة قد وصلت نهايتها. يبدأ الشيخ كذلك كل درس بمراجعة عامة لما سبق دراسته من الموضوع بهدف تأكيد ربطه بالدرس أو الدروس السابقة وتأكيد الفهم, ولا ينتقل إلى الدرس الجديد إلا بعد أن يتأكد من سلامة استيعاب الطلاب لما مضى, وإلا عاد إليه مجددا. كما لا يربط نفسه بزمن محدد لكل درس, فلا يتوقف حتى يتيقن بأن الطلاب قد فهموه جيدا."**49** كما لم يكن يربط نفسه بمدة محددة للمقرر لأن جميع المعلمين المسلمين كانوا يهتمون بالكيف قبل الكم.

عُرفت حلقات الدرس في البداية باسم الشيخ فيقول الطالب "أجلس إلى حلقة الشيخ فلان", ولما تعددت المواضيع وبدأ التخصص يأخذ طريقه إلى الوجود بشكل أوضح من ذي قبل صارت الحلقة تُعرف بموضوع الدرس فيقال: هذه حلقة فقه, أو طب, أو فلسفة وهكذا. كان الفقهاء مدركون لأهمية المكان والزمان لذلك لم يكونوا يغيرون مكان وزمان دروسهم لإتاحة الفرصة للطلاب النجباء والشغوفين بالعلم المواظبة على حضور دروسهم دون إنقطاع, وكي لا يحدث تعارض مع مواعيد بقية الحلقات بالنسبة لمن يحضر أكثر من حلقة. قال طالب مسلم أنه كان يحضر حلقتي الشيخين يزيد بن عبد الملك وسليمان بن موسى صباحا وحلقة الشيخ إسماعيل بن عبيد الله المهاجر بعد الظهر وفي المساء يختم يومه بحضور حلقة الشيخ مكحول. (التعليم بالجامع الأموي 139) أين طلابنا اليوم من هؤلاء؟

نمت وتنوعت طرق التدريس تبعا للمواد المستجدة حتى وصلت إلى أربع طرق رئيسية وهي: طريقة تدريس المجموعات, وطريقة التدريس الفردي, وطريقة الحلقة أو المجلس, وطريقة تعليم الصبيان. كان المعلم يستخدم طريقة أو أكثر في الدرس الواحد حسب ظروف الموضوع والمادة. مثلا, كان يبدأ المحاضرة بمخاطبة الطلاب كلهم كمجموعة ثم قد يصل إلى مرحلة تتطلب منه التعامل الفردي معهم وهكذا, والهدف دائما تحقيق الفهم السليم والكامل للموضوع. كانت الطريقة الفردية أكثر شيوعا في صدر الإسلام , أما تلك الجماعية فكانت أكثر ما تكون في خطب الجمعة ودروس الوعظ ورواية القصص والفقه والسنة المشرفة وفيها يخاطب الشيخ طلابه كما في المحاضرات العامة في زماننا وكانت تناسب الدروس المسائية. (التعليم في الجامع الأموي 135)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**. Mehdi Nako Steen “History of Islamic Origin of Western Education” P. 46 49**

**الإجازات العلميــــــــة**

لم يعرف نظام التعليم العربي الإسلامي رغم عمره المديد الشهادات العلمية التي نعرفها اليوم, واليوم كثيرون إن لم نقل معظم من يحملونها ليس عندهم شيئا مما تُخبر به. قد يعود السبب إلى جدية الجميع أولا, ثم إلى أن الميدان كان هو المحك, فمن يصمد أمام طلاب إشتُهر وظل يعمل وإلا تخلى الطلبة عنه وهو مصير كريه. فالطلبة كانوا يشكلون تحديا علميا حقيقيا لمن لا يملك العلم بل ولمن ينقصه ذلك. عليه لم يكن أحد يتصدى للعلم كمدرس أو باحث أو ما شابه إلا إذا كان متأكدا شخصيا بأنه أهلا لما يتصدى له. رغم ذلك فقد عرفوا بعض الإجازات التي قد يصدرها بعض العلماء ولم تكن شائعة. الطب وحده كان خاضعا ليس لإجازة رسمية مثل (البكالوريون ) اليوم ولكنه كان خاضعا للترخيص ولا يُسمح بالتصدي للطب إلا بعد الحصول على تلك الرخصة التي لا تُمنح إلا للطبيب أو كل من يود العمل في الحقل الصحي الذي يجتاز وبنجاح مؤكد إختبار أهلية من قبل جهة الترخيص. قد يفهم القارئ, مقارنة بالحاضر, أنه إختبار تخرج. نقول له أنه إختبار للترخيص لمن صار طبيبا أي تخرج, وهذا معمول به على نطاق واسع في العالم وخاصة في الدول الغربية وتلك المتقدمة.

نقول أن بعض العلماء كانوا يكتبون تصريحا لطلابهم والذي يمكن تسميته بالشهادة تجاوزا. أقْدم شهادة معروفة للمؤرخين هي تلك التي منحها الشيخ محمد بن عبد الله بن جعفر الحُميري عام 304 ه / 917 م لتلميذه أبي عامر سعيد بن عمرو والتي نصها على هذا النحو: (بسم الله الرحمن الرحيم. أطلقت لك أبا عامر سعيد بن عمرو أن تروي هذا الكتاب عني, عن أبي, عن بكر الأزدي وسعد بن مسلم ...) **50**

وهكذا لو صار لأبي عامر خريجا وكتب له شهادة لأضاف إسمه إلى هذه الأسماء. تنوعت مثل هذه الشهادات ولكني اكرر بأن إصدار الشهادات العلمية لم يكن شائعا ولا رسميا بل كانت تصرفات شخصية. حدد العلماء شهادات العصر الإسلامي تجاوزا على النحو التالي:

1. **المناولة** وهي أعلى شهادة مُنحت ونصها أي لفظها هو الذي يُحدد مستوى حاملها وهو ( خذ هذا الجزء فإنه من حديثي وأنا عالم بما فيه من العلم, فحدث به عني, واستنسخه وقابله, وحدث به عني).**51**
2. **مناولة أقل مرتبة:** ونصها يقول (إلى فلان بن فلان, أني قد أجزت لك ما سمعته من فلان " أو ما تضمنه الجزء الفلاني") **52** وهي شبيهة بالمناولة عند ثبوت الخط.

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**50. د. شلبي / تاريخ التربية الإسلامية / ص 263**

**51. نفس المرجـــــــــــع / ص 26**

**52. نفس المرجــــــــــع / ص 268**

1. **مناولة دنيا:** وهي تلك التي لا يشير لفظها إلى شيء محدد, ونصها يقول (أني قد أجزت لك ما صح عندك ويصح من حديثي) **53** وهي أقل مرتبة.

الطب هو العلم الوحيد الذي له علاقة مباشرة بحياة الإنسان, لذلك تعطيه البشرية كل العناية ما بالك بالمسلمين الذين أمرهم ربهم بتكريم الإنسان, فمنذ أن صار الطب يُدرس ضمن مناهج محددة في بداية القرن الهجري الأول أخضعه العرب للإختبار كي يُمنح من يجتازه بنجاح شهادة مكتوبة تحدد الأمراض التي يمكنه أن يتصدى لعلاجها. صار هذا الترخيص إلزاميا منذ أن وقعت حادثة عام 931 م توفي على أثرها المريض بسبب خطئ الطبيب فأمر الخليفة العباسي المقتدر بإخضاع كل الأطباء إلى إمتحان يجريه سنان بن ثابت بن قرة ويُوقف من يرفض ذلك عن العمل. بالفعل تم إمتحان 860 طبيبا في بغداد وما حولها فقط. طبعا إستُثني من ذلك كبار الأطباء ومن في مقامهم. وهم الذين أشرفوا على الاختبار. من أثبت أهليته ظل ومن فشل حرم من ممارسة الطب حتى يؤهل نفسه من جديدبعد ذلك لم يعد يُسمح لأي كان بالعمل في المجال الصحي إلا بعد نيله ترخيصا بذلك متى نجح في إختبار أهلية ولو كان حلاقا. هذا نص نموذجي لشهادات الترخيص للأطباء المسلمين:

"بسم الله الرحمن الرحيم. بإذن البارئ العظيم نسمح له بممارسة فن الجراحة لما يعلمه حق العلم, ويتقنه حق الإتقان حتى يبقى ناجحا وموفقا في عمله, وبناء على ذلك, فإن بإمكانه معالجة الجروحات حتى تشفى, وبفتح الشرايين, واستئصال البواسير, وقلع الأسنان, وتخييط الجروح, وتطهير الأطفال... وعليه أيضا أن يتشاور دوما مع رؤسائه ويأخذ بالنصح من معلميه الموثوق بهم وبخبرتهم." **54**

كان المجبرون يخضعون لامتحان يجريه لهم المحتسب ليتأكد من علمهم بأن عظام الآدمي تعد (248) عظما وأنهم يعرفون شكل وحجم ومواصفات كل عظم من تلك العظام, ويُثبتون قدرتهم على إعادة العظم المكسور أو المخلوع إلى مكانه الصحيح والطبيعي. عندها فقط يمنحهم ما يفيد إجتيازهم الامتحان بنجاح ويرخص لهم بالعمل. هكذا مع كل التخصصات الطبية ومع منتجي الأدوية وبائعيها مع رقابة شديدة ومتواصلة وعقاب قد يصل حد قفل المحل ومنع ممارسة المهنة لحين الترخيص مجددا والذي كما رأينا يعني الجلوس لإمتحان أهلية.

**المربــــــي المسلـــــم**

يقول الله تعالى في سورة المجادلة الآية 11 (**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم** **درجات)** صدق الله العظيم. أما الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم فله الكثير من الأحاديث التي أكد فيها أنه بُعث معلما. من يعرف حرص المسلمين على نيل رضا الله ورسوله والتشبه بنبيهم يُدرك لما أعطى المسلمون المعلم مكانة

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **أحمد شلبي / تاريخ التربية الإسلامية / ص 268-**
2. **- د. هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 238**

عظيمة ولما كان هو الآخر حريصا على نيل أكبر قدر من العلم والدراية بوظيفة المعلم ليبقى ناجحا وليكون أهلا للرفعة والإحترام والذي نالهما وأكثر وعن جدارة, ولا زلتُ أذكر كيف كنا لا نفرق بين المعلم والأب حتى لما صرنا رجالا ظللنا نقف أمام معلمنا, في أي مرحلة, وقوف الولد البار أمام والده. أما اليوم فيضيق صدري ولا ينطلق لساني. كان المعلم المسلم لا يقف عند نقطة التخرج بل كان يواصل الاستزادة من العلم حتى الممات, لذلك كان طلاب العلم نجباء وأمكن للعرب المسلمين بناء تلك الحضارة العظيمة. كان المعلم يعلم خطورة دوره في إعداد كل أفراد المجتمع كي يصبحوا عناصر بناء وليس معاول هدم, وكان واضعا نصب عينيه كل ما كتبه ونصحه به علماء التربية الإسلامية وينفذه بدقة متناهية.

لا نمل القول بأن علماء الإسلام كانوا موسوعات تمشي على الأرض. لذلك أعطوا وظيفة المعلم والتعليم عنايتهم الفائقة بحيث تجد نصائحهم وتوجيهاتهم وإرشاداتهم في كل كتاب تقريبا وإن خص البعض التعليم والمعلم برسائل وكان أول العرب والمسلمين من فعل ذلك هو ابن سحنون, وقد عُرف بهذا الإسم لشدة ذكائه بينما اسمه هو محمد بن عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي القيرواني. من نصائحه للمعلم:**55**

1. أن يعدل بين الصبيان واضعا نُصب عينيه دائها قوله صلى الله عليه وسلم: (أيما مؤدب ولى ثلاثة

صبية من هذه الأمة ولم يعلمهم بالسوية, فقيرهم مع غنيهم, وغنيهم مع فقيرهم, حُشر يوم القيامة مع الخائنين.) **56**

1. أن يُرشد التلاميذ لمحو اللوح بعد كتابة القرآن عليه بماء طاهر يتم ردمه في الأرض, ويمحونه بأيديهم وليس مثلا بأرجلهم تقديسا لكتاب الله.
2. ألا يستخدم الطلاب في أمور غير التعليم.
3. ألا يُكلف الصبي بضرب زميله نيابة عنه متى إستحق العقاب.
4. ألا ينشغل المعلم بشيء عن طلابه ولو كان للصلاة على جنازة أو السير فيها.
5. ألا يعلم القرآن الكريم لغير المسلم مثل الخادم أو الخادمة في المنزل وغيرهم.
6. أنه المسئول عن توفير المقر اللازم للتعليم وعلى حسابه الخاص فلا يُكلف الصبيان وآبائهم شيئا إلا في حالة واحدة إذا إستأجره أولياء الأمور لمدة عام, عندها يُصبحون هم الملزمون بتوفير المقر ودفع أجرته.

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**55. العنكبوتية (جهود علماء المسلمين ....ـ)**

**56. د. الفنيش / أصول التربية / ص 189 937**

أضاف علماء الإسلام الكثير إلى أقوال ابن سحنون. نذكر مثلا قول ابن سينا بضرورة وفائدة البدء بالتربية منذ نعومة أظافر الصبي, وأن يوجه المعلم الصبي للصنعة أو المهنة التي يرغب بها الطفل وبحرية كاملة,وأوصى بأن  (يكون التعليم جميعا في المدارس لا فرديا: لأن انفراد الصبي الواحد بالمؤدب أجلب لضجرهما، ولأن الصبي عن الصبي ألقن وهو منه آخذ وبه آنس، ولأن التعليم الجمعي من اسباب المباراة والمساجلة والمحاكاة.) **57**

مثل ابن سحنون ساهم كثيرون في هذا المجال نذكر منهم على سبيل التمثيل لا الحصر: القابسي, وابن حزم الأندلسي, والإمام الغزالي, وابن تيمية, وابن خلدون, وغيرهم كثير حتى لو كانوا مثلا أطباء مثل ابن سيناء. يقول ابن عبدون بأن صناعة التعليم (كالرياضة للمهر الصعب الذي يحتاج إلى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم),**58** ولابن خلدون الكثير في هذا المجال مثل قوله (... ومن أهم ما يلزم في المعلم فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة والعمل على تحصيل الملكة التي هي صناعة التعليم **59**  كان علماء التعليم والتربية يكرهون تعلم المرء بنفسه أي بدون معلم حتى وصفوا ذلك بأنه كالجلوس إلى الشيطان للتعلم منه, وما الذي يتعلمه المرء من إبليس غير الشر والفساد؟

حرص المعلم المسلم على تأديب نفسه مستحضرا دائما قوله تعالى في سورة البقرة الآية 44 (**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**) صدق الله العظيم. ويتمثلون أحاديث النبي حول دور المعلم وطلب العلم كما في قوله عليه السلام ( تعلموا العلم, فإن تعلمه لله حسنة, ودراسته تسبيح, والبحث عنه جهاد, وطلبه عبادة, وتعليمه صدقة, وبذله لأهله قربة, لأنه معالم الحلال والحرام, وبيان سبيل أهل الجنة) **60**. بل وحتى الأقوال الحكيمة مثل (فاقد الشيء لا يعطيه). كان معلم الصبيان يعامل الأطفال الصغار بحنان وعطف ورحمة كي لا يشعروا بفقدانهم لحضن الأم وحنان الأب, أهم عنصرين يغرسا في الطفل حب التعليم المدرسي والمثابرة على تحصيل العلم. كما كان يغرس فيهم حب العلم طلبا لرضا الله تعالى أولا وطمعا في ثوابه الموعود ثم ليكون المرء سعيدا في حياته. كان قدوة حسنة لهم فلا يظهر أمامهم إلا متواضعا كي لا يشبوا مترفعين ومتباهين بأنفسهم. أما غرس الأخلاق الكريمة والفضائل والسلوك السوي فذلك من أهم ما كان يُعنى به. لتوصيل المعلومة بشكل سهل ومحبب لهم كان يبدأ بالمسائل البسيطة, كثيرة الوقوع, كي يجدوا اليسر في استيعاب العلم, ثم يتدرج بهم إلى الأكثر تعقيدا بشكل لا يشعرون معه بصعوبة الفهم. كان لا يمل تكرار وعد الله للمجتهد بأجرين إن أصاب وأجر واحد ثابت ولو أخطأ كي لا يترددوا في المشاركة خشية الوقوع في الخطأ. كان يبني فيهم الشخصية المستقلة صاحبة الرأي الحر مذكرا إياهم بعدم ترحيبه بأن يكون تلميذه نسخة مكررة منه بل فرحه أكبر لو بزَه. أما العدالة والمساواة في تعامله معهم فحدث ولا حرج.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**57**. العنكبوتية / **الفكر التربوي وتنشئة الأولاد عند المسلمين الأوائل**

**58.** **د. فنيش / أصول التربية / ص 189**

**59.** نفســـــــــــــــــــــــــه / ص 18

**60. د. الشيباني / تطور التعليم العالي / ص 15**

يُقال أن المعلم العظيم يعطي مجتمعه طلابا عظماء فيحدثون تقدما عظيما, والعكس بالعكس. هذا هو معلم الصبيان كما رأينا. أليس أفضل من يضع الأساس المتين؟ أما المعلم المسلم لما بعد المرحلة التأسيسية فهم من نفس الطينة لأن معلم الجميع واحد وهو القرآن الكريم وسيد المرسلين عليه السلام القائل (من حدث الناس بحديث لا يفهمونه كان فتنة على بعضهم.)**61** فأول شيء يُضاف إلى ما سبق الحديث عنه هو التطبيق العملي لإستقلال شخصية الطالب. لذلك ترك أساتذة ما بعد الإبتدائي لطلابهم حرية إختيار حلقة الدرس التي يرغب بها وتوافق مؤهله مع إسداء النصح له وتوجيهه التوجيه الذي يساعده على معرفة الحلقة المناسبة له. هذا لأن الطالب بعد المرحلة الأولى كان يجد من شيوخه معاملة الرجال له كرجل صغير مهمتهم تتوجب منهم مساعدته على أن يُصبح رجلا كبيرا علما ومقاما, والأهم أخلاقا. كان المعلمون المسلمون عامة على هذه المستويات:

1. **المعلـــم:** اسم يُطلق في العادة على معلم الصبيان أي معلم المرحلة الإبتدائية. وكان التلاميذ يطلقون عليه لقب شيخ وقد إستمر ذلك حتى العصر الحديث. فقد شهدتُ زمن النظام الملكي التلاميذ يخاطبون المعلمين في المدارس الحديثة بهذا اللقب, وكان بعضهم يكره ذلك لعدم علمه أنه لقب كريم ورفيع ثم هو موروث عن الماضي المجيد.
2. **المــــؤدب:** وهو اسم على مسمى كون المعلم مؤدبا كذلك خاصة أنه كان يعلم طلاب المرحلة الإبتدائية وبداية المرحلة الثانوية إن صح التمثيل (مثل المرحلة الإعدادية في زماننا).
3. **المــــــدرس:** كان يُطلق في العادة على مساعد المعلم من التلاميذ النجباء في المرحلة الأولى كما سبق شرحه وكذلك على مساعد الأستاذ في المسجد والمدارس ذات نفس المستوى لمرحلة ما بعد الإبتدائي ومهمته هناك إعادة شرح جزء من المحاضرة الذي يظهر للشيخ أن الطلاب لم يستوعبوه كما يجب, فيوكل الأمر لمساعده لتحقيق الفهم الناجز وللدربة تحت إشرافه المباشر.
4. **الشيـــخ:** هو ذلك العالم الذي يمكن مقارنته بحامل درجة الماجستير في العصر الحديث سواء في العلوم الدينية أم الدنيوية فالكل شيخا والحقيقة أنهم كانوا يستحقون اللقب عن جدارة لما كان لدى الجميع من علم ديني أكيد إلى جاني العلوم الأخرى. لا زلنا نقرأ عند الحديث عن ابن سينا وصف الكتاب له بالشيخ الرئيس وهم يتحدثون عنه كطبيب.
5. **الإمــــــام:** هو دكتور زماننا وما كان يُعرف عصريا بأستاذ كرسي والخبير في مجاله وكان وقتها أعظم العلماء. لذلك أستغرب اليوم تحول الأئمة إلى حمل لقب "دكتور" الأجنبية بدلا من "إمام" وهم من بقي فيهم الأمل في إحياء الماضي الزاهر والبداية من هنا.

كان العرب عامة من محبي الترحال وقد زادهم الإسلام تحريضا على ذلك خاصة في سبيل طلب العلم فجعل للمسافر لهذا الغرض أجرا خاصا بالسفر إلى جانب أجر طلب العلم. كما يقول عليه السلام: ( غدوة

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**61. د. شلبي / تاريخ التربية الإسلاميــــــة / ص 259**

في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة) **62** لذلك كان المعلم لا يتردد في شد الرحال إلى حيث يعلم أنه سيحصل على المزيد من العلم أو الجديد منه وفي نفس الوقت كان حريصا على نقل ما عنده إلى حيث يذهب, حتى من يحج منهم كان يمضي وقتا طويلا في مراكز العلم التي على الطريق . هكذا كان الواحد منهم يجلس معلما ثم طالب علم ولا حرج عنده في ذلك بل هو الفخر كله. أما الهدف فكان عظيما بعظمة المعلم المسلم وهو حرص المعلم على إثراء ما يعلمه لطلابه راجيا فقط الأجر من الله. بذلك كان المعلمون وسائل لنشر العلم والمعرفة وفن التعليم إلى ربوع وطنهم الواسع الإنتشار. هذا يعني أن العرب عرفوا الأستاذ الزائر الذي كنا نظن أنه إختراع حديث.

كان للمعلمين مثل الأطباء وغيرهم نقابة ونقيب لا يُبرم حتى الخليفة أمرا له علاقة بالتعليم إلا بعد إذن وموافقة النقيب وبحرية كاملة. طلب العالم الخطيب البغدادي من الخليفة الإذن له بالجلوس للتعليم بمسجد المنصور, فاستمهله الخليفة ريثما يحصل له على إذن نقيب النقباء. لو لا شهرة ذلك العالم لما أذن له النقيب ولما غضب الخليفة لأنه كان يؤمن مثل أسلافه بسلامة إحترام أصحاب الحق وأهل الذكر.

**الحالة المادية للمعلميــــــن:** كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُعلم أصحابه بدون مقابل, وقلده أصحابه في ذلك لأنهم لم يحبوا شيئا أكثر من تقليد لنبيهم, فكرهوا أخذ الأجرة على وظيفة التعليم وظلوا طويلا لا يحملون طلابهم أي أجرة. رأينا أنهم كانوا يجوبون العالم لأجل العودة بالجديد والمزيد من العلم يقدمونه لطلابهم مجانا رغم ما تكبدوه من مصاريف. أما لمواجهة تكاليف الحياة ومتطلبات وظيفتهم, فقد كانوا يمارسون أعمالا أخرى متحملين مشقة توزيع جهودهم بين الوظيفتين وبنفس راضية. إستمر معلمو الصبيان, أي شيوخ الكتاتيب, لا يتقاضون أجرة ثابتة وكذلك الحال بالنسبة لشيوخ المساجد حتى بعد قيام نظام المدارس كما سنرى والتي رتبت مرتبات للمعلمين تتفق وعدد من يدرسون لهم في عقد كانوا يبرمونه مع صاحب المدرسة. أذكر هنا أن التعليم وغيره كان خاضعا للقطاع الخاص في العصر الإسلامي الزاهر.

يورد بعض المؤرخين أن المعلمين أخذوا الأجرة مقابل رسالتهم مبكرا ودليلهم تلك المجموعة من القصاصين الذين جندهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ليحدثوا الناس بعد صلاة الفجر وبين صلاتي المغرب والعشاء بما يدعم موقف معاوية في مقابل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. لا يحرم الإسلام الأجرة مقابل أي عمل ولكننا ننكر على أولئك المؤرخين إعتبار أولئك القصاصين من المعلمين وهم في الحقيقة مثل أجهزة الإعلام الرسمية في عصرنا وخاصة عند الدول المتخلفة. المهم, كان القصاص في مصر يتقاضى عشرة دنانير شهريا.

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **د. شلبي / تاريخ التربية الإسلامية / ص 279**

أما المعلمون الحقيقيون الذين كانوا يتقاضون معاشات منذ صدر الإسلام فهم المعلمين الغير مسلمين, إذ كان الرسول عليه السلام ثم صحابته فالخلفاء المسلمين من بعدهم لا يُكرهون أحد حتى المسلم على وظيفة ما تمشيا مع الأمر الإلهي بألا إكراه في الدين وبالتالي لا إكراه حتى في غير الدين. لما وصل المسلمون إلى التراث القديم واحتاجوا المترجمين كان لابد من ترتيب أجرة لهم ومع إنشاء المدارس صارت الأجرة مرتبة بدقة مع المعلمين في المدارس. لكن المسلمين هم الذين كرهوا اخذ الأجرة تيمنا بنبيهم والخلفاء الراشدين رغم علمهم بأن الشريعة لا تُحرم المرتب حتى لمن يُحفظ الصبيان القرآن الكريم لأن الإسلام دين يتعامل مع واقع الإنسان وحاجته إلى ما ينفق منه على عياله. لذلك لم يُنكر أهل الذكر على المدارس بعد قيامها ترتيب أجرة ثابتة تفاوضية لتعليم عدد متفق عليه من الطلاب. مثلا, كانت مدرسة صلاح الدين الأيوبي تدفع أربعين دينارا كمعاش نظير التدريس وعشرة دنانير أخرى مقابل رعاية المدرس لمصالح وأوقاف المدرسة والسهر على نظامها وتسيير أمورها, أي تولي إدارتها إلى جانب تدريسه لعدد الطلاب المتفق عليه, كل ذلك شهريا. كما كان ينال ستين رطلا من الخبز شهريا وراوية ماء يوميا. هكذا كان المعلم يُعطي بإخلاص فيُعطَى بدون بخل.

نعود إلى المؤرخين لنعلم أن معلم الصبيان كان أقل حظ من كل المعلمين لاعتقاده وكذلك الناس بعدم جواز أخذ مقابل تعليم كتاب الله, لذلك كان دخله يتراوح بين رغيفين من الخبز يوميا وعشرة دنانير سنويا كما كان في صقلية المسلمة. مرة أخرى قصر المؤرخون في إكمال الصورة. لو كان هذا كل ما كان يحصل عليه معلم الكتاب لاندثر الكتاب قبل جميع مؤسسات التعليم الإسلامية الأخرى وليس العكس. لقد اندثرت كلها إلا هو فلا يزال إلى يومنا هذا قائما ولا يزال المعلمون فيه لا يفرضون أجرة. يقول ابن سحنون وغيره في رسالته الشهيرة "آداب المعلمين", وله كتابات كثيرة أخرى بالخصوص, علاوة عما سبق لنا ذكره حول إستئجار أولياء الأمور للمقر متى إتفقوا معه لتعلم صبيانهم لمدة محددة, أن من حق المعلم أخذ أجرة من والد كل صبي وحسب إتفاقهما, وقد تكون مساناة أو مشاهرة وإن نصحه بألا يطلب الأجرة من الصبي, كما يجوز له أخذ هدية من الصبي عند ختمه القرآن الكريم, والختمة عند ابن سحنون قد تكون كل أو نصف أو ربع القرآن الكريم, وكذلك في الأعياد بشرط ألا يطلبها أو يحدد قيمتها أو ماهيتها. نعرف كذلك أن المسلمين وإلى يومنا هذا لم يعدموا طلاب الأجر من الله لذلك كانوا يدعمون شيخ الكتاب حتى لعله يجمع دخلا عظيما. كما لا يفوتنا الإقرار بأنه من المستحيل تحقيق المساواة في الأجور بين الموظف الصغير والمدير العام أو الوزير, أي بين معلم الصبيان وشيخ الجامع أي الجامعة, ولا حتى بين دخل شيخ يدرس فقط وآخر يصنف المصنفات ويضع الكتب. لنعود إلى السرد التاريخي حول دخل المعلم كما صنفه المؤرخون:

يلي معلم الصبيان المؤدب الذي قيل أنه كان يتمتع بحياة رغدة على الرغم من أنه كان يُعلم الصبيان بدون مقابل ولكن دوره كمدرس خصوصي مع إقبال المسلمين على طلب العلم جعل الإقبال عليه كبيرا وبذلك كانت الدروس الخصوصية تدر عليه ثروة طيبة وأحيانا عظيمة. فكان متوسط دخل المؤدب شهريا لا يقل عن الألف درهم وهو دخل كبير في ذلك الزمان. مثلا, كلف الخليفة هشام بن عبد الملك المعروف بشحه الكبير العالم الزُهري بتأديب ولده, أي تعليمه, فصرف له سبعة آلاف دينار, وهو مبلغ عظيم. مما يٌثبت أن المسلمين حتى لو كانوا من الأشحاء يُصبحون أسخياء متى تعلق الأمر بالعلم, لذلك شادوا ذلك المجد العظيم.

كان كبار الأساتذة والأئمة والباحثون والمترجمون يتمتعون برغد العيش بل والثراء كذلك رغم أنهم لم يقبلوا أجراء أرزاق عليهم مقابل التدريس في المساجد ولكنهم كانوا ينالون أعطيات سخية وكبيرة وأحيانا بلا حدود من الحكام والأثرياء نظير وضعهم لمصنفات علمية دائما دينية أم في علوم حياتية وقيامهم بدراسات وبحوث. كانوا يحصلون على الآلاف من الدنانير مقابل المصنف الواحد ليس ثمنا له بل هي في نظر المانح مجرد مساهمة متواضعة طلبا للأجر الرباني والنهوض العلمي الحضاري. مثلا, قدم العالم الجاحظ كتابه الشهير (الحيوان) إلى الخليفة محمد بن عبد الملك فنال عليه خمسة آلاف دينار, وهي ثروة عظيمة وقتها. كما كان لبعض الخلفاء سجلات خاصة بالعلماء, فمن يدون إسمه فيها ينال رزقا ثابتا شهريا مثل العالم الزجاج المتوفى عام 310 للهجرة الذي كان يقبض ثلاثمائة دينار شهريا فقط مقابل توقيعه في ذلك السجل. حتى الدروس الخصوصية للعامة كانت تدر على العالم خيرا عميما. كان الزَجَاج, قبل أن يُصبح عالما كبيرا, ولمشاغله يتلقى درسا خصوصيا في علم النحو على يد شيخ جليل مقابل دينار للدرس الواحد رغم أن الزجاج كان يحصل على أكثر من دينار بقليل من عمله اليومي.

**الطالب المسلـــــــم**

لا يمكن للمعلم أن يكون ناجحا في عمله في وجود طالب كسول يطلب العلم لوظيفة أم غير ذلك دون الإهتمام بالعلم ذاته كما نرى اليوم طلابنا في وطننا ليبيا يدرسون لأجل الحصول على الشهادة ولو بالغش فصار السواد الأعظم من الخريجين حتى من الجامعة مؤهلين على الورق جاهلين بما أهلوا له. أما الطالب المسلم فقد كان يطلب العلم لأجل العلم, لذلك كان يضحي بكل شيء ويتجشم كل الصعاب والمخاطر من أجل العلم ذاته واضعا نصب عينيه نصوص القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم مثل قوله (ليس مني إلا عالم ومتعلم) **63**  لا شك أن إزدهار التعليم أدى إلى قيام حضارة مفيدة ومزدهرة هي الأخرى, وهذا يُحدث رخاء في البلاد ويوفر المال بأيد الناس الذين, طلبا للأجر الرباني, كانوا يسلطونه على التعليم ورجاله من فقهاء ومتفقهة, أي طلبة, فيؤدى ذلك كله إلى إنتشار العلم والعلماء بين جميع فئات الشعب حتى الفقير صار يجد الطريق إلى المجد العلمي الذي يرفعه إلى مراتب محترمة.

عُرف الطالب المسلم ليس فقط بالجدية في طلب العلم بل بأخلاقه العالية. فلم يستغل تلك الحرية في الجلوس إلى أي حلقة شاء بل كان أحرص الناس على أن يجلس لتلك التي تتفق ومستواه, وكان يُجل أساتذته إجلاله لأبيه وأحب الناس إلى قلبه حتى كان الطالب المسلم يقول (من علمني حرفا صرت له عبدا) وهي عبودية ليتنا نفهم معناها فنتبناها. عرفنا أن الأستاذ كان قدوة حسنة لطلابه, فكما كان المعلم يرحل لأجل العلم

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **شوقي / الحضارة العربية الإسلامية / ص 252**

كان الطالب كذلك خاصة إذا لم يجد ما يُقنعه في مسألة ما في بلده. يُروى أن طالبا لم يتحقق تماما من موضوع كتاب كان يدرسه, فما كان منه إلا أن وضع الكتاب في مخلاة ولفقره شد الرحال راجلا. ظل يسير لمسافات طويلة جدا متنقلا بين البلدان بحثا عن ضالته حتى تبلل الكتاب من كثرة عرقه ولكنه لم يعد إلى وطنه إلا بعد أن وجد الإجابة الشافية التي كان يطلبها بل واستزاد من العلم. طالب آخر يُدعى سهل بن عبد الله التستري لم يجد في مدينته الجواب الشافي لمسألة عرضت له وهو في الخامسة عشرة من العمر فنُصح بالسفر إلى البصرة حيث لم يجد الجواب ولكنه نُصح هناك بعبدان في بلاد فارس, فواصل سفره وأكرمه الله بأن وجد الجواب المطلوب في عبدان لذلك قرر البقاء ردحا من الزمن لتوسيع معلوماته باغتراف ما وسعه الإغتراف من النبع الذي عثر عليه. بعد سنوات من طلب العلم في الغربة عاد إلى وطنه وقد حاز شرف مرتبة العالم الجليل. مثل هذه القصص يعج بها تاريخ الطالب المسلم.

نختم هذا الحديث الشيق لأخذ العبرة ولنقلد من ينفعنا بالعودة إلى حديث ابن سينا عن نفسه كطالب علم. يقول: "كنتُ أرجع بالليل إلى داري, وأضع السراج بين يدي, وأشتغل بالقراءة والكتابة, ومهما أخذني أدنى نوم

أحلم بتلك المسائل التي كنتُ أقرؤها بأعيانها حتى أن كثيرا من المسائل إتضح لي وجوهها في المنام." **64** هكذا كان كل طلاب العلم, يُمضون نهارهم كله في السعي وراء العلم ثم لا ينامون إلا ليحلموا بالعلم فيفتح الله عليهم حتى في منامهم. أين طلابنا الذين إذا إنتصف النهار بردت همتهم إن كانت موجودة أساسا, وإذا إنقطع التيار الكهربائي لا يدرسون في منازلهم من أولئك؟ إذا لا غرابة أنهم كانوا سادة الحضارة في عالمهم ونحن رمز التخلف في عالمنا.

**تعليــــم المــــــرأة**

لولا ما نسمعه وبدون توقف من إتهامات للرجل العربي بظلمه لأنثاه وهو برئ براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام, لما خصصنا المرأة بأي حديث لأننا نعرف جيدا ومنذ أكثر من أربعة عشر قرنا أن الإسلام لم يفرق يوما بين الرجل والمرأة ولا بين الأبيض والأسود والأصفر ولا بين جنس وآخر, عليه يكون حديثنا شاملا لها ولو لم نذكرها تحديدا. رأينا الحالة المزرية التي كانت تعيشها المرأة في العالم القديم وعرفنا كم كانت المرأة العربية قبل الإسلام مكرمة معززة مهما ضخم المضخمون وتحامل المتحاملون. جاء الإسلام لينقي حياة المرأة, والرجل كذلك, من الغث كله ويرفعها إلى مكانة مساوية للرجل وهي مساواة تتفق وطبيعة تكوين وخلقة كل جنس والدور الذي يتسنى لكلاهما القيام به على وجهه الصحيح لضمان حياة سعيدة للبشرية, وهي ليست تسوية الزور والكذب والدجل التي تطالب بها بعض نساء المسلمين في عصرنا الحالي وهي لا تزيد عن طلب الإباحية والفساد. وضع الإسلام المرأة في مكانها الصحيح وحرضها على القيام برسالتها كاملة وألا تمسخ نفسها فتُقحمها فيما لا يفيدها بشيء.

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**64. "ابن سيناء يتحدث عن نفسه "/ مجلة العربي الكويتية / نوفمبر 1986 / ص 44**

سبق لنا الإشارة إلى مكانة المرأة لدى عرب الجاهلية وبالتحديد إلى التعليم الذي لم يكن العرب في حاجة له إلا لماما ولقضاء مصلحة. رغم هذا فقد كان في قريش وحدها خمس نساء كن يعرفن القراءة والكتابة, المهارتين اللتين لم يكن الرجال يطلبنهما إلا نادرا. تلك النسوة هن: "حفصة بنت عمر, وأم كلثوم بنت عُتبة, وعائشة بنت سعد, وكريمة بنت المقداد, والشفاء بنت عبد الله العدوية وهذه كانت تُعلم حفصة بنت عمر لما تزوجها عليه السلام فطلب منها إستكمال رسالتها." **65** شعب لم يحرم أنثاه في الجاهلية أيعقل أن يُتهم بحرمانها في الإسلام الذي جعل التعليم فريضة على كل مسلم ومسلمة؟

أكد الإسلام على الدور الهام والعظيم الذي خلق الله من أجله المرأة. يقول عليه السلام (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) فقد أكد على طلب المرأة للعلم رغم علمه بأن التذكير وحده يشملها. بتربيتها لأولادها تكون قد ربت كل المجتمع, وبطاعتها لزوجها تكون قد ساهمت في نجاح مؤسسة الأسرة, مثلما يكون موظفو إدارة مطيعين لرئيسهم فتنجح الإدارة وبالتالي ينجح المصنع التابع لها وهكذا. محاولة إقحام المرأة في المجالات التي يكون الرجل فيها أقدر يجعلها تفشل ويفشل الرجل معها. هذه شهادة من نقلدهم فيما يُفسد حال المرأة ولا يُصلحه. أجرت مجلة (نيوز ويك (Newsweek الأمريكية الأسبوعية الشهيرة عالميا دراسة حول أسباب تدني درجات المشتركين في امتحانات القبول بالجامعات الأمريكية ((Why SAT Scores Decline تقول المجلة"

"هذه الإختبارات تُجريها بعض الكليات لمعرفة المستوى العلمي للمتقدمين لها, ولكن لُوحظ تدني درجات المتقدمين خلال السنوات الأربعة عشر الماضية وذلك لعدة أسباب ومنها: الأجهزة المرئية, والتساهل في المعايير الأكاديمية, تزايد أعداد النساء والسود المشتركين في هذه الإختبارات... وتدني درجات النساء في مادة الرياضيات(women scores in mathematics are lower) مما أثر في النتيجة النهائية لتلك الإمتحانات" **66** (نيوز ويك ص 82) ها هو العلم يقول كلمته لأنه لا يعرف المجاملة أو الكذب فقد تقصت المجلة الأسباب وتوصلت إلى معرفة عدة أسباب من بينها تزايد عدد المشتركات الإناث وحصولهن على درجات متدنية أقل من زملائهن الذكور في مادة الرياضيات مما يؤكد أن الرياضيات من العلوم التي لا تتفوق فيها المرأة على الرجل وهذا لا يعني إنعدام النابغات فيها ولكن الحكم يُطلق على الغالب, كما أن فشل البنت في مادة معينة لا يعني أنها فاشلة في التعليم ولا يعيبها بشيء, فالولد هو الآخر قد يفشل في مادة تكثر الناجحات فيها.

من يستطيع أن يقول أن المرأة في الكون كله وإلى اليوم وحتما إلى يوم الدين قد تكون جندي يحمي الحدود والشعوب ويهزم الأعداء؟ نعم لها دورها في الحروب ولكنه ليس القتال بل ولا يتوقع منها التواجد في جبهات صحراوية. أما إن وُجدت مقاتلة هنا أم هناك فلا يعني أن كل النساء قادرات إلا إذا قلنا بما أنه أفضل

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **د. أحمد الشلبي / تاريخ التربية الإسلامية / ص 332**

**– Newsweek / EDUCATION / 15/8/1977/ P. 8266**

الطباخين في العالم من الرجال لذلك فكل الرجال طباخين ممتازين والواقع أن هذا المجال أنثوي بامتياز. نفس الكلام يسري على قيادة الآلات الثقيلة وأعمال البناء وكل عمل شاق ومجهد, فهل من العدل أن نساوي المرأة بالرجل في مثل هذه المجالات؟ لذلك كان الإسلام عارفا بكل هذه الحقائق لأنه مُنزل ممن خلق الذكر والأنثى. تبقى مجالات كثيرة يتساوى فيها الجنسين مثل البيعة بالإسلام وأداء العبادات التي راعى فيها ظروف المرأة فخصها برخص لا تجوز للرجل أبدا, وهما متساويان في الثواب والعقاب وفي الميراث, وفي مجالات أخرى.

طلب العلم هو الآخر مما ساوى الإسلام فيه المرأة مع الرجل مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وما ذكره للمسلمة إلا زيادة في التأكيد إذ الأنثى مشمولة لو قال فقط كل مسلم. من الظلم حقا للمرأة إذا ما أقحمت في تخصصات لا تتفق واستعداداتها فيكون حالها حال الولد الذي يتقن العلوم الإنسانية فيُنسب كرها إلى علوم تطبيقية, فهل نتوقع منه إلا الفشل الذريع؟ ثبت تاريخيا أن النساءالعربيات كن موجودات في كل العلوم ولكنهن أكثر وجود وبشكل كبير في العلوم الإنسانية الأدبية والدينية. لم يضع العرب زمن تحضرهم موانع أو سدود أمام تعلم المرأة لذلك وجدنا راويات للحديث الشريف وهي مرتبة علمية مقدسة وعالية تحتاج لتأهيل عالي, وقد كن أكثر أمانة من بعض الرواة من الرجال. ترجم ابن حجر حياة (1543) محدثة فلم يجد واحدة بينهن عديمة الثقة فيما روت, فكلهن ثقات وعالمات. في المقابل أكد الحافظ الذهبي وجود كثير من المحدثين الغير ثقاة من الرجال قدرهم بأربعة آلاف رجل ونفى أنه وجد إمرأة واحدة متهمة في صحة ما روت. كما برزت المرأة في العلوم الدينية خاصة, فنذكر نفيسة بنت الحسين والشيخة شهدة الملقبة ب(فخر النساء) دليل غزارة علمها وزينب بنت إبراهيم الشعري والقائمة تطول وفي كل العلوم المناسبة أكثر للنساء ورغم ذلك فلم تخلو الساحة من الطبيبات والصيدلانيات وإلى آخره.

للنساء دورهن في الحروب دون القتال والنزال وهو دور مكمل ومهم جدا وضروري للمقاتلين. تقول الكاتبة الغربية (موغانام Muganna ) " أن النساء المسلمات قمن في الحروب الإسلامية بالدور الذي تقوم به في الوقت الحاضر منظمات الصليب الأحمر" **67**  كما اشتُهرت بعض النساء كطبيبات وسبق لنا ذكر من عشن في العصر وصار وجودهن أكبر في ظل الإسلام. نذكر مثلا, زينب طبيبة بني أود لعارفة بعلاج ومداواة أمراض العين والجراحات؛ وأم الحسن بنت القاضي ابن جعفر الطنجالي

كانت إلى جانب علمها في الطب عالمة بعدة علوم أخرى, وأخت الحفيد بن زُهر وابنتها كانتا طبيبتا أمراض النساء. أما زُبيدة أم جعفر وبنت المنصور التي عاشت في عهد الرشيد كمرشدة إجتماعية كبيرة فبنت دور السبيل في مكة المكرمة, واتخذت لها المصانع بها وقامت بأعمال جليلة أخرى؛ ولُبانة في قرطبة كانت سكرتيرة الخليفة الحاكم. **68** "وكان للمرأة دور في التدريس في حلقات المساجد, وسجلت كتب التاريخ أسماء

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **د. شلبي / تاريخ التربية الإسلامية / 347**
2. **نفـــس المرجـــع / ص 347 و350**

عشرات النساء المحدِثات ومنهن: أم الدرداء الصُغرى (هُجيمة بنت حُيي الأوصابية الدمشقية) التي روت عن أبي الدرداء, وسلمان الفارسي,وفُضالة بن عُبيدة, وأبي هُريرة, وكعب بن عاصم, وعائشة, وآخرين كثير, وكان عبد الملك بن مروان كثيرا ما يجلس إليها بمسجد دمشق. ومنهن زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم المقدسية (ت. 740 ه) التي كانت تُدرس صحيح مسلم وسمع عنها الرحالة ابن بطوطة في جامع بني أمية بدمشق." **69** هذه هي المرأة المسلمة, حالها أعظم بكثير من أختها في هذا العصر لأنها آمنت بدينها قولا وفعلا فوجدت شقيقها الرجل يجلس لها طالب علم ولو كان خليفة المستقبل ولا يجد في ذلك حرجا. أما اليوم فالكل مظلوم رجل أم إمرأة لذلك أقول دائما أن على المسلمين اليوم المناداة بحقوق الإنسان المسلم وليس المرأة فقط.

**مؤسسات التعليـــم العربــــي**

يقول الحق في سورة النور الآية 36 (في بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها إسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال) صدق الله العظيم. تلك البيوت في الإسلام ليست المساجد فقط بل كل دور العلم إلى جانب المنازل لأن الجميع كانوا يسبحون الله سواء وهم يتعلمون علوم الدين أم علوم الدنيا, وحيثما وُجدوا. كان المسجد أول دار للعبادة في الإسلام وكذلك أول مدرسة لكل التعليم بدءا بمحو الأمية الكتابية, لأن العرب كانوا يتداولون العربية الفصحى بلا عوج. لتسريع محمو تلك الأمية أقام عليه السلام (الصفة) التي كانت ملاصقة لمسجده وكانت خاصة بتعليم الصبيان, ونراها نواة للكُتاب المعروف بأنه مدرسة الإسلام الإبتدائية الأولى, والصفة, في رأينا, هي تطوير لمدرسة الرسول عليه السلام في مكة في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي كانت بحق أول مدرسة لكل مسلم في الإسلام وإن كانت قد توقفت عن أداء رسالتها بعد الهجرة إلى المدينة. لكن المسجد ظل المؤسسة التعليمية الأولى في أنحاء دولة الإسلام, ومع توسع بلاد الإسلام إزداد الطلب على العلم باضطراد لذلك عاد المسلمون إلى الصفَة بتطويرها إلى ما عُرف وإلى اليوم بالكُتاب, كمدرسة إبتدائية. كان الإقبال على التعليم يتعاظم ربما يوميا حتى لم تعد المساجد, التي تخصصت في مرحلة مع الإبتدائي, قادرة على إستيعاب كل طلاب العلم فخرج العقل العربي بفكرة المدرسة. والآن لنتعرف على كل مؤسسة تعليم إسلامية مع التأكيد على أن المسلمين كانوا يتعلمون في كل مكان مثل المنزل والمكتبات وحتى السوق.

**مؤسسة التعليم الأولي :** لاشك أن دار الأرقم بن أبي الأرقم في أصل الصفا قرب مكة المكرمة كانت المدرسة الأولى في الإسلام وإن كانت الظروف القاسية جعلتها مقتصرة على الرجال إبعادا للمرأة عن مناطق الخطر, إذ كان المسلمون مُطاردون ومُعذبون ومَقتولون, ولهن في رجالهن خير من كان يعلمهن ما كانوا يتعلمون من المعلم الوحيد وقتها وهو محمد رسول الله ونبيه عليه الصلاة والسلام. تميزت مدرسة الأرقم بأنها كانت مؤسسة دينية المنهج وللكبار تعلمهم مبادئ الدين. ظلت المدرسة الوحيدة لثلاثة عشرة عاما حتى إكتملت هجرة المسلمين إلى المدينة حيث وجدوا الأمن والأمان فصار في إمكانهم إقامة مؤسسة تعليم مقصود وهادف فكانت البداية

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **شوقي أبو خليل / الحضارة العربية الإسلامية / 260**

بمسجد الرسول عليه السلام في المدينة ثم كانت الصفة كما أسلفنا والتي أصر على أنها كانت نواة الكتاب الذي صار مؤسسة التعليم الإسلامية الخاصة بالمبتدئين وتحديدا بالصبيان. كانت (الصفَة) فرصة للأطفال لينعموا بحرية أكبر وليُخلص المسلمون المسجد من عبثهم وعدم تحفظهم كصغار من إحداث أوساخ في المسجد والتشويش على المصلين.

**الكُتَــــــــاب :** يُقال أن الكتاب وُلد وترسخ في عهد الخليفتين الراشدين أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما ثم تطور وانتشر حتى وُجد في كل ركن من أركان الأرض الإسلامية المباركة ولا يزال حيا يُرزق إلى يومنا هذا, كما أثبت أنه لا يزال قادرا على تفريخ مستويات أفضل من نظيراتها في المدارس الإبتدائية الحديثة. بدأ الكتاب في شكل غرفة واحدة عادة ما يستأجرها الشيخ القائم على تدريس كل الأطفال المنتمين إليه ثم صار غرفتين وهكذا حتى صار منزلا كاملا متعدد الغرف كما سبق لنا شرحه.

**مؤسسات التعليم فوق الإبتدائي:** كان المسجد أول مؤسسة تعليم منظم وهادف ومقصود وآمن متمثلا في مسجده صلى الله عليه وسلم في المدينة وكان لكل التعليم ويقدم كل المستويات العلمية حتى عهد الخلفاء الراشدين كما أسلفنا حين صار الكُتاب مؤسسة التعليم الإبتدائي وخلص المسجد لحلقات الدرس للتعليم الثانوي والجامعي. مع مرور الزمن ومعرفة العرب لعلوم لم يكونوا يعرفونها من قبل ومنها ما يحتاج لحوار طويل وجدال كبير فصارت بعض الحلقات مصدر تشويش ليس على المصلين فقط بل وحتى على بعضها البعض. أما في وقت الصلاة الجامعة فكانت الدراسة تُرفع إلى ما بعد الصلاة مما يعني قطع المحاضرة أو الدرس. لذلك فكر العرب في حل ما, فاهتدوا إليه بفضل عقولهم المنتجة فكان نظام المدارس. وسبق لنا الحديث عن المسجد التعليمي.

دائما للطب خصوصيته بين كل العلوم تقريبا وفي كل العصور. فقد بدأ تعليمه في المساجد مبكرا لأهميته, فيتعلمون الجانب النظري فيه ولكن التطبيق العملي الأكثر من ضروري كان يتم في الأماكن الصحية خاصة أن العرب بدؤوا كذلك مبكرا إقامة المستشفيات على النمط الذي وجدوه عند الأمم التي سيطروا عليها بالفتوحات المباركة على كل البشرية وخاصة النمط الفارسي في جنديشابور والتي سرعان ما صارت كليات طب تقدم دراسات طبية عليا. كان منظر طلاب الطب وهم يسيرون وراء معلمهم مألوفا لدى المرضى, فكان الأستاذ يشخص المرض على مسمع الطلاب ويجيب على ما كانوا يثيرون من أسئلة, وبتقدمهم علميا كان يُكلفهم هم بالتشخيص في حضوره وإشرافه الدقيق والمباشر.

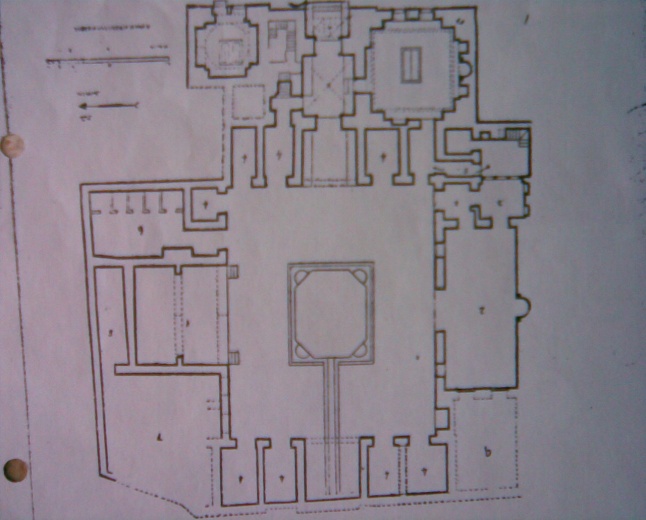
**المدرســـــــــة:** لم تكن المدرسة مختلفة عن المسجد من حيث المستوى التعليمي والمواد التي تُدرس فيها وطرق التدريس ومجانية التعليم ودعم فقراء الطلاب عن المسجد, إلا أن مبناها تميز عن المسجد بفصل قاعات الدراسة (الإيوان) عن بيت الصلاة, فصار في إمكان الشيخ إستيفاء درسه ثم تولي إمامة طلابه في الصلاة التي يكون موعدها قد حان أثناء المحاضرة. للمدرسة كذلك بيوتا للأساتذة وأخرى للطلاب. كما تميزت المدرسة بنظام التعاقد مع الأساتذة والفقهاء لتدريس عدد محدد من الطلاب مقابل مرتب شهري سبق لنا الحديث عنه عند حديثنا عن دخول المعلمين المسلمين. للمدرسة كذلك مكتبة ومستشفى به طبيب مقيم وحمامات. كان المرتب

**المسجد منارة علم وعبادة, هل تعود؟ 70**

**[](http://www.hayah.cc/forum/t13184.html)**

وعدد الطلاب تفاوضي لذلك لم يكن الراتب واحد للجميع ولا عدد من يعلمون. مثلا, كان الأستاذ في المدرسة المستنصرية في بغداد ينال راتبا ليعلم 57 طالبا وكانت تُصرف لكل طالب دينارا من الذهب إلى جانب اللحم والخبز يوميا. (أسماء 34-35) من الثابت تاريخيا أن كل شيخ في المدرسة كان يُعلم ما لا يقل عن العشرين طالبا ولا يزيد تحت أي ظرف على السبعين. ( ت ت إ 305) بلا شك أن العدد تحكمه عدة إعتبارات خاصة المادة التي يدرسها الشيخ, لذلك صار النص على العدد في العقد المبرم مع صاحب المدرسة.

**مخططة المدرسة النورية الكبرى في دمشق كما في عام 1959 م 71**

****

**وجعلوا الأرض مدرسة:** تعلم المسلمون أن الأرض جُعلت لهم مسجدا, والمسجد دار علم ونور, لذلك جعلوا الأرض كذلك مدرسة فكانوا يستغلون كل مكان أو مناسبة للتعليم. الخوانك والزوايا والربط كانت تشبه الأديار

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **العنكبوتية / مساجد إسلامية**
2. **ترجمة أحمد الشلبي / تاريخ التربية الإسلامية / ص 125**

والصوامع التي كانت تُقام للمتصوفة, رجالا ونساء, الراغبين في الإنقطاع للعبادة والدرس. كل هذه صار لها دور تعليمي وساعدت على نشر الثقافة والعلم, بل وأغرى السلوك القويم للقائمين عليها من إحتكوا بهم من غير المسلمين فاعتنقوا الإسلام لما وجدوه عندهم من كريم الخلق وكرم اليد والسلوك السوي. حتى البادية وخاصة في القرون الأولى صارت مدرسة بعد أن دخل اللحن على اللسان العربي بين الذين عُرفوا بالمولدين أي أبناء عرب متزوجين من عجم أو العكس, وهذا اللحن واضح في المناطق الحضرية لعدم تحمل الناس حياة البادية القاسية وبذلك ظل البدو يتحدثون لغة عربية فصيحة غير ذي عوج. عرفنا أن للعرب المسلمين شغف بالعلم ما بالك إذا تعلق الأمر بلسانهم الذي يعتزون به أيما إعتزاز. لذلك صاروا يرسلون أولادهم فيما يشبه البعثات التعليمية اليوم إلى البادية ليبقوا لمدة تكفي لضبط لسانهم متحملين قسوة الحياة هناك. لم يكن هذا سلوك العامة بل حتى الخلفاء كانوا أكثر حرصا على ذلك ولم يجدوا حرجا في ترك أولادهم لنعيم القصور إلى حياة الخيام وقسوة الصحراء طالما كان الهدف في سمو إتقان اللغة العربية.

روايات كثيرة تتضمنها كتب التاريخ عن سلامة لسان البدوي. إختلف العالمان الكبيران اللغويان الكسائي وسيبويه المتوفى عام 180 للهجرة = 796 م حول النطق الصحيح لكلمة ما, فاحتكما إلى أعرابي وقيل أن الكسائي أغراه بالمال ليقول قوله ولكن الأعرابي اللغوي بالسليقة نطق النطق الصحيح وهو لصالح سيبويه رغم أنه أراد مجاراة الكسائي لكسب المال إلا أن لسانه القويم لم يطاوعه وخذله لصالح الحق. لسلامة اللسان البدوي صارت البادية مدرسة يؤمها كل طالب إتقان في اللغة العربية بل ونزل بعض البدو إلى المدن ليُصبحوا معلمين مرحبا بهم وبحرارة ويجلس لهم الناس المتحضرين جلوس التلاميذ للأستاذ. مثال أولئك المعلمون البدو, أبو البيداء الرياحي, وأبو جاموس ثور بن يزيد الذي كان معلم عبد الله بن المقفع الفصاحة, وأبو العيثل عبد الله تخليد وعبد الله بن عمرو بن أبي صبح. هكذا ظلت البادية مدرسة والبدو مدرسون متخصصون في اللغة العربية طوال القرنين الهجريين الأولين.

إشتُهرت عدة مدن إسلامية كمراكز علمية عالمية فكانت قبلة الناس من طلاب العلم من أنحاء عالم ذلك الزمان وذلك إقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ومسجده في المدينة. " لقد كان مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم مركزا للحياة الفكرية والإجتماعية والإدارية, وظهر فيه التخصص, فاشتُهر علي رضي الله عنه بالقضاء, ومُعاذ بن جبل بالفقه والأحكام, وأُبي بن كعب وابن العباس بالقراءات والتفسير. " **72** هكذا برزت المدينة المنورة كمدرسة عليا لعلم الفقه خاصة في زمن الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب السني المالكي. كانت حلقة درسه تستقبل وافدين جدد كل يوم منهم طلاب ومنهم علماء أرادوا إثراء محصلتهم من العلم.إشتُهرت البصرة كمركز ديني ولغوي وفلسفي. أما دمشق فقد ذاع صيتها كمدرسة للتاريخ وغيرها كثير. أما بغداد, عاصمة الخلافة العباسية, فقد كانت دار للدراسات العليا في كل العلوم تستقبل طلاب العلم من أنحاء عالم الإسلام.

---

**داخــل مؤسسات التعليم الإسلاميـــة**

**نظــــام القبــــول**

لم يعرف التعليم الإسلامي تحديدا للسن سواء لبدء التعليم المنظم أو لمواصلة التعليم فيما بعد المرحلة الأولى ولا عرف تحديدا لنهاية ذلك لأن المسلمين كانوا راسخو العقيدة بأن طلب العلم من المهد وإلى اللحد كما قال لهم رسولهم صلى الله عليه وسلم. رأينا أنهم كذلك لم ينظموا منح شهادات علمية تتيح الفرصة لالتحاق الطالب بمرحلة أو مستوى ما وحتى الطب لم تكن له شهادات علمية وإنما رخصا لمزاولة المهنة. طبعا هذا الوضع لا يتوفر في عصرنا, ولا يناسبه بعد أن عُرف نظام الشهادات الرسمية ولكن الدول المتقدمة لا زالت تتبع شيئا من ذلك النظام الإسلامي من حيث تعريض المتقدم للوظيفة لاختبار حقيقي لمعرفة مستواه الحقيقي.

كانت الأسرة العربية متعلمة ومدركة لرسالتها نحو أولادها حتى لم يفكر المسلمون في رياض لأطفالهم لأنها ما كانت لتحقق شيئا أفضل مما كانت تحققه الأم في البيت. كما لم يكن الأبوان يؤخران ولدهما عن بدء التعليم المدرسي عن سن السبعة سنوات ولا كانا يبكران به عن الخامسة وهو ما أكده علماء التربية اليوم بأنه الأصح متى روعيت الفروق الفردية لدى الأطفال. قد يقول القائل لعل البعض يُرسل ولده قبل الخامسة. هذا صحيح فشواذ الناس موجودون في كل زمان ولكن شيخ الكتاب ما كان ليقبل به إلا إذا كان نابغة زمانه, وكلمة الشيخ كانت الفيصل وكانت عند الكبار قبل الصغار لا تُرد ولا تُعاند. بالنسبة لمرحلة ما بعد المرحلة الأساسية التأسيسية فقد أشرنا إلى أنها كانت مرحلة حرية الطالب في الإختيار والتعامل معه كرجل صغير مع النصح والتوجيه, بلا شك, ويبقى القرار النهائي له ولم يثبت أنه لم يكن أهلا لذلك.

لما تمتع به نظام التعليم العربي الإسلامي من مرونة فلم يكن في حاجة لإجراء إختبارات قبول لأي مرحلة ما بالك بتلك الأولى حيث كان المعلم من الأهلية أنه كان وهو يدرس للجميع يتعامل مع كل حسب وضعه الخاص به علميا بل وحتى عاطفيا ونفسيا. مثلا, إن عرف أن الطفل كان مدللا بين أسرته إتبع معه أسلوبا يساعده على الخروج من ذلك الوضع ليصبح أكثر إعتمادا على نفسه وأكثر صبرا على ما يحب أو يكره, وإذا لاحظ أنه عدواني ومتسلط راضه كما يروض سائس الخيول الفرس الشموس, وهكذا كان الشيخ يُدرس لهم جماعيا ويتعامل معهم فرديا لذلك نادرا ما نسمع أن تلميذا في الكُتاب قد رسب وطُرد منه حتى في العصر الحديث. نسمع اليوم عن عدم توفر مقعد لكل طفل بلغ سن التعليم وهو ما لم يعرفه التعليم الإسلامي لحرص المسلمين على تعليم الجميع بتذليل كل الصعاب وإيجاد الحلول لما قد يعترضهم منها. ما عرفنا تاريخيا أن الكتاب رد أطفالا طرقوا بابه لأن المعلم كان قادرا على حل مشكلة ضخامة العدد بما سبق لنا ذكره من إتخاذ النجباء بين التلاميذ كمساعدين له يمارسون التدريس وهم أطفال تحت المتابعة الدقيقة والمباشرة من قبل الشيخ.

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **شوقي أبو خليل / الحضارة العربية الإسلامية / ص 261**

نفس الأمر كان يحدث مع طلاب المرحلة التالية عن الإبتدائية, فالحلقات لم تطرد أحدا. يحدثنا المؤرخون عن بعض العلماء الذين كانوا يعرضون الوافدين الجدد على حلقاتهم لإختبار قبول ولكن ليس بمعنى القبول أو الرفض وإنما ليتعرف الشيخ على مستوى الطلاب فيتعامل مع الوافدين كل حسب مستواه ليصبح الجميع ناجحين. هذا هو هدف الصحابي الجليل أبو الدرداء الذي كان يمارس مثل ذلك الإختبار للتعرف على مستوى الوافدين الجدد وعلى النجباء من بين القادمين الجدد ليتخذ منهم مساعدين له وهي فرصة ذهبية كان الطالب يراها هبة من الله له فيحرص على القيام بحقها كاملا. قيل أنه كان يقسم طلابه على مجموعات صغيرة, حجم الواحدة عشرة طلاب يُنصب عليهم أحد أولئك المساعدين ويتفرغ هو للمتابعة المباشرة وفورية تصحيح ما قد يبدر من المساعد من أخطاء.

**الدراســـــــــة**

الإسلام دين علم وإيمان, لذلك فحق التعليم للجميع ذكورا وإناثا أحرارا وعبيدا عربا وعجما. عليه كان الكُتاب يستقبل الأطفال ذكورا وإناثا بدون فصل طالما كانوا في سن البراءة حتى يبلغوا سن الرشد وهي الثالثة عشرة للبنت والخامسة عشرة للولد عندها لا يسمح الدين بالإختلاط لشدة حرص الإسلام على طهارة المجتمع وصحة النسب. كان المعلم يعامل الجميع كأب حنون وعلى قدم المساواة فلا أحد عنده أثير أو حقير ويصبح حازما عندما يكون الحزم بناء وليس هداما. كان يركز على الجانب العلمي تركيزه على الجانب التربوي. فقد كان حريصا على غرس الخلق الكريم في الجميع بالقدوة الحسنة والسلوك السليم والسوي. أما الفروق الفردية فكانت تلقى عنده العناية القصوى سواء ما تعلق منها بقدرات كل تلميذ على التحصيل أو بجنس التلميذ, ذكرا أم أنثى. لذلك لم يعرف التعليم الإسلامي إمتحانات نهاية العام بل عرف إمتحان تخرج كل طالب وحتى لو جلس الجميع لامتحان عام فالنتيجة لم تكن تعني رسوب أو نجاح بل تركيز المعلم على من لم يوفق ليصبح ناجحا حسب إمكانياته واستعداداتهم من كل الجوانب. كما يعرف الطالب أوجه القصور عنده فيعالجها ليُصبح ناجحا.

كل ما تقدم صحيح ولكن المرحلة الأولى المختلطة فرضت نهاية لها والتي كانت تتم بأحد محكين: إما بلوغ الأطفال سن الحلم فتكون تلك بداية الفصل بين الجنسين وليس التخرج إلا لمن حقق الشرط الثاني وهو حفظه لكتاب الله كاملا وعن ظهر قلب مع تحصيله الكم المطلوب من بقية المواد وبذلك إستحق التلميذ لقب حامل كاتب الله وتحول إلى المرحلة التالية. كان التلميذ يُكمل المرحلة في الغالب بين أربع أو خمس سنوات ولكن البطيء لا يُحرم فيستمر ليكمل ولو بعد سبع سنوات. أشرنا إلى أن سن البلوغ كانت موعدا للفصل بين الجنسين رغم أن المؤرخين يشيرون إليها دائما على أنها موعدا لنهاية المرحلة وهو كلام وجدناه لا يستقيم تعليميا. فهل يمكن لمن بلغ الحلم ولم يحصل كامل المقرر بالمرحلة الأولى أن يكون ناجحا في المرحلة التالية؟ هذا هو المستحيل بعينه في زمن كانت الجدية سائدة ولم تكن الشهادة الدراسية وسيلة الإلتحاق بأي مستوى بل الأهلية العلمية وحدها كانت فاعلة ومقبولة وممارسة من كل من المعلم والطالب. إذا أين العلاقة بين البلوغ والتحصيل الدراسي؟ نعم قد يكون التلاميذ لجديتهم يكملون المقرر مع هذه السن ولكننا لم نعرف أن تلاميذ لم يكملوا المقرر وكما يجب ووجدوا لهم فرصة في حلقات الدرس في المساجد والمدارس ولا علمنا أن أحدا ألقي في الشارع. إذا هي مرحلة فصل فمن أكمل رحل إلى التعليم التالي ومن لم يُكمل بقي ليُكمل في كُتاب غير مختلط أو شيخا كمعلم خاص, وهذا أوكد بالنسبة للإناث.

**اليوم والأسبوع المدرســــــــي**

كان الأسبوع المدرسي الإسلامي يبدأ صباح السبت وينتهي يوم الخميس ظهرا فتكون الدراسة لخمسة أيام ونصف يوم لأنها كانت تتم على دورتين صباحية ومسائية عدا الخميس. أما اليوم المدرسي فكان يبدأ بعد طلوع الشمس بقليل, وعند الظهر يعود التلاميذ إلى منازلهم لوجبة الغذاء وأداء صلاة الظهر لمن لم يؤديها في الكتاب جماعيا لأنها كانت ضمن الجانب العملي في المقرر الدراسي. تُستأنف الدراسة بعد الظهر وإلى ما قبل الغروب بما يكفي عودة التلاميذ إلى بيوتهم في ضوء النهار وبذلك يتكامل اليوم الدراسي. علاوة على البطالة الأسبوعية ليوم ونصف اليوم هناك عطلة العيدين وهي حسب العرف فقد تكون ليوم وقد تصل الخمسة لكل من عيد الفطر والأضحى, وبطالة خاصة لمن كان يختم حفظ القرآن الكريم كونها مناسبة خاصة وهامة إذ تنقل التلميذ إلى مصاف الحاملين لكتاب الله وهي مرتبة معنوية عظيمة الشأن.

لما كان الطالب في مرحلة ما بعد الأولى حر الاختيار كما سبق لنا شرحه لذلك كان لكل طالب تقريبا يومه المدرسي وكذلك أسبوعه لأن حلقات الدرس كانت تُعقد في أوقات غير موحدة كل حسب قرار الشيخ القائم عليها, فقد تبدأ في الصباح المبكر وربما في الضحى وحتى في المساء. الخيارات متعددة أمام الطالب وهو الذي كان يقرر. يبقى يوم الجمعة والعيدين يوم بطالة للجميع. أما نهاية كل مرحلة بل كل حلقة فكانت محكومة بتحصيل الطالب لما تقدمه من علم تحصيلا جيدا يساعده على فهم الدرس في الحلقة الأعلى مستوى وهكذا حتى يتخرج بأن يُثبت وجوده كأستاذ أمام طلبة كانوا يشكلون تحد قوي لا يصمد أمامه الضعيف بل قد يدمره علميا فيعود طالبا. طبعا عدا الأطباء الذين رأينا كيف كان تعليمهم وإعدادهم ثم ممارستهم لمهنتهم. لكن شيوخ الحلقات كانوا يراعون إتاحة فرص التعلم للجميع لذلك كان معظمهم يثابر على الحضور في وقت محدد وعند عمود محدد ويحاول ألا يكون موعده متعارضا مع حلقات قد يطلبها طلابه لمزيد من العلم أو للإتقان الأكبر.

لما كانت حلقات الدرس مفتوحة للجميع فقد كان حجمها محكوما بعاملين: شهرة الشيخ ونوعية المادة. مثلا كانت حلقة الشيخ أبو الطيب الصعلوكي مفتي نيسابور تضم في العادة أكثر من خمسمائة طالب علم. كما أن شهرة بعض الحلقات عالميا جلب لها أعدادا أكبر مثل حلقات كل من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في المدينة المنورة ومعاذ بن جبل رضي الله عنه في اليمن وأبو موسى الأشعري رضي الله عنه في البصرة وغيرهم كثير وعلى مر الزمن. عرفنا أن المرأة نالت نصيبها من العلم الذي رغبت فيه واتفق مع قدراتها واستعداداتها من كل الجوانب. لما كان الفصل بين الجنسين كما أشرنا سابقا حتميا منذ البلوغ وربما قبله بقليل فقد كانت المرأة تنال نصيبها إما في مؤسسة علم خاصة بها أو على يد شيخ في منزلها وفي حضرة محرم لها الذي كان سخيا مع المعلم الخاص هذا وبذلك صار بين المسلمات عالمات جليلات, وقد سبق لنا الإشارة إلى نماذج منهن حتى جلسن في المساجد للتعليم.

بقي معرفة أثاث مؤسسات التعليم, فعلى الرغم من إنتشار ورش الأثاث المنزلي والمكتبي والمدرسي إلا أن الطالب والمعلم المسلم تعودا على الجلوس على الأرض فلم يرغبا في المقاعد ربما لشدة تمسكهم بالسنة النبوية التي لا تحرم شيئا مفيدا وإنما هو الإحترام الكبير للنبي عليه السلام الذي كان أول معلم لأول طلاب علم في الإسلام فتمسك المسلمون بعده حتى بهذه الطريقة. هذا علاوة على أن للعرب وحتى في عصرنا الحديث علاقة متينة مع الأرض فيفضلون الجلوس أرضا ولو كانت أفضل مقاعد الجلوس بجانبهم.

**الثـــواب والعقـــــاب**

من سنن الله في خلقه أن جعل البعض يأتي بما يستحق عليه العقاب وآخر يفعل ما يستوجب الثواب, لذلك وعد بالعقاب والثواب يوم الحساب. إذا لا غرابة أن يكون للتعليم نظاما من الثواب والعقاب بهدف واحد هو جعل طالب العلم ناجحا النجاح الإيجابي والمفيد له ولأهله ومجتمعه وأمته. لما كان المسلمون مدركون جيدا لفوائد الثواب في تحفيز الطلاب, والعقاب في تقويم وإصلاح الجانح منهم, لذلك خص رجال التربية هذا الجانب التربوي المهم والخطير في نفس الوقت بالكثير من دراساتهم وتوجيهاتهم ونصائحهم وخاصة بالنسبة للمرحلة الأولى لعلمهم أن تقويم الطفل يعطي المرحلة التالية عناصر صالحة جادة ومدركة لقيمة المهمة التعليمية. فكيف كان الثواب والعقاب في الكُتاب؟

التلميذ الصغير طفل لم يعرف المسئولية بعد وهو لما حباه الله من طاقة أميل إلى اللعب واللهو منه إلى الجدية. لذلك أثرى علماء التربية الجانب النظري للعقاب والثواب في هذه المرحلة التأسيسية. قال الأنبابي, رجل التربية وفيلسوفها المعروف, أن حرمان الطفل من الراحة اللازمة, والقدر الكافي من اللعب والترويح عن النفس, يؤدي إلى موت قلبه وكبت ذكائه, وتنغيص عيشه مما يدفع به إلى تلمس الأعذار للتخلص من العملية التربوية بأكملها. وقد قال مثله وربما أكثر, الكثير من العلماء. هذا ابن سينا يحدد كيفية تعامل المعلم مع الثواب والعقاب: (**ويكون ذلك بالترغيب والترهيب، والايناس والايحاش، والحمد مرة والتوبيخ مرة اخرى، والضرب بعد الترهيب) 73**  كان قولهم زادا للمعلم المسلم الذي كان أحرص الناس على العمل بنصائح أهل الذكر وتطبيقها على أرض الواقع وقد رأينا العطلات التي كان الطالب يتمتع بها إلى جانب وسائل ثواب كثيرة أخرى أكثر من أدوات العقاب بكثير, ولنرى ذلك بشيء من التفصيل:

**الثـــــــــواب:** كان المعلمون المسلمون يعون جيدا ما للثواب من أثر إيجابي على التحصيل العلمي وكل العملية التربوية. عرفوا أن الثواب يحفز التلاميذ على التحصيل العلمي ويغرس فيهم حب المدرسة والإقبال عليها. كان التلميذ المسلم عندما يصل في الصباح إلى المدرسة يجد شيخه في استقباله بثغر باسم ويد ماسحة على الرأس وعبارات تملأ القلب بهجة مثل قوله "مرحبا بالأحبة" و"ما شاء الله" و"حفظكم الله" وغيرها. كانت بعض

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **العنكبوتية** / **الفكر التربوي وتنشئة الأولاد عند المسلمين الأوائل.**

المدارس تستقبلهم كل صباح بما كانوا يحبون من الحلوى حتى صاروا يقتطعون جزءا من ريع الوقف لهذا الغرض. (ومما يُذكر أن وقفا كان في دمشق عُرف دُعي "وقف القضامة" – نوع من الحمص المشوي المملح محبب للأطفال جدا – ينفق ريعه في شراء القضامة لتُملأ جيوب الأطفال بها عند مجيئهم إلى المدرسة للتعلم, وهذا تعزيز إيجابي رائع, وتشجيع عظيم, وترغيب كبير على طلب العلم والسعي إليه برغبة ومحبة) **74**

لم ينسى المعلم المسلم أبدا ما للثواب من تحفيز على التحصيل ومضاعفة الجهد. وهو يلقى الدرس كان لا يغفل عن توجيه عبارات التشجيع لمن يجيب حتى لو أخطأ وكذلك لمن أنجز الواجب المنزلي وكل نشاط له علاقة بالتعليم, وكان يفعل ذلك على مسمع ومرأى من بقية التلاميذ ليبادروا إلى فعل نفس الشيء من أجل نيل نفس الثناء وهو عند الصغار أمر عظيم. عرفتْ مدارس المسلمين التشجيع المادي كذلك. كانت تجري مسابقات بين التلاميذ وتمنح الفائز جائزة, أما التشجيع في غير مسابقة فكانوا يسمونه مكافأة. قد شاعت المكافئات المالية حتى صار لها نص في وثائق وقف المدارس الإسلامية, كما ورد في كتاب الملك الأشرف الخاص بوقف مدرسته في دمشق.

من الثواب كذلك كان إختيار المتفوقين من التلاميذ كمساعدين للمعلم وهي مكانة لم تكن فخرا للطفل فقط بل ولأبويه لأنهم كانوا يجدون فيها فرصة ذهبية لولدهم للتدريب مبكرا على وظيفة المعلم وكان أقرانه يحسدونه على ذلك لما كان يتميز به عليهم من تقدير فيحاولون جهدهم تقليده لعلهم يحظون بما وصل إليه. مكافأة الطفل بسيطة القيمة ولكن أثرها عليه عظيم. لقد جربتُ بنفسي كمعلم ذلك, فوجدت مثابرة أعظم ممن ينال ولو قلم رصاص رغم أنه يكون ابن ميسور الحال أو حتى غني ولكن لذلك القلم المقدم من المعلم قيمة معنوية لا يحس بها إلا الطفل ورفاقه.

**العقـــــــــــــاب:** علم المربون المسلمون ما للعقاب من فوائد إصلاحية وكذلك أثار مدمرة إذا بُولغ فيه أو أسيء توقيعه. كما علموا أن الطفل قد يحتاج أحيانا لوسيلة تقويم إعوجاجه أو سلوكه الشائن ولكنهم كانوا مدركون إلى عظيم سلبيته متى أوقع بسبب عجز التلميذ عن الإجابة, إما لعدم علمه بالإجابة كأن يكون قد نسيها أو أحيانا يكون عارفا بها ولكنه من النوع الذي يهاب الوقوع في الخطأ, وآخر قد يكون ممن تُربكه المفاجأة بالسؤال وكلاهما يصمت. لذلك يزداد ترددا إذا ما عُوقب كما نرى اليوم في مدارسنا للأسف. لذلك عندما كان المعلم مضطرا لإيقاع أي عقاب كان يجعل الطفل يفهم لما عُوقب ويقتنع بأنه لو لم يفعل ما فعل لما وقع عليه العقاب, وبذلك يتقبل حتى الضرب ليقينه بأنه إستحقه.

كما مع كل علم والتعليم في المقدمة أثرى علماء التربية والتعليم الإسلامي مجالي العقاب والثواب بالكثير من الأقوال وقيدوا العقاب خاصة بالكثير من القيود. حددوا العقاب نوعا بأن يكون من النوع الخفيف الذي يردع ولا يضر ولا يتعدى الثلاثة أسواط بدون حدة عند الإيقاع لحديثه صلى الله عليه وسلم الذي أوردناه سابقا ويُفهم منه أن الضرب قد يكون ثلاثة أسواط ولا يتعدى العشرة على قدر الذنب. هذا ما دعا له ابن سحنون وأكد على

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **شوقي أبو خليل / الدولة العربية الإسلامية / ص 261**

عدم الضرب على الرأس أو الوجه, وألا يكون العقاب بحرمان الصبي من الطعام أو الشراب, وحدد العقوبة في حالة عدم مراعاة المعلم لقانون العقاب التربوي بأن تكون عليه كفارة ودية لو مات الصبي أو أصيب. أما إن نفذ المعلم العقاب بكل شروطه وحدوده ولكن الصبي أصيب أو توفي, عندها لا قصاص منه, وحذروا من حبس الطفل بعد إنصراف زملائه. عملا بقول النبي عليه السلام بمعاملة الصبيان بالسوية كرهوا في التعامل عند العقاب البدني على أساس مراعاة إنتماء الطفل وكينونته, بل أوجبوا إيقاع نفس العقاب على كل طفل إستحقه ولو كان ابن الخليفة مثل الأمين بن الخليفة الرشيد الذي كان يعاقبه معلمه كما يعاقب ابن أبسط مواطن وهو مدرك أنه الخليفة القادم. كان العقاب يخضع لشروط أخرى مثل عدم ضرب الطفل قبل بلوغه العاشرة ولا بعد بلوغه سن الرشد, واللجوء للعقوبة عند الضرورة القصوى, بشرط الضرب على الأفخاذ وأسافل الرجلين وليس على الرأس أو الوجه أو أي عضو حساس.

يعود الفضل في نجاح التربية الإسلامية كذلك إلى مواقف أولياء الأمور الذين لم يكونوا يرون في معاقبة أولادهم حرجا طالما جاء من المعلم حتى قالوا أن "عصا المؤدب من الجنة", وما الرشيد, وهو خليفة المسلمين, بشاذ عن القاعدة ولا بقية الخلفاء كانوا كذلك, والذي لم يكن يجد لولده تميزا طالما كان طالبا. لذلك كان الطفل الذي يتعرض للعقاب في المدرسة يُخفي ذلك عن ولي أمره لعلمه بأن أبويه يعتقدان جازمين بأنه ما عُوقب إلا لأنه أتى بما إستحق عليه العقاب البدني. بل كان بعض أولياء الأمور يلجئون إلى المعلم ليعاقب أولادهم على فعل قاموا به خارج المدرسة ولو في البيت. هذه وصية الرشيد للعالم الكسائي مؤدب ولده يختمها بتحريض المعلم على معاقبة الولد متى استوجب فعله ذلك حتى لا يحسب الكسائي أي حساب أو يخشى أي عقاب:

* **"أقرئه القرآن، وعرفه الآثار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك الا في اوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة الا وانت مغتنم منها فائدة تفيده اياها من غير ان تخرق به فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن اباهما فعليك بالشدة والغلظة". 75**

كان العلماء ينصحون والمعلمون يُنتصحون بألا يوقع المعلم العقاب متى كان في حالة غضب لأنه عندها لن يتمكن من تجنب إستخدام العقاب لتفريغ غضبه فيصبح ضارا بدلا من نافع والهدف من العقاب هو التصحيح والإصلاح. كان بعض علماء التربية قد حرموا العقاب البدني لأنهم كانوا يرون أن الضرب من حق أب الولد وليس المعلم, وعلى رأس أصحاب هذا التوجه كان إخوان الصفا الذين كانوا يرون دور المعلم هو إثراء الجانب الروحي في الطفل بالمعرفة والحكمة والتوجيه الصحيح وصولا به إلى السعادة الدائمة أما العقاب البدني فهو من حق الأب وحده. كما كانوا يعتبرون التربية مهنة كأي مهنة أخرى, فكلما أتقن المعلم مهنته كان أقرب إلى الله تعالى.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **العنكبوتية** / **الفكر التربوي وتنشئة الأولاد عند المسلمين الأوائل.**

كان المعلم المسلم أحرص الناس على وضع نصائح وتوجيهات علماء التربية موضع التطبيق العملي ولا يحيدون عنه قيد أنملة ليقينهم أن مهنتهم ستكون أكثر نجاح وهو ما كانوا يرغبون فيه وبقوة وحرارة. نعرف اليوم أن منع العقاب بقوة القانون كان ضمن عدة أسباب أدت إلى تدنى مستوى الطلاب وضعف مردود التعليم في عصرنا. لقد سمعتُ شخصيا من علماء في الغرب يقرون القوانين التي تُعاقب من يضرب ولده ولكنهم أكدوا أن التعليم لا يمكنه أن يستغني عن العقاب إذا أردنا أن نجعله ناجحا وكرروا ما قاله علماء الإسلام من شروط إيقاع العقاب وتغليب العلاج السلمي على العلاج الجسدي.

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**وما كان المؤمنون لينفروا كافة, فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة**

**ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**

**صدق الله العظيم**

**التوبـــــــة**

**122**

**الفصــــــــل الرابــــــــع**

**نماذج تمثيلية لإنجازات التعليم الإسلامي**

**كلمــــــــة**

شاء الله تعالى أن يتحول أولئك العرب البدو الأميون إلى علماء عظام ورواد كبار وأساتذة للبشرية كلها في عصرهم, وظل لهم الفضل الأكبر فيما ننعم به من تقدم خيالي. ما كان لهم بلوغ ذلك لو لا تحولهم إلى الإسلام وإخلاص العقيدة, والتضحية, والجهاد بالقلم وهو أضنى من حمل السيف. كأن الإسلام قد أيقض فيهم روح التحضر الكامنة في نفوسهم منذ بادت حضاراتهم القديمة. أثبتوا بالعمل قبل القول أنهم للحضارة والحضارة لهم حين آلت سيادة العالم لهم فأحيوا تراث حضارات بادت منذ قرون حتى خُيل لمن أبادوها أنها لن تقوم لها قائمة أبدا إلى يوم الفصل. لم تحُول عقيدتهم بوحدانية الله ولا إيمانهم الراسخ بنبذ الشرك والوثنية دون الإستفادة من تراث القدماء المليء بالكثير من الوثنيات وعبادة أرباب متعددين. أثبتوا أنهم أهلا لفرز التراث القديم لتنقيته من كل غث وصنع أساس متين لحضارتهم التي كانت بحق لكل الناس, مؤمنهم وكافرهم. تميزت حضارتهم المبنية على تراث إتهمه أهله بالوثنية وانعدام الفائدة منه بأنها كانت ربما أول وآخر حضارة جمعت بين الإيمان والعلم في شكل فريد ظل عصيا على الأمم الأخرى.

قدم العرب المسلمون بالتعاون مع من ربوا من البشرية, مسلمها وغير مسلمها, حضارة وجد الإنسان فيها ما أراد. إن طلب ترسيخ إيمانه وجده, وإن رغب في التقدم المادي وحده وجده فيها, وإن فضل الجمع بين الإيمان والإنجاز المادي وفرته له حضارة المسلمين. ها نحن نقرأ للمخلصين من المؤرخين الغربيين من أصحاب النزاهة أنه لولا حضارة العرب لما وُلدت حضارة هذا العصر العظيمة ولكان على الإنسان الانتظار لعدة قرون قادمة. أما نظام الترقيم العربي فقد كان وحده من جعل حضارة الغرب الرقمية اليوم ممكنة, فلو إعتمدوا على نظام الترقيم عندهم لما عرفت تقنيات الرقم النور أبدا. هكذا يقول الإنسان عندما يصدق مع نفسه وفي وقت صار العرب والمسلمون فيه في مؤخرة الركب الحضاري. رأينا عظم التعليم العربي الإسلامي وهنا وجب إعطاء نبذة تاريخية محدودة جدا عن إنجازات التعليم العربي الإسلامي لعلنا نفيق ونعود إلى تاريخنا نغترف منه لنصحو وننهض بعد أن طالت كبوتنا.

-------------

**العلوم الشرعية والعربيــــــــة**

وضع النبي عليه السلام الأساس المتين والصحيح للعلوم الشرعية والعربية, فخرجت مدرسته قمما لا تُضاهى, نذكر منهم علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وأبو هريرة وعمر بن الخطاب وأم المؤمنين عائشة رضوان الله عليهم أجمعين وغيرهم كثيرون فكانوا بحق موسوعات علمية تمشي على الأرض. كانوا نواة عظيمة لم يفارقوا الحياة إلا بعد أن خرَجوا قمما لا تقل عنهم أهلية وهمة وإخلاص علمي وصدق نوايا, وهم الذين يسمون بالتابعين الذين خرَجوا بدورهم مثلهم, وهكذا مع أجيال العرب المسلمين المتعاقبة.

شهدت هذه العلوم في عهد الخلفاء الراشدين على قِصَره (11-40 ه / 632-661 م) تقدما كبيرا, فقد تم جمع القرآن الكريم, الكتاب المنهجي الأول لهذه العلوم ولكل العلوم, في كتاب واحد كان وظل وسيبقى إلى يوم البعث منزها عن التحريف والتغيير لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه حُفظ كما نزل من عند رب العالمين. كانت خطوة عظيمة الشأن خاصة للتعليم لأن القرآن ظل مرجعا لكل العلوم الدينية والدنيوية. يقول الدكتور عمر التومي الشيباني في كتابه "تطور التعليم العالي": (والحدث العلمي الثاني الذي تم في عهد الخلفاء الراشدين ... هو جمع ما نُقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال وأقضية حتى لا تتعرض للضياع أو التحريف والتزوير. ففي آخر عهد عمر بن الخطاب اشتدت العناية بتتبع ما يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم, فخشي عمر التساهل في الرواية, فاشترط عمر على من يُحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثا من قول أو فعل: أنه إذا كان ما يُحدث به لا يعلمه جمهور الصحابة أو يستشهد على روايته برجل عدل. ولذلك رد مالك ابن أنس كل حديث لم يشتهر زمن عمر بن الخطاب") **77**  هكذا كانت بدأ العمل لحفظ السنة مبكرا, ثم يُقال أنها ليست كذا وكذا لتأخر زمن جمعها!!! كما بعث العرب في هذا العصر الكثير من العلوم مثل تفسير القرآن وأخرى متفرعة عن العلوم الشرعية والعربية.

كان العرب يبنون على بعضهم البعض دون النظر إلى الخلافات السياسية. لذلك أكمل العصر الأموي وضع الأساس المتين لكل العلوم تقريبا, ثم تعهدها بالتطوير والتنمية. ازدهرت المساجد الأكاديمية في هذا العصر وتوسع الأمويون في نشر الكتاتيب كما شهد عصرهم مولد وظيفة المؤدب لمواجهة تزايد الطلب على المعلم الخصوصي ليخدم طلاب العلم من ذكور وخاصة الإناث في منازلهم. كما إتخذ الأمويون من البادية مدرسة لحفظ اللسان العربي فصيحا سليما من اللحن, وشجعوا البدو للجلوس في المناطق الحضرية كمعلمين لهم كل ما كان يتمتع به أي معلم مسلم من إحترام وعطاء مجزي, حتى أن الخليفة معاوية أرسل ولده يزيد للبادية لنفس الهدف. كما وُضع الأساس المتين للتعليم العالي في كل العلوم التي عرفها العرب وخاصة علم التفسير, وعلم الحديث.

1. **الشيباني / تطور التعليم العالي / ص 58**

تولى العباسيون منذ العام 132 ه = 750 م خلافة المسلمين على أنقاض الخلافة الأموية فواصلوا الجهد العلمي من حيث إنتهى أسلافهم, فازدهرت أيما إزدهار لأنهم وجدوا الأساس قد إكتمل وصارت الحضارة جاهزة للتطور والعطاء. نموا علوم تفسير القرآن الكريم وعلم القراءات والتجويد والضبط وعلم الحديث وعلم الفقه وعلم اللغة ويمكن القول أنهم أكملوا منظومة العلوم الشرعية والعربية. بعد قيام الدواوين أي الوزارات وخاصة وزارة الرسائل الرسمية تفتقت عقول علماء الإسلام عن نثر جديد غير معروف للعرب من قبل أسموه "النثر الفني" وكان يُعنى بصياغة الرسائل الصادرة عن دواوين الحكم فكانت نموذجا من الأدب العربي الراقي. كما كان العرب أصحاب قدرة عالية على الإستفادة مما لدى الآخر بعد تطويعه للغتهم ونظمهم وعلومهم ليخرجوا بعلوم عربية جديدة.

علم النفس بمفهومه الحديث هو ابن القرن التاسع عشرة الميلادي. لم يكن للمسلمين رسائل خاصة بهذا العلم بالمفهوم الحديث ولكنه ظل يرد في شكل (أبحاث وفصول ومباحث ضمن كتب, ومناقشات تتعلق بطبيعة الإنسان وتحديد ماهيته وخصائصه ومكونات وأبعاد شخصيته وملكاته وقواه النفسية والروحية ودوافعه ونزعاته وميوله الفطرية ومراحل تطور ميوله وقواه البدنية ووظائفه العضوية والعوامل المؤثرة في نموه, وبغير ذلك من الجوانب المتعلقة بالإنسان) **78** كانت كتب التربية أغنى الكتب الإسلامية بعلم النفس, تليها كتب التصوف والفلسفة الإسلامية.

التربية ذات أهمية قصوى في بناء الإنسان وتقدم المجتمع الإنساني. حقيقة أدركها المسلمون مبكرا جدا, لذلك كانت تحظى باهتماماتهم ورعايتهم بشكل لم يرعوا به بقية العلوم وإن لم يهملوا أي علم. لم يخلو كتاب إسلامي واحد تقريبا من الحديث عن التربية والتعليم. بل خصه بعض العلماء بمباحث ومصنفات مثل العالم والمربي الكبير محمد ابن سحنون التنوخي القيرواني الذي خص هذا العلم بالعديد من الأعمال وأشهرها رسالته "آداب المعلمين ", ورسالة "أيها الولد" للإمام الغزالي (ت. 505 ه) وغيرهما كثيرون

الإسلام دين أخلاق وقيم فاضلة حتى أنه جعل للحرب أخلاقا لم تعرفها الأمم من قبل ولا حتى في عصرنا الكذوب. خص القرآن الكريم هذه القيم ب (1504) آية أي ربع القرآن الكريم لذلك ليس من المستغرب أن نجد ذلك الإهتمام الكبير وألا محدود بهذا العلم من قبل علماء المسلمين قاطبة حتى وُجد في كل كتاب أو مصنف لهم ولو كان كتاب طب أم هندسة أم صناعة أم تعدين وإلى آخره. نذكر الإمام الغزالي وكتابه "ميزان العمل", وَجد علم الإجتماع نفس الإهتمام والعناية الفائقة لما له من أهمية في بناء المجتمعات وإصلاح علاقات الناس بعضهم ببعض, ولا زالت مقدمة ابن خلدون (ت. 808 ه = 1406 م) مرجعا أساسيا لطلاب هذا العلم ولكل مُصلح إجتماعي خاصة في الغرب الناهض اليوم الذي تلقف أعمالا أخرى بالخصوص وترجمها إلى لغاته المختلفة. باختصار فمجموعة هذه العلوم نالت عناية المسلمين الكبيرة وإن لم تصبح علوما مستقلة قائمة بذاتها.

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **د. الشيباني / تطور التعليم العالي ... / ص 152**

**علم التاريـــــــــــــخ**

التاريخ هو العلم الذي يُعنى بذكر الأخبار والأحداث ومظاهر الحضارة وازدهارها وأسباب ذهابها. كلمة تاريخ قديمة, وقد أثبت الدارسون أنها لفظ عربي أصيل. كان (المسلمون أول من أرَخ حوادثه باليوم والشهر والسنة’ وربطوا تاريخهم بكل العلوم ... فكان بحق "علم العلوم") **79**. كان القرآن الكريم محفزا ومشجعا للمسلمين على الإهتمام بالتاريخ بما يتضمنه من تسجيل لحياة المجتمعات السابقة عن الإسلام, والتي فسرها الرسول صلى الله عليه وسلم, بل ويُنسب إليه قوله: (لا تدع التاريخ فإنه يدل على تحقيق الأخبار وقربها وبعدها) **80**  وقد عُرف هذا العلم في كتاب الله بالقصص. لقد إزدهر هذا العلم مبكرا ربما لأن المسلمين كانوا يحفظون القرآن الكريم منذ بداية التعليم المقصود. لذلك ما أن قدروا على التأليف حتى تصدوا لعلم التاريخ مستعينين بالمخزون القرآني الهائل لديهم. كانت البداية مع السيرة النبوية لمحمد عليه السلام, فبقية الأنبياء, ثم تحول المسلمون إلى التاريخ السياسي لأخذ العبرة منه وتوفير حاجة الحكام لمصادر تعينهم على العدل بالإعتبار بما كان مع من سبقوهم خيرا أم شرا فيعرفوا العوامل التي أدت إلى إزدهار النظم السابقة وكذلك تلك التي ساهمت في زوال أمجاد كثيرة ودولا عظيمة.

كانت بداية الإهتمام الإسلامي بالتاريخ منذ زمن معاوية بن أبي سفيان, مؤسس الخلافة الأموية, فكان أول تدوين في أخبار الجزيرة العربية قبل الإسلام قد قام به "عبيد بن شُريةَ" بأمر من معاوية رضي الله عنه. هكذا تواصل إهتمام علماء الإسلام بهذا العلم وطوروه, فقد وضعوا له فلسفة طوروها بأنفسهم مثل ابن خلدون الذي أراد من فلسفة التاريخ أن (يكتشاف العوامل التي تسير الوقائع التاريخية والقوانين العامة التي تتمشى عليها الدول والشعوب في تطورها مع إيجاد معيار صحيح يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والخطأ فيما ينقلونه من الأخبار والوقائع) **81**  لقد إتبع المسلمون في تدوين التاريخ طريقتين: الأولى أسموها "الحوليات" أي ترتيب الحوادث سنة بعد سنة. والثانية هي طريقة السرد المتسلسل حيث يتم سرد الحوادث كاملة من البداية وإلى النهاية بدون إنقطاع. مثلا كانوا يتعاملون مع تاريخ دولة ما كوحدة مستقلة.

تناول علماء العرب التاريخ الطبيعي بنفس الهمة والجدية التي كانوا يتناولون بها كل علم عرفوه. نمى إهتمامهم بهذا العلم منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) حين أعطوه مصنفات عظيمة وشاملة ودقيقة وثرية بالمعلومات وفي لغة أدبية مفهومة وعالية وصياغة سهلة ومنهجية. ظل هذا العلم جزءا لا يتجزأ من علم التاريخ العام. وضع العلماء مثل الأصمعي والكندي وجابر وغيرهم لا يُحصون عدة رسائل قيمة في الحيوان والجماد والنبات والإنسان بهدف الكتابة الأدبية ولكنهم ضمنوها معلومات علمية قيمة. لا زالت كتاباتهم في الحجارة, مثلا لا حصرا, مؤثرة في الغرب الذي تبنى أسماء عربية للكثير من الحجارة. تناول المسلمون,

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**79. د. شوقي / الحضارة العربية الإسلامية / ص 273**

**80. فروخ و... / تاريخ العلوم عند العـــرب / ص 297**

**81. د. شوقي / الحضارة العربية الإسلامية / ص 279**

وخاصة شهاب الدين الطيفاشي, الذي قدم معلومات وافية وشاملة عن الحجارة, فذكر نوعها وعددها ومصادرها الأصلية وجغرافيتها وطرق فحصها ونقاوتها وتطبيقاتها في المجالات الطبية وحتى في أغراض السحر وثمنها وكل ما عرفه العرب عنها من معلومات **82**

**علم الإقتصاد والتجــــارة**

رأينا أنه كان للعرب خبرات واسعة في الإقتصاد والتجارة منذ عصر الجاهلية, فقد تعاملوا تجاريا مع قبائلهم ومع الخارج وحموا نشاطاتهم التجارية بمعاهدة سلام بالتعبير الحديث حين توافقوا حول أربعة أشهر حرم لا يتم فيها قتال ولا غزو ولا أي شر حماية لنشاطاتهم التجارية. وحرصا منهم على إطالة فترة السلام وربما قصدوا إقناع الجميع بالحاجة للسلام الدائم حين جعلوا ثلاثة أشهر متوالية وهي محرم وصفر وربيع الأول ثم إتخذوا من رجب رابع الأشهر الحرم فصار للعام فرصتين للسلام. رأينا كذلك أن التجارة علَمت العرب التعامل بالنقد وليس المقايضة فقط حتى راجت العملات الأجنبية في بلادهم مثل الدينار البيزنطي والدرهم الفارسي. بالإسلام توحدت قبائلهم في أمة واحدة فصارت من القوة أن غزت العالم فتوسعت وتنوعت, نتيجة لذلك, معلومات العرب في هذين النشاطين. كما مارسوا لأول مرة التجارة البحرية فصارت سفنهم تُقلع من موانئهم إلى كل مواني العالم المعروف مهما بعدت.

لا نقول كلاما مرسلا أو نبني مجدا على الرمال ولكن التاريخ خير شاهد. لقد وجد العلماء عملة إسلامية تعود إلى القرن السابع وحتى الحادي عشر الميلاديين في بعض الدول الإسكندينافية مما يدل على وصول التجار المسلمين إلى تلك البلاد. كما وصل التجار العرب إلى كل مكان في العالم. تميز التجار المسلمون, كما رباهم دينهم, بالنزاهة والصدق والإبتعاد بالكلية عن الغش والتلاعب مما أبهر المتعاملين معهم فأكبروا سلوكهم لدرجة أنهم إعتنقوا الإسلام دون أن يدعوهم أحد إليه إلا سلوك التجار ولعل أندونيسيا وغيرها لا زالت خير شاهد إلى اليوم كدولة مسلمة رغم أنه لم يفتحها المسلمون وإنما وصلها تجارهم فقط.

من المبهر حتى لنا نحن أحفاد أولئك الأشاوس أن نعرف أنهم كانوا أهل صناعات ظننا أنها بنات القرن العشرين. صنعوا ما يُعرف اليوم بالبرادات الضخمة المحمولة لينقلوا بها الفواكه والخضار من بلاد بعيدة فتصل طازجة إلى حيث تُباع بأثمان مجزية. كان التجار ينقلون في تلك المبردات البطيخ من خوارزم حيث ينضج قبل بغداد في العراق لتباع البطيخة بمائتي درهم وهو ثمن عظيم. كانت تلك المبردات عبارة عن أوعية من الرصاص مبطنة بالثلج. إذا كان للتجارة كل ما تقدم من أهمية فلابد لعلماء الإسلام من جعلها علما يُدرس وقد وفر العلماء بل والتجار مصنفات علمية لطلاب العلم, ووضعوا كتبا منهجية في الإقتصاد والتجارة لصالح الطلاب والأساتذة نذكر منها كتابي "الخراج" و "الأموال" وكتب كثيرة في هذا العلم. وسنرى المزيد عن الصناعة.

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**Arnold & Guillaume L The Legacy of Islam / P. 341 .82**

ا**لجغرافيـــا (علم وسياحــــة)**

يقول الله تعالى (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات, وهذا ملح أجاج, وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا.) صدق الله العظيم – الفرقان 53. ما أكثر الآيات التي وضعت أساس هذا العلم في كتاب الله فأثرت العقل العربي بمعلومات تناولوها بالشرح والدراسة وحتى الإستكشاف, فأضافوا ما وجدوه في تراث القدماء ليخرجوا بعلم متكامل. لقد كان العرب شغوفين بالترحال كطبيعة لهم حتى قبل الإسلام فكان ذلك عونا كبيرا لهم على توجيهه الوجهة العلمية فأثروا علم الجغرافيا بمشاهداتهم. كما لهذا العلم علاقة بدين المسلمين إذ يساعدهم على تحديد القبلة حيث كانوا في أنحاء المعمورة. بالإسلام صار للعرب أسبابا أخرى لدراسة الجغرافيا وسبر غورها وهي الحج, والرحلة طلبا للعلم, وهذان يحتاجان معرفة الأماكن والمناطق. كما كان للدولة حاجة له من أجل شق الطرق بين مختلف مناطقها, وتسيير خطوط البريد. هذا إلى جانب التعرف على كوامن الأراضي التي فتحوها من ثروات ومقدرات لحاجة صناعاتهم المتنوعة والشاملة.

تناول العلماء العرب الجغرافيا كعلم بالدراسة العلمية والمشاهدات حتى تمكنوا من تصحيح الكثير من أخطاء الأوليين خاصة علماء الإغريق مثل أخطاء بطليموس أبرز علماء الإغريق, (فصححوا خرائطه وما وقع فيها من أخطاء في تحديد الأطوال والعروض, حيث أنه بالغ في تحديد طول البحر الأبيض المتوسط, وفي تحديد الجزء المعمور من الأرض المعروف في وقته, وفي تحديد حجم بعض الجزر كجزيرة سيلان مثلا. كما أخطأ في تحديد وضع بحر قزوين والخليج العربي خطأ فاحشا, وفي غير ذلك من الأمور) 83 قاموا بمثل ما فعلوا مع بطليموس مع كل تراث الأولين فقدموا قوانينهم وخرائطهم الأصح والأدق. فهذا واحد من علماء الإسلام الكثيرون قدم إنجازات مبهرة ما بالك بهم جميعا. أكد البيروني كروية الأرض, وأن جميع الأجسام تنجذب نحو مركزها, وأنها تدور حول محورها كل يوم مرة وحول الشمس كل سنة. قيل أن كولومبس ما كان ليكتشف أمريكا لو لا خرائط العرب.

أثرى العلماء علم الجغرافيا بالكثير من المصنفات الصالحة كمناهج للتعليم حتى صار تخصصا علميا يُخرج علماء كبارا من المساجد والمدارس فأضافوا إليه الكثير, ووضعوا خرائط أدق بكثير مما عرف الإنسان قبلهم مثل خريطة للعالم ابن حوقل المتوفى عام 1087 م والتي كتب فيها مبحثا هاما أكد فيه أن الأرض ليست كروية بل هي بيضاوية. كما نعرفها اليوم. بطريقة علمية دقيقة تمكن علماء العرب من إثبات أن (درجة الطول ستة وخمسين ميلا عربيا وثلثي الميل, والميل العربي يساوي أربعة آلاف ذراع) **84**

شملت كتابات العرب الجغرافيا الطبيعية والسياسية والإقتصادية ورسم الخرائط والتي تطورت في عصرنا لتصبح علوما عديدة. كما كتبوا في الجغرافيا التاريخية وأحوال البلدان. من العلماء الأوائل نذكر أبو

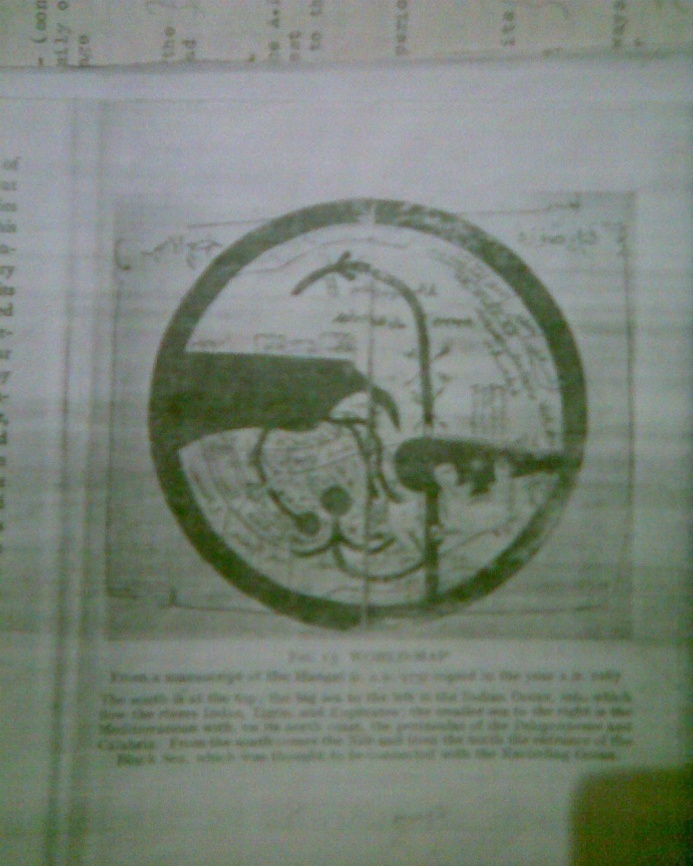
**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**83. د. الشيباني / تطور التعليم العالي .... / ص 172**

**84. الجميلي / حركة الترجمة في المشرق الإسلامي .... / ص 393**

القاسم محمد بن حوقل النصيبي, فهو من نصيبين بالجزيرة العربية, وقد إشتغل بالتجارة, فزار الكثير من بلدان العالم من إفريقيا الشمالية والأندلس وصقلية وغيرها, فوضع مشاهداته في مؤلفات قيمة ترجمتها أوربا مرارا. كان دقيق الوصف فكان يصف بلاد الإسلام إقليما ... إقليما, وصقعا... صقعا, وكدرة ...كدرة, وفي كل أعماله يفعل هذا.

**خريطة العالم لابن حوق85** (جيوم 87)

**.**

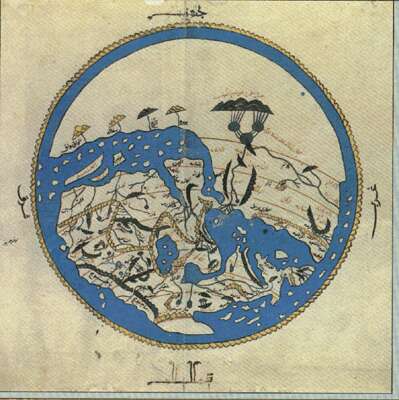
علماء الإسلام كثيرون, لذلك نذكر من المتأخرين العالم الفذ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف العلوي, ولد في سبتة بالمغرب عام 493 هجرية – 1100 م, وعاد إليها بعد أن جاب العالم الإسلامي وصقلية ليتوفى فيها عام 656 ه – 1160 م . لقد اشتهر بالشريف الإدريسي, وقد ذاع صيته ليس في العالم العربي الإسلامي بل وفي أوربا كذلك. تعلم في قرطبة الأندلسية المسلمة, وكان رحالة كبير وجغرافي من الطراز الأول. زار الإدريسي اليونان وآسيا الصغرى ومراكش والبرتغال وجنوب فرنسا وإنجلترا وإيطاليا حيث وصل مدينة (بلرم - (Palermo في جزيرة صقلية عام 1138 م في زمن ملكها النورماني (روجار الثاني) الذي كان شغوفا بالعلوم العربية فاستبقاه في ضيافة علمية. ظل في (بلرم) إلى ما بعد وفاة روجار الثاني عام 1154 م .

قدم له روجار هذا كل ما إحتاج ليضع له مصنفا في الجغرافيا. وصف الإدريسي في مصنفه ذاك كرة أرضية صنعها بيديه من الفضة, وأسمى كتابه (الكتاب الروجاري) تعبيرا عن إمتنانه للملك النصراني وأعطاه **ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**. Arnorld & Guillaume L The Legacy of Islam/ P. 87 85.**

كذلك إسما عربيا علميا وهو (نزهة المشتاق في إختراق الآفاق). كان أكمل عمل عربي في الجغرافيا ورثته أوربا وظل مرجعها الوحيد لعدة قرون. من بين ما تضمنه كتابه كان وصفا دقيقا لمنابع النيل ولأول مرة في التاريخ البشري ولكن الغرب ينسب ذلك اليوم إلى رجاله. كتب الإدريسي ( وهذان القسمان مخرجهما من جبل القمر, فوق خط الإستواء بست عشرة درجة, وذلك أن هذا النيل من هذا الجبل عشر عيون, فأما خمسة أنهار منها, فإنها تصب وتجتمع في بطيحة كبيرة, وخمسة أنهار أخر تنزل أيضا من الجبل إلى بطيحة أخرى كبيرة, ويخرج من كل واحدة من البطيحتين ثلاثة أنهار, فتمر بأجمعها إلى أن تصب في بطيحة كبيرة جدا. على هذا البطيحة مدينة تُسمى طرمى) **86.** أنفق في تأليفه خمسة عشر عاما حتى أكمل عمله العظيم في بداية يناير/شوال من العام 548 للهجرة. ضمن كتابه سبعين خريطة.

**مصور الإدريسي ويُظهر منابع النيل والبحيرات الإستوائية الكبرى 87**



**الرياضيــــــــات (علم العلـــوم)**

**الحساب: نظام الترقيــــم:** كم هم أجدادنا عظماء حين أدركوا أن الرياضيات هي علم كل العلوم حتى الدينية وما بالك بغيرها. لذلك كان جهدهم فيها مضاعفا وعنايتهم فائقة. أخذوا من كل الأمم ما وجدوه في تراثهم ولكن التراث الهندي كان أكثر نفع لهم, فدرسوه بدقة متناهية مثلما درسوا ما وجدوا عند الإغريق خاصة في كتب بطليموس وإقليدس, ثم كما مع كل علم أعطوا ما تفتقت عنه عبقريتهم فكان عظيما بل وفريدا في هذا العلم وظل أثرهم ممتدا إلى يومنا هذا. كانت لهم فتوحات باهرة ولكن فتحهم في مجال نظام الترقيم ظل بلا منافس إلى الغد وليس اليوم فقط وهي تلك السلسلة التي لا زال الغرب يسميها بالأرقام العربية ولها قصة يجب عدم القفز عليها.

الأمم الحية والباحثة عن العلم تسعى إليه حيث كان ولكنه أحيانا يسعى إليها كما نرى اليوم علماء المسلمين وغير المسلمين يسعون إلى الغرب فيزداد تقدما بهم ونزداد تخلفا بزهدنا فيهم. زار عالم فلك هندي

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**86. شوقي أبو خليل / الحضارة العربية الإسلامية / ص 281-282**

**87. الشبكة العنكبوتية – صور عباقرة وعلماء مسلمين وعرب**

يدعى (كانكا) بغداد عام 773 م (156 هجرية) ولعلمه مثل كل العالم وقتها بشغف العرب بالعلم حمل معه كتابا ليقدمه هدية إلى الخليفة العربي المنصور الذي ما أن إستلم الكتاب المسمى "هند سند" حتى أحاله على العالم محمد بن إبراهيم الفزاري لترجمته إلى العربية ووضعِ كتاب على نهجه يشرح للعرب سير الكواكب. كان واضع الكتاب الهندي هو العالم (براهما جوبتا), وقد لقي هذا المصنف شهرة بين علماء المسلمين فأعطوه عناية كبيرة ودراسات عميقة ومنه عرفوا نظام الأرقام والأعداد الهندية. كان الخليفة عبد الملك بن مروان المتوفى عام 86 ه = 705 م قد وجد أن الوقت صار مناسبا لمنع إستخدام غير العربية في الدواوين الرسمية باستثناء واحد هو نظام الأرقام اليونانية لعدم وجود البديل الأفضل. لذلك ما أن وصلت أرقام الهنود إلى العرب حتى سرعوا عملية فهمها وتنظيمها. كانوا حريصين على التخلص من كل غريب ولكن بعد إيجاد البديل العربي الإسلامي.

لا نمل القول أن العقل العربي المسلم لم يكن سهل الإقتناع لذلك لم يجدوا الأرقام الهندية منظمة كما يجب, فعملوا عقولهم في دراسات عميقة حتى نظموها في سلسلتين: أسموا إحداهما بالأرقام الهندية وهي التي يستعملها عرب المشرق الإسلامي والثانية أعطوها اسم الأرقام الغبارية واستخدمها عرب المغرب الإسلامي ومنهم عرفها الغرب ولا زالت تسمى عندهم بالأرقام العربية. إخترع العرب كذلك الصفر فجعلوه نقطة (.) في السلسلة الأولى وحلقة (0) في الثانية. ( الشكل المعروف بالأرقام الغبارية لأن الهنود كانوا يرسمون أرقامهم على مسطحات من تراب ناعم (غبار) **88.** يزعم المتحاملون على الإسلام أن العرب لم يخترعوا الصفر رغم حقائق التاريخ التي تؤكد ذلك. لنعود إلى التاريخ للتعرف على قصة الهنود مع الرقم كي نعرف فضل العرب الكبير وفتحهم العظيم؟

لولا الهنود لما عرف العرب أرقامهم ولا طوروها لتُصبح بما نعرفها به من فاعلية عُظمى , والتي لم يجد الإنسان لها بديلا حتى ربما الغد. إذ من الثابت تاريخيا أن الأعداد التي عرفها العرب ونعرفها اليوم لم تكن معروفة لدى الأقدمين من مصريين وبابليين ويونان. لقد استخدم اليونان الأعداد المعروفة بحروفها اللاتينية ذات الأشكال التالية " I-II-III-IV-V-VI-VII-VIII-IX", ولما لم يعرفوا الصفر فقد واصلوا استخدام الحروف مثل: 10 =X و C=100 L=50 و 500= Dو 1000=M .عليه كانوا يكتبون الرقم (3958) على النحو التالي ( (MMM CM LVIII. يقول (هيوستن بانكس ) أن هذه الأعداد ممكنة عند عملية الجمع أما الضرب والقسمة فلا شك أن الأرقام العربية أسهل وأوفر في الجهد والوقت.

نعود إلى الهنود لنعرف أنهم عرفوا كتابة الأعداد قبل العام 300 ق م ولكنهم لم يعرفوا تنظيمها حتى القرن السادس الميلادي حين عرفوا نظامهم الشهير والغير سهل الفهم والإستخدام الذي وصل العرب. أما الصفر فلم يعرفوه, والأدلة كثيرة أهمها وصف ( ساويروس سابوخت) رئيس دير ومدرسة على نهر الفرات الأرقام

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**88. حسين حمادة / تاريخ العلــوم عند العـــرب / ص 132**

الهندية بقوله: (طريقة الحساب الهندية ممتازة وتنفع في كل العمليات الحسابية – أعني طريقة الأرقام التسعة) **89** ولم يقل العشرة لأنها لم تتضمن الصفر. كان الهنود يكتبون بيسر أي رقم ليس فيه صفر أما لو كتبوا الرقم 408 مثلا فكانوا يكتبون الأربعة للمئات والثمانية للآحاد ويضعون علامة بينهما للصفر فأسموا تلك العلامة بالفراغ أو الثقب رغم أنهم كانوا يضعون نقطة أو دائرة بدون معنى الصفر. لو كان للصفر مكانا عند الهنود لعرفه (ساويروس) وبالتالي لنقله إلى إخوانه في العقيدة في أوربا التي ما كانت لتنتظر العرب حتى إخترعوا الصفر واستخدموه لمائتين وخمسين عاما حتى نقله الأوربيون عنهم من الأندلس. لابد للهنود أن يكونوا قد بُهتوا لما فعله العرب بأرقامهم عندما عادت إليهم ولعل علمائهم لعنوا أنفسهم لعدم إكتشافهم هذا الفتح المبارك.

**الهندسة الرياضية:** من الطبيعي أن يكون لتنظيم الأرقام أثره في مساعدة أصحاب الفضل في ذلك على الإبداع في علم الهندسة الرياضية التي تعد علما أبدع فيه العرب على الرغم من القول أن الإغريق قد تناولوه بشكل حتى قيل أن إقليدس لم يترك شيئا يضيفه من يأتي بعده منذ وضعه لنظرياته بين عامي 330 و 320 ق م. فعلا لم يأتي من يضيف شيئا أساسيا حتى جاء العقل العربي المسلم الذي لم يعرف العجز قط وظل يُبدع في كل علم وكل حقل. أثرى العرب هذا الحقل من علم الرياضيات بتمارين جديدة, كما أضافوا إليه الكثير من الإبداعات مثل تسطيح الكرة الذي يفيد في رسم الخرائط الجغرافية, فرسموا على سطوح كروية ومسطحة, ثم كانوا أول من برع في نقل أي رسم على كرة إلى سطح مستوي وبالعكس وهو ما كان قبل المسلمين من المستحيل. يلحق بالهندسة فن الزخرفة العربية الذي أخذ بألباب البشرية إلى يومنا هذا.

أما **علم المثلثات** فهو علم عربي أصيل مثله مثل علم الجبر إذ لم يكن للإغريق, أصحاب أهم تراث ورثه العرب, في هذا المجال أعمالا في المثلثات لها قيمة, أما الهنود فكانت لهم أعمال أفضل من الإغريق ولكن الجميع لم يتناوله بما يستحق. (أما العرب فكان أول ما فعلوه في المثلثات أن نظموا المعلومات التي تناولوها من الهنود خاصة, ثم جعلوا منها علما خاصا مستقلا عن علم الفلك... ولو لا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن, فإليهم يرجع الفضل في وضعه بشكل علمي منظم.**90**

**الجبــــر:** لو ما فعله العرب بالرقم ونظامه لما كان للجبر شأن يُذكر. ورثه العرب في مثل حالة الفقر التي ورثوا عليها المثلثات. لم يكن للإغريق ما يمكن الحديث عنه في هذا الحقل أما الهنود فلو عرفوا تنظيم أرقامهم كما فعل العرب لفعلوا مع الجبر الكثير. لذلك ما أن تناوله العرب حتى أخذ هويتهم كاملة وبامتياز بدءا باسمه الذي أطلقه عليه عالم المسلمين الذائع الصيت, الخوارزمي. ابتدع العرب كذلك الرموز في الجبر مستعينين بالحروف التي كانوا يعدون بها فكانوا أول من إستخدم الحرف العربي كرمز جبري وبذلك تمكن الخوارزمي من وضع المعادلة التالية: س2  + 21 = 10 س, فالمجهول س = 3 و 7 في نفس الوقت. كان العرب يعتمدون الأبجدية السامية وهي (أبجد, هوز, حطي , كلمن , سعفص , قرشت, ثخذ ضظغ) وليس الشائع

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**89.** **د. هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 72**

**90.** **عمر فروخ / عبقرية العرب في العلم والفلسفة / ص 80**

عندنا وهو ( أ ب ت ث ........) وهي التي كان يعد بها العرب قبل الإسلام: أ = 1 .....ن = 50 ..... ق = 100 ...... وهكذا إلى غ = 1000 . مثلا كانوا يكتبون العدد 14 : (يد) الدال تساوي 4 والياء = 10 . (حمادة 131 ) (**إنظر الجدول كاملا بالملحق الخامس**) إذا يمكننا, وبكل فخر, أن نزعم أن أجدادنا كانوا الآباء الشرعيين لكل علوم الرياضيات وبالتالي فهم الآباء الحقيقيون لحضارة الرقم المعاصرة وبلا منازع.

**علم الفلــــــــك**

كان الطفل العربي المسلم يبدأ الدراسة بحفظ كتاب الله الكريم لذلك لما يكبر يبدأ التفكر فيما يعج في صدره مما قرأ وحفظ عن ظهر قلب في القرآن الكريم يتعلق بعلم الفلك وغيره فيبدأ التفكر في مثل قوله تعالى **( وسخر لكم الليل** **والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)** صدق الله العظيم – النحل 12 – وفي الكثير من الآيات المماثلة. مجددا ودائما بالقرآن والسنة صنع المسلمون المعجزات العلمية الحضارية. عمل المسلمون عقولهم كما أمرهم الله بدراسة هذا العلم الذي ورثوه كعلم تنجيم فسلموه للعالم بعدهم وقد ميزوا بين الفلك كعلم قائم بذاته له أصوله وأسبابه ونتائجه العلمية, وبين التنجيم الذي أثبتوا بالتجارب العلمية أنه خرافة ووهم ليس له أي أساس علمي. لقد أكدوا ذلك مبكرا أي منذ منتصف القرن الهجري الثاني أي بداية القرن الثامن الميلادي. بفضل ما بذلوه من جهود مضنية وعمليات رصد فلكية خارجية دقيقة. لقد أثبتوا الكثير من الحقائق مثل إستدارة الأرض ودورانها حول محورها كما وضعوا أزياجا فلكية كثيرة. أكد العرب أن القمر لا يضيء من نفسه كما كان يعتقد السابقون بل يستمد نوره من أشعة الشمس المنعكسة عليه, وضبطوا مدار الشمس وأثبتوا أن فلكها متداخل مع أفلاك أخرى, وبذلك سهل عليهم دينيا تحديد القبلة من أي مكان وُجدوا فيه على وجه البسيطة, وأكدوا أن الشمس ثابتة وأن الأرض هي التي تدور حول محورها وحول نفسها في نفس الوقت, وبذلك يحدث الليل والنهار وغير ذلك من الحقائق التي هي اليوم من المسلمات. وضع العرب كذلك حدودا واضحة لخطوط الطول والعرض كما أبطلوا ما كان يُعتقد بعلاقة التنجيم بالحظ والسعد أو النحس وسوء الطالع.

لإثراء هذا العلم أقام المسلمون مراصد في كل مكان مناسب من أرضهم الواسعة مما ساعدهم على تحقيق إكتشافات فلكية هامة منها ما لم يسبقهم بها أحد من العالمين مثل إكتشافهم للنجوم الثابتة فرسموا لها الخرائط وأظهروها عليها كما هي في السماء, واخرجوا فهارس للنجوم ساعدتهم على تصحيح الكثير من أخطاء الأولين. زودوا مراصدهم بالكثير من الآلات والأجهزة التي إخترعها لهم مهندسوهم ومنها ما ابتكروه من عندهم. الفزاري, مثلا, إخترع أول إسطرلاب وكتب في طرق إستعمالات المحلقة وأعد جداول للسنة الهجرية, ففتح الباب أمام من خلفه ليزيدوها طرقا وينوعوها. إخترع علماء الحيل آلة مستديرة تحمل صور النجوم ورموز حيوانات في وسطها وتدور بفعل قوة إندفاع الماء فتختفي صورة كل نجم منه حالما يختفي النجم في السماء وكذلك الحال عند ظهور نجم في السماء فتظهر صورته في الخط الأفقي للآلة. والحديث يطول سواء من حيث صناعة الآلات الفلكية والمراصد أو تطوير الطرق أو الإكتشافات الفلكية أو تصنيف الكتب المنهجية لطلاب العلم.

**علـــــم الكيميـــــــاء**

أثبت علماء الآثار وخاصة قُراء اللغة المصرية القديمة أن المصريين كانوا قد بلغوا بالكيمياء شأنا عظيما إلا أن أسرارها ذهبت معهم مثل تلك التركيبة التي كانوا يستخدمونها في تحنيط أمواتهم كي لا تتعفن وهي كذلك إلى يومنا هذا رغم مرور آلاف السنين. عرف الإغريق من المصريين الكثير ولكن تراثهم لم يتضمن ما يعينهم على أن يكون لهم علم حقيقي للكيمياء. ظلوا يُسخرون معارفهم المحدودة في مجالات خرافية مثل تحويل معدن رخيص إلى آخر ثمين بفعل ما كانوا يسمونه بحجر الفلاسفة.

**إسطرلاب عربي كساعة جيب وتحته ربع فلكي (المزيد بالملحق )91**

****

قال (همبولت) أنه ينبغي علينا أن ننظر إلى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية, فالكيمياء وفي صورتها العلمية هي إبتكارا حققه العرب. كان على علم الكيمياء إنتظار العرب فكانوا عند حسن ظنه بهم حين بدأوا الإعتناء به مبكرا ومن حيث وصل الإغريق خرافيا لعلمهم أنه عونهم في توفير المواد اللازمة طبيا وغير طبي. لكنهم كانوا يُخضعون كل علم للبحث العلمي والتجربة والتطبيق العملي لذلك تمكنوا وبسرعة من إبطال خرافة الإغريق وجعلوا من الكيمياء علما حقيقيا كما نعرفه اليوم. كان العالم المسلم (الكندي) من أبطل نهائيا فكرة تحويل المعدن الرخيص إلى معدن ثمين عن طريق التحقيق العلمي فأكد بذلك صدق ما قال به أسلافه من علماء العرب.

من عجائب العرب أن تكون البداية الجادة والتأسيسية لهذا العلم على يد رجل سياسة. (كان أول من إهتم منهم بهذا العلم واشتغل به هو الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية (ت. 85 ه = 704 م), فقد أمر بترجمة **ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**91. عمر فروخ و... / تاريخ العلوم عند العرب / ص 564**

بعض الكتب والمباحث الكيميائية المعروفة في عصره, فدرسها وألم بما فيها, وكتب هو نفسه بعض المباحث في هذا العلم)**92**  فكان قد وضع بذلك الأساس السليم الذي شاد عليه المسلمون علم الكيمياء.

جاء جابر بن حيان الخالد الذكر إلى يومنا هذا لما أحدثه في الكيمياء من أعمال وإضافات تضيق الموسوعات عن الإحاطة بها. لذلك لُقب بأبي الكيمياء العربية والحديثة, ولا تُذكر الكيمياء إلا ويكون هو حاضرا لكثرة ما قدمه للبشرية من مصنفات غنية. صار جابر قدوة حسنة لمن جاء بعده من علماء الإسلام وهم كثيرون كما في كل علم. أضاف علماء الكيمياء الكثير ولهم الكثير مما لم يسبقهم إليه أحد. مثلا, قطروا الخل للحصول على حامض الخليك المركز. أنتجوا ثاني أكسيد المنجنيز الذي استخدموه في الكثير من الصناعات مثل إنتاج الزجاج النقي الصافي الذي نال شهرة عالمية فكان الإقبال على إقتنائه بلا حدود. كان لعلماء الكيمياء العرب الكثير من الأجهزة والأدوات والآلات نذكر منها الآثال والأنبيق والبوط والمزيد من ذلك مع إستعمالات كل واحدة في **(الملحق السادس)**

**أبو الكيمياء العربية والحديثة جابر بن حيان 93**

****

**الطـــــب (علم وشفـــــاء)**

الطب حاجة الإنسان في كل مكان وزمان, لذلك لم يكن من المستغرب أن يعطيه العرب عنايتهم الفائقة ومبكرا, بل ومنذ العصر الجاهلي كما رأينا سلفا. وُلد الطب العربي من جديد في ثوبه الإسلامي منذ تنفس المسلمون الهواء النقي في المدينة حين أقام عليه الصلاة والسلام خيمة في مسجده لتكون أول مصحة في الإسلام, وأقام عليها طبيبة من بني أسلم يُقال لها رُفيدة فكانت تُعالج المسلمين ذكورا وإناثا, ودعم ذلك بأحاديث كثيرة حول الطب والعلاج وصلت إلى ثلاثمائة حديث عندما جمعها المسلمون ليؤسسوا بها ما عُرف بالطب النبوي, وهي تُعنى في الأساس بحفظ الصحة. يُقال أن من ضمنها أقوال لأطباء

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**92. الشيباني / تطور التعليم العالي .../ ص 203**

**93. الشبكة العنكبوتية / صور عباقرة وعلماء مسلمين وعرب**

وحكماء نُسبت إليه عليه السلام ولم يقلها وتبقى متفقة مع ما صدر عنه من أقوال لأنه كان يهمه كل ما يصلح حياة الإنسان. لا أشك في أن تلك الأحاديث كانت الأساس لمناهج كليات الطب الإسلامية. لم يكتفي النبي صلى الله عليه وسلم,كالعادة, بالقول بل كان يُتبعه دائما بالنصح والتوجيه والفعل. كان طوال حياته يحث أتباعه على زيارة الطبيب عند مرضهم على الرغم من تشجيعه لهم الأخذ بالرقية الشرعية ليعلمهم أن الطب والاستعانة بالله أمران لا غنى لأحدهما عن الآخر عند المسلم المؤمن. يُروى أنه عاد مريضا من أصحابه فتمنى له الشفاء ثوم نصحه قائلا: (إنك مفؤود, إئت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه يتطبب)94الحارث هو الذي أشرنا إليه سابقا بأنه درس في بلاد الفرس ثم علم ولده النضر صنعة الطبابة.

لم يبدأ العرب نهضتهم الطبية من فراغ, فإلى جانب الخيمة الطبية النبوية وطبيبتها كان للعرب أطباء. "وأشهر أطباء العرب الحارث بن كَلَدة بن عمرو بن علاج, أحد بني ثقيف من أهل مدينة الطائف. كان الحارث بن كلدة قد تعلم الطب في فارس على يد جماعة من أهل جنديسابور, وبرع في الطب ومارس الطب في فارس نفسها وجمع مالا كثيرا, ثم عاد إلى الطائف, وعاش الحارث حتى أدرك معاوية ومنهم النضر بن الحارث بن كلدة ابن خالة رسول الله. تعلم النضر الطب من أبيه ثم تطوف بالبلاد ودرس الفلسفة والطب. إلا أنه كان شديد العداء لرسول الله, وقد حارب المسلمين في معركة بدر... ومنهم بن أبي رمثة" **95** ومن أطباء العرب الجاهليين ابن حُذيم, وزينب طبيبة بني أود المتخصصة في علاج أمراض العيون طبيا وجراحيا وعبد الملك بن أبجر الكناني, وابن آثال النصراني, وأبو الحكم, وحكم الدمشقي, وسبق لنا الحديث عن النساء الطبيبات قبل الإسلام.

استوعب المسلمون الدروس النبوية لذلك بادروا فور حصولهم على مراجع قديمة في علم الطب والدواء من يونانية وهندية وفارسية ليتعهدوها بالدراسة والتمحيص والتصحيح والإضافة ثم قدموا إنتاجهم في شكل مصنفات كُتبت بلغة أدبية بليغة وراقية وصياغة تعابير سهلة الفهم, وأضاف العرب فروعا طبية كثيرة لم يعرفها السابقون وهكذا حتى صار الطب عربي الجوهر والموضوع. إنتقل المسلمون بفضل ما حققوه من تقدم من وضع الكتب إلى كتابة المصنفات والمباحث الشاملة لكل ما عرفوا في علم الطب. معظم أعمال العرب أتلفها أعداء الإنسانية والعلم ولكن لا يزال مبحث ثابت بن قرة في القاهرة بمصر شاهدا حيا على إبداعات المسلمين. لقد ضمنه كل ما عرفه العرب في علم الصحة والدواء والأمراض العامة والباطنة, وعن أمراض الجسم من الرأس حتى الأطراف مرورا بالصدر والمعدة والأمعاء. كما خص بابا للحديث عن الأمراض المعدية ومن بينها الحصبة والجدري. ضمن مبحثه الشامل كذلك الحديث عن السموم والمناخ وعن الكسور والفكوك والأطعمة والأغذية عامة, وعن الحمية وحتى عن الجنس. شرح كل مرض بالتفصيل موضحا أسباب وقوعه وأعراضه وطرق علاجه وكل ما يتعلق به في لغة واضحة وبليغة.

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**94. د. فروخ / العرب في حضارتهم وثقافتهم / ص 141** **.**

**95. هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 277**

(قبل (برسيفال بوت Percival pott) ب 700 سنة إهتم الجراح العربي "الزهراوي" أيضا بالتهاب المفاصل وبالسل في خرزات (فقرات) الظهر الذي سُمي فيما بعد باسم الإنجليزي ( بوت ),بالداء البوتي. وأوجد لمسات جديدة في حالة سقوط يد أو ركبة أو وضعه المسمى بوضع الأرجل "تقدم الأرجل من باب الرحم على الرأس"... وهو أول من أوصى بولادة الحوض, وهي الولادة المسماة حديثا باسم تسمى حاليا باسم إخصائي أمراض النساء (وولشر Walcher) المتوفى عام 1935 م.). **96** عالجوا ولأول مرة في التاريخ البشري تقدم وجه الجنين من باب الرحم على بقية الأعضاء, وكذلك لأول مرة أوصوا بولادة الحوض التي كان يمتنع عنها السابقون عن المسلمين كما أجرى علماء الطب المسلمين عمليات على المهبل الذي إخترعوا له مرآة خاصة, وصنعوا آلة لتوسيع الرحم. كما سبقوا الجراح الفرنسي (إمبروازيه باريه Ambroise Pare) في إيقاف نزيف الشرايين الكبيرة بربطها وذلك قبل خمسة قرون قبل أن يدعى (باريه) ذلك إليه عام 959 ه = 1552 م.

كتب العرب في أمراض العيون مباحث هامة فاقت من سبقوهم بفضل إكتشافاتهم العظيمة في علم البصريات العربي بلا منازع فكان أول كتاب شامل في العين هو (العشر مقالات عن العين) لأسحق بن حنين الذي ظل وما وصل الغرب من كتب علي بن عيسى وعمار الموصلي المراجع الأولى في طب العيون حتى القرن الثامن عشر الميلادي. تناولت أعمال العرب في العين وأمراضها كل شيء مثل رمد العين الذي حددوا أسبابه وأقسامه وطرق علاجه, وبرعوا في عملية قدح الماء الزرقاء وهي عملية لا زالت إلى اليوم تحفها بعض المحاذير رغم أن العرب كانوا يعتبرونها من العمليات العادية التي قد يقوم بها الجراح الحديث التخرج وبنجاح. كانت للجراحين المسلمين العديد من المعدات الخاصة بالجراحة التي إحتاجوها في وقتهم وهذه صورة لبعض تلك الآلات كما نشرتها المؤرخة الألمانية زغريد هونكة: **97**

كان الأطباء العرب ينصحون بالمواد الغذائية حيث تشفي وتنفع قبل اللجوء إلى الأدوية والعقاقير. عند وصفهم للدواء عادة ما يبدؤون بالدواء البسيط قبل ذلك المركب. أما علاج الأمراض فقد كانوا يصنعون نفس ما يصنعه أطباء عصرنا إلا بفارق ما جد من تقنيات, ولا زالت الكثير من مراجع الطب العربية صالحة ومفيدة في زماننا. مثلا وصفهم للجدري والحصبة كمرضين إثنين وليسا مرضا واحدا كما عامله السابقون. هذا مقطع من وصف الرازي لهذين المرضين كما هو متداول اليوم بين أطبائنا:

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**96. زغريد هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 277 و278**

**97. د. هونكة / شمس العرب تسطه على الغرب / 571**

**أدوات طب الجراحة العربية - 98-**



""يسبق ظهور الجدري حمى مستمرة, وآلم في الظهر وحكة في الأنف ورعشة أثناء النوم. أهم أعراض وجود الجدري هي: آلام في الظهر مع حمى, لسعات من الألم في أنحاء الجسم, إحتقان الوجه, وأحيانا توجد تقلصات, إحمرار شديد للوجنتين والعينين, وشعور بالضغط في الجسم, وتنميل, وألم في الحلقوم والصدر مصحوبا بصعوبة في التنفس وكحة, وجفاف الفم, وثقل الريق مع بحة في الصوت, صداع وضغط على الرأس, والشعور بهيجان وقلق وعدم الراحة. يكون الهيجان والغثيان والقلق أكثر وضوحا في حالة الإصابة بالحصبة عنها في حالة الجدري, بينما يكون الألم في الظهر أشد في حالة الجدري منها في حالة الحصبة."" **99**

عرف العرب علم وظائف الأعضاء المسمى اليوم أجنبيا (فيسيولوجيا) وعلم الصحة والإختصاص الطبي. تكاد مادة المسلمين العلمية هي ذاتها اليوم. كان لهم متخصصين في علاج أمراض العيون عُرفوا باسم (الكحالون) وجراحون ومتخصصون في أمراض النساء والولادة. كما كان لهم مجبرون ومخدرون وصيدلانيون وغيرهم كثير. كانت طرق تشخيص المرض لا تقل عما يتم اليوم في أفضل المستشفيات. كان الطبيب المسلم يجس نبض المريض ثم يفحص لسانه ليعرف إن تغير لونه وكذلك الحال بالنسبة للوجه والبول ويأمر بتحليل بوله إن لزم الأمر, وهذه الطريقة لإبن سينا لا زالت معمولا بها إلى اليوم وكذلك كما هو اليوم كان الطبيب يسأل المريض عن كل شيء خاصة عما يتعلق بحياته العامة والخاصة. كان الطبيب ينصح مريضه بعدم التردد على أكثر من طبيب لما في ذلك من سلبيات وربما أضرار, وهذه نفس النصائح التي يكررها أمهر أطباء عصرنا وخاصة في الدول المتقدمة. بعد التشخيص بدقة يكتب وصفة طبية لصرف الدواء من الصيدلية أو يأمر بإيواء المريض في المستشفى. إهتم أطباء العرب بمرض السرطان, فقد أعطاه الزهراوي وصفا للعلاج

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**98. زغريد هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 571**

**. T. Arnold & A. Guillaume “The Legacy of Islam” PP. 323-324 99**

لا يزال متبعا في عصرنا الحالي, وهذه نبذة مما كتبه في كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" :

* "في علاج السرطان وكيف السبيل إلى علاجه بالأدوية والتخدير, عن علاجه بالحديد لئلا يتقرح, وقد ذكرنا السرطان المتولد في الرحم والتخدير من علاجه. ذكر الأوائل أنه متى كان السرطان في موضع لا يمكن استئصاله كله, لا سيما متى قدُم وعظُم, فلا ينبغي أن تقربه, فإني ما استطعت أن أبرئ منه أحدا, ولا رأيت الغير والكل كذلك. أما إذا كان مركزه حيث يمكن إخراجه, كالذي في الثدي أو في الفخذ ونحوهما من الأعضاء, لا سيما إذا كان مبتديا صغيرا, فالعمل فيه أن نسهل العليل مرات من السوداء, ثم نفصده, إن كان في العروق إمتلاء من دم. ثم ننصب المريض نصبة نتمكن فيها من العمل, ثم نلقي في السرطان السنانير التي تصلح له, ثم نُقوره من كل جهة مع الجلد على استقصاء حتى لا يبقى منه شيء من أصوله. واترك الدم يخرج ولا تقطعه حتى لا يبقى منه شيء من أصوله, واترك الدم الغليظ يسيل كله بيدك أو بما أمكنك من الآلات, فإن عرض في عملك نزف دم عظيم من قطع شريان أو وريد, فاكْو العرق حتى يقطع, ثم عالجه بسائر العقاقير والعلاج, والله الشافي." **100**

بما أن الأطباء كانوا كذلك فقهاء في العلوم الدينية لذلك كانوا رحماء بالمرضى ويعاملونهم بالصبر وحسن المعاملة والتجاوز عن أخطائهم. تزداد معاملتهم تلك في حالة علاجهم للمصابين بالجنون أو أي مرض نفسي أو عصبي. لذلك كله كان المريض يشفى بإذن الله بسرعة. كانت للمسلمين مستشفيات مختصصة يقوم عليها أطباء متخصصين في المرض الذي كانت تعالجه. يمكن القول أن العرب أقاموا كل أنواع المستشفيات التي نعرفها اليوم, وبدأوا ذلك مبكرا. كان مستشفى المجذومين من التي قامت مبكرا حوالي العام 707 م, ومستشفيات للمجانين التي أسموها (بيمارستان الأبرياء) وأخرى للمصابين بالصرع وثالثة لمن كانوا يعانون من أمراض معدية وخطيرة, وصار لهم مستشفيات عسكرية ترحل مع الجيوش الفاتحة, وأخرى أقيمت في السجون منذ بداية العهد العباسي, لأنهم تعلموا من دينهم ألا يعذبوا أو يُهملوا صحة المذنب. كما أوصلوا خدماتهم الطبية إلى القرى والمناطق النائية بواسطة المستشفيات المتنقلة. عرفوا كذلك محطات الإسعاف المستعدة ليلا ونهارا, ولم ينسوا مآوي العجزة والعميان والأيتام. كان للمدن الكبيرة مستشفيات عامة كبيرة ملحق بها قسما للإسعاف السريع ولها أوقاف عظيمة الشأن كي تبقى تخدم الناس مجانا ولو كانوا من الأغنياء. عندما نقول أنهم أقاموا المؤسسات الصحية فلا يجب أن يعتقد المرء أن المرضى لم يعرفوا الأطباء قبل ذلك, وقد سبق لنا الحديث عن الطب عند عرب الجاهلية الذي تطور منذ زمن مجتمع المدينة المسلم الأول في التاريخ.

لم يبرع الأطباء المسلمين في العلاج بالعقاقير فقط, بل برعوا في علاج كل الأمراض مثل تلك النفسية. هذه روايتين لحالتين من هذا النوع عالجهما ابن سينا للتدليل على ما نزعم:

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **فروخ و.... / تاريخ العلوم عند العرب / ص 176**
2. أصيب أمير شاب بمرض عصبي فامتنع عن الطعام وتخيل نفسه بقرة فصار يصرخ في الحرس ليذبحوه وإطعام الناس من لحمه. تناول ابن سينا سكينا وظل يتحسس جسد ورقبة الشاب بالسكين ويقول بصوت عال بأنها هزيلة ويجب إطعامها جيدا قبل ذبحها. صار الشاب يأكل وقد دس ابن سينا الدواء في الطعام وهكذا ظل به حتى شُفي. كانت لهارون الرشيد جارية أصيبت بالشلل الهستيري, فاستدعى لها الطبيب جبريل بن بختيشوع الذي عرف مرضها فاستأذن الرشيد قيامه بحيلة فأذن له ثم طلب أن (تخرج الجارية أمام الجمع والحشد من الرجال. فخرجت, وحين رآها جبريل أسرع إليها ونكس رأسها بقوة وأمسك ذيلها موحيا لها أنه يريد تعريتها وخلْع ثوبها أمام الجميع. فانزعجت الجارية وصُدمت لهذا التصرف, فأرادت الدفاع عن شرفها وكرامتها, فدفعها ذلك إلى أن تبسط يدها المشلولة إلى أسفل لتمسك ذيلها وتستر جسدها. فالتفت جبريل إلى الخليفة وقال له: لقد برئت يا أمير المؤمنين.) **101**

**الصيدلـــــــــــــــــــــة**

قال رسول الله عليه السلام ( أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء)**102** كان للعرب قبل الإسلام دراية بالأدوية والعقاقير وكانوا يُصنعونها متى إحتاجوا لها ولكنهم لم يعرفوا الصيدلية رغم أنهم أبدعوا في إنتاج الدواء. مثلا أنتجوا بلسم لشفاء الجروح لم يعرف الغرب مثله إلا في القرن العشرين وهو حصولهم على المواد المضادة للجراثيم (البنسلين) من سروج الحمير. كما نفخوا غبار الخبز في الحلق الملتهبة لتشفى ولهم أدوية أخرى تحتاج لمجلدات كي تُذكر كلها. لما جاء الإسلام شجعهم على ذلك مما جعلهم يبدؤون الإنتاج الدوائي بجدية أكبر. بدأ الأطباء المسلمون تحضير الدواء بأنفسهم معتمدين المنهج التجريبي والقياس كمعيارين لإنتاج الأدوية. مع تزايد الأطباء وتوسع الخدمات الطبية وُجد متفرغون للإنتاج الدوائي. كانوا يفضلون النباتات والأعشاب الطبية على غيرها في صنع الأدوية. لذلك كثرت البحوث والتجارب المخبرية للأعشاب والنباتات الطبية. أنتجوا كذلك أدوية من الخضروات والفواكه التي وصفوها في مصنفاتهم بدقة متناهية محددين خصائص كل نوع والدواء الممكن الحصول عليه منه. مثل كل العلماء كان منتجوا الأدوية يضعون كل شيء في مصنفات ومخطوطات قيمة صالحة لإعداد صيادلة أكفاء.

لخطورة الدواء والعقاقير أخضع المسلمون الصيادلة والتجار الذين لهم علاقة بالدواء ومواده الخام للمراقبة الشديدة والتفتيش المفاجئ من قبل المحتسب الذي كان يزور المواقع الخاصة بذلك مصطحبا معه الشرطة ليتأكد من جودة الإنتاج وصلاحيته وسلامة عرضه ومكوناته فكان يعاقب المخالف بدون تردد أو محاباة. كانت الأدوية تُحضر حسب التعليمات المدونة في كتب خاصة كانت تُسمى (كتب الأقراباذين). علما بأن الصيدلية لم تكن معروفة قبل العرب, لذلك فهي إختراع عربي إسلامي بامتياز. كانت دكاكين بيع الدواء تُسمى (دكاكين العطارين) وهي تلك التي تبيع الدواء أو الملحقة بالمستشفى لصرف الدواء للمترددين أو المقيمين فيها. مثل الأطباء لم يكن الصيدلاني أي العطار يمارس مهنته إلا بترخيص رسمي بعد إجتيازه الإختبار الخاص

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **فروخ و ... / تاريخ العلوم عند العرب / ص 180**
2. **فروخ / العرب في حضارتهم وثقافتهم / ص 140**

**صيدليـــــة إسلاميـــة 103**



بنجاح. كانت أول صيدلية عرفها الإنسان قد وُلدت في بغداد عام 708 م. كما كان للأطباء رئيسا كان للصيدلانيين عميدا كان يمتحنهم ليرخص لمن يجتاز الإمتحان بنجاح.

عرف البيروني الصيدلاني على النحو التالي: "الصيدلي هو المحترف بجمع الأدوية على أحد صورها, واختيار الأجود من أنواعها مفردة ومركبة على أفضل التراكيب التي خلدها له مبرزو أهل الطب." **104**كانت العقاقير الأصلية تُسمى "الأدوية المفردة", أما إذا إجتمعت فهي "الأدوية المركبة". كان العرب أول من استخدم القهوة لعلاج أمراض القلب واستخدموها في شكلها المطحون الناعم لعلاج إلتهاب اللوزتين والزحار والجروح الملتهبة. كما استعملوا الكافور لإنعاش القلب , والتمر هندي لإيقاف القيء والإسهال, ولهم الكثير من الأدوية الخفيفة وغيرها .

صاحب إزدهار الطب وإنتشار المستشفيات إزدهار الصيدلة وبالتالي عظم الطلب على المواد الخام للإنتاج الدوائي. إنتشرت مزارع خاصة بالنباتات والأعشاب الطبية. لتنويع المواد الخام كان المسلمون يجوبون العالم بحثا عن بذور أو نباتات جديدة أو أنواع أفضل مما هو عندهم وكذلك عن عقاقير جاهزة غير معروفة في ديارهم. كانوا أول من استخدم الإسفنجة المخدرة لتكون إختراعا عربيا خاصا. كانوا يضعونها في عصير من الحشيش والأفيون وست الحُسن والزؤان ثم تُجفف في الشمس وعند الحاجة لتخدير المريض تُرطب ثانية وتوضع على أنف المريض فيتم تخديره حتى لم يعد يشعر بألم العملية الجراحية.

كالعادة صاحب النشاط الصيدلاني توفير المراجع المختصة من قبل الصيدلانيين والأطباء على حد سواء والتي كانت في جودة كتبهم الطبية وصلاحها كمراجع ومناهج تعليمية وشاملة لكل ما عرفوا حتى الساعة. ألف

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **زغريد هونكة / شمس العرب تسطع على العرب / ص 574**
2. **شوقي أبو خليل / الحضارة العربية الإسلامية / ص 307**

الرازي أول كتاب عن الأعشاب اليونانية فتحدث فيه عن 558 نباتا طبيا. والرازي كان أول من أدخل المركبات الكيميائية كعلاجات طبية. وصف ابن سينا (760) عقارا في مصنف صالح لإنتاج الدواء وتعليم طلاب الصيدلة كيفية إنتاج الدواء من كل صنف ولما يصلح له. أما ابن البيطار ذو الباع الطويل في هذا المجال فقد وصف ألفين من النباتات والأعشاب الطبية وصفا دقيقا ومفصلا وضعه في كتابه الشهير (الجامع الكبير), وهكذا كان لكل دوره حيث إستطاع مما دفع بكل علم نحو التطور وبسرعة فائقة.

**المستشفيـــــــــات**

كان العرب أصحاب أمانة ويحفظون للغير فضله ولو لم يقدمه لهم شخصيا. لم يترجموا شيئا للسابقين, وقد ترجموا كل تراث الأولين الذي وصل أيديهم, ويدعوه لهم كما فعل الأوربيون حين ترجموا التراث العلمي العربي, وما تبنوا أمرا وزعموا أنه من إختراعهم لأن دينهم رباهم على الصدق والأمانة. لم يُنكروا القول بأن أبقراط اليوناني كان أول من إخترع المستشفى حين خص موضعا قرب داره في بستان له وأقام عليه خدما لعلاج المرضى وأسماه "مجمع المرضى", ولأنهم قلدوا نظام المستشفى من الفرس حيث كان يسمى بلغتهم (بيمارستان) بمعنى "موضع المرض" كون العبارة مكونة من "البيمار" وهو المرض بالفارسي و"ستان" التي تعني "موضع" فأبقى العرب الإسم على حاله بأن استخدموه كإسما لمستشفياتهم إعترافا منهم بفضل الفرس. ما أن عرفوا هذا النظام حتى نشروه في أنحاء وطنهم العظيم الإنتشار وتولوه بالتطوير كما وكيفا. لكثرتها ورغم شدة الدمار الذي ألحقه المغول وغيرهم ممن تمكن يوما من دار الإسلام فقد ظل عدد لا باس به من هذه المستشفيات صامدا ليحكي لنا قصتها. كما وصلتنا معلومات وافيه عن كل شيء يتعلق بتلك المستشفيات, من الميزانية ورواتب الأطباء وغيرهم, وعرفنا أن رئيس الأطباء والأطباء يحاضرون كذلك لتخريج الأطباء الأكفاء. لم تكن المستشفيات مفتوحة لأي طبيب بل لم تكن تقبل إلا من إجتاز إختبار الأهلية الذي تحدثنا عنه سابقا ونفس الشيء مع العطارين (الصيادلة) والكحالين والمجبرين والمخدرين وحتى الحلاقين والطباخين وكل من يحتاج المستشفى لخدمته. دائما الكل تحت المراقبة والمتابعة بدون فتور أو توقف.

إتبع المسلمون منهجا لا يزال صالحا إلى يومنا هذا عند إختيار المكان لإقامة مستشفى. كانوا يحددون عدة أماكن تبدو صحية فيعلقون في كل منها قطعة لحم كبيرة ليفحصوها بعد مرور أربع وعشرين ساعة فيقيمون المستشفى في المكان الذي لم تتعفن فيه قطعة اللحم أو على الأقل ظلت أحسن حال من القطع الأخرى, وطبعا لابد أن يكون المكان أساسا بعيدا عن الضوضاء. كانوا يفضلون إقامة البيمارستانات على الروابي أو بجوار الأنهار. بل كانت بعض المؤسسات تقيم لعمالها مصحات خاصة بهم تقدم لهم العلاج والدواء بدون مقابل. كانت المستشفيات كاملة التأثيث وما الصورة المفترضة والمتخيلة المنشورة تحت إلا صدى لما أشرنا إليه عند الحديث عن المدارس وهو رغبة العرب في الجلوس والنوم على الأرض ورغم ذلك فقد كان للمستشفيات أسرة وكانت كل المفارش الأرضية أو السريرية وثيرة والأغطية ناعمة بيضاء وشديدة النظافة ومن أجودها والحمامات نظيفة ومرتبة بشكل يشبه تلك التي كانت في القصور, والماء يجري بالحمامات وكذلك الغرف. ( هونكة 229) عرفت الغرف التدفئة شتاء والتهوية صيفا, والطعام من أجودته وبه اللحوم بأنواعها ويقوم بإعداده طهاة محترفين حتى صارت تدفع بالبعض إلى التمارض فقط لينعموا بلذته.

زار أحد النبلاء مستشفى, أي أنه كان قادرا على توفير أفضل الأطعمة في منزله, فأخذ برائحة الطعام النفاذة في المستشفى "وعلى الفور قرر أن يتمارض, وأخذ يئن. أدخل المستشفى – نور الدين – وحين فحصه الطبيب لم يجد لديه أية علة, ولكن بعض الإستفسارات نبهت الطبيب إلى حقيقة أطماع ذلك الشره, وإلى أصل الداء عنده, فلم يكشف من أمره شيئا, بل أمر بنقله إلى جناح المرضى الداخليين, ووصف له وجبتين في النهار مما لذ وطاب من رقائق الحلوى بالعسل, وكبد الطيور, ولحم الدجاج, والفاكهة المطبوخة بالسكر والشراب. ومع ذلك, فقد كان يتمارض وهو في قمة السعادة, وبعد مضي ثلاثة أيام على هذه (الحمية) التي كادت تُفقد المريض كل مناعة, وتودي به إلى حتفه, قال الطبيب: لقد إنقضت الأيام الثلاثة للضيافة العربية, فامض مرتاح الضمير, يا رعاك الله." **105** ما أحوجنا إلى مثل هذا الطبيب اليوم من حيث أسلوب المعاملة حتى لو لم يستضيفنا في المستشفى.

من حيث التنظيم وتمشيا مع الشروط الإسلامية والحشمة العربية, كان كل مستشفى مكونا من قسمين: أحدهما للرجال والآخر للنساء وكل منهما يعتبر بيسمارستانا كاملا قائما بحد ذاته بقاعاته الفسيحة. كانت كل قاعة خاصة بمرض معين ويقوم عليها طبيب أو أكثر حسب الحاجة. كانت القاعات كثيرة بكثرة أصناف المرض, فمن قاعة الأمراض الداخلية, إلى تلك المتخصصة في أمراض العيون (الكحالين), وثالثة للمجبرين, وقاعة للولادة, وهكذا لكل صنف من الأمراض المعروفة قاعة لكل قاعة أطبائها ويرأس أطباء القسم رئيسا للأطباء. أما رئيس المستشفى فقد كان على رأس الإدارة ويُدعى "الساعور". ولكل مستشفى إلى جانب الأطباء موظفين إداريين ومساعدين صحيين ومضمدين وعمال نظافة وكل ما لزم من عناصر توفر الراحة للمرضى. كان المسلمون عالمون جيدا بما للترفيه من أثر على المريض ومساعدته على الشفاء بسرعة لذلك حرصوا على توفر سبل الترويح عن النفس في كل مستشفى وجعلوه من أصناف العلاج لا تكرما. لم يخلو بيمارستان من مكتبة تعج بالكتب خاصة ذات المواضيع الطريفة والمسلية, وبالقرب من المكتبة غرفة يقوم فيها عازف يشنف آذان الراغبين في سماع الموسيقى والغناء, كما وُجد المنشدون والقصاصون. ليس هذا فقط, بل كانوا يرعون المريض ويعملون على أن يُمضي فترة النقاهة في راحة تامة, فعلموا أن الأمر وحده لم يكن كافيا, لذلك كان كل من يغادر المستشفى يُعطى كسوة جديدة وخمس قطع من الذهب حتى لا يُضطر للعمل.

كان لكل مستشفى عيادة خارجية يقوم عليها أطباء مساعدين (مثل الممارس العام اليوم) وطلبة الطب ليستقبلوا الوافد الجديد من المرضى حيث يتم الكشف عليهم من قبل الأطباء ثم تُكتب وصفة دوائية لمن لم يكن في حاجة للإيواء وإلا يُحال المريض إلى رئيس الأطباء الذي يُعيد فحصه ثم يتولاه الممرض فيقوده إلى الحمام للاستحمام وارتداء ملابس نظيفة خاصة بالمستشفى وأخيرا يُأخذه إلى غرفته. كل صباح يمر رئيس الأطباء

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **شوقي أبو خليل / الحضارة العربية الإسلامية / ص 306**

يرافقه رهط من الأطباء والممرضين ليفحص المرضى ويُصدر أوامره فينفذها المرافقون كل حسب عمله. أليست هذه هي مستشفيات أرقى الدول في عصرنا وليس مستشفياتنا التي لا نملك القول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل؟ كما كان لكل مستشفى صيدلية تُسمى "الشرابخانة" تصرف الدواء مجانا بناء على وصفة من الطبيب. **الطبيب الشهير الرازي يتفقد مرضاه في مستشفى إسلامي 106**



لكل مستشفى إدارة ناجحة وسجلات دقيقة الترتيب والتبويب يدون فيها كل شيء وبدقة متناهية بفضل تزويد المستشفى بكل ما يلزمه من الطُقم الإدارية المؤهلة برئاسة أمير المؤسسة الصحية, ويقوم الحاكم المسلم, شعورا بالمسئولية, بزيارات مفاجأة فيسأل المرضى ليتأكد من حسن سير الأمور. أما الأشراف الطبي فكان من شأن كبير ورئيس الأطباء الذي كان يُختار بعد أن يتعرض لاختبار ينافس فيه الكثير من المنافسين. يُروى (أن الرازي قبل إختياره لمنصبه, إضطر أن يُبرهن على طول باعه وتضلعه في فن الطب أمام مائة منافس له أن يبزهم جميعا في المسابقة.)107 كان لرئيس الأطباء فريقا من المعاونين يضمون كل التخصصات المعروفة. لتعميم الخبرة, كان كل واحد من أولئك المختصين يترأس القسم لفترة ثم يتخلى عنه لزميله, وهكذا دواليك, مما ساعد على تعميم الخبرة في إدارة القسم, ثم لو غاب رئيس القسم تجد أكثر من واحد يحل محله ويدير القسم بدون إضطراب.

عرفنا فيما سلف من حديث عن مؤسسات التعليم وكيف نعمت بميزانيات كبيرة وثابتة بفضل نظام الوقف, وهكذا كان حال المستشفيات التي لعل مردود الموقوف عليها كان أعظم علاوة على التبرعات الآنية والسخية طلبا للأجر الأخروي. لذلك لم تكن المستشفيات تعاني من عجز مادي لمواجهة كل إحتياجاتها. قيل أم مستشفى المنصور كان يُنفق مليون درهم سنويا دون أن يتعرض يوما لعجز مالي رغم أن المستشفيات كانت,

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **د. هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 233-**

علاوة على المصاريف الإدارية من أجور ودواء وكل مستلزمات المستشفى, فقد كان يُصرف للمريض عند مغادرته له بدلة جديدة ومبلغا من المال يقيه العودة للعمل قبل إتمام فترة النقاهة المطلوبة. أين هذا مما عند حتى دول النفط الشديدة الثراء اليوم؟

"كما هو حادث الآن (عند المتقدمين فقط) فإنه يتم التفتيش على البيمارستان من قبل صاحب الحسبة بتفويض من الوزير أو الأمير ليتأكد من سلامة الخدمات التي يقدمها المستشفى وقيام كل العاملين, من رئيس المستشفى وإلى أصغر عامل بواجبه كما يجب, وبذلك تمكنت المستشفيات من البقاء ةأداء رسالتها بجدية فنية وعلمية وإدارية وبكفاءة عالية. (والجدير بالذكر أنه كان لكل مريض بطاقة يدون بها الطبيب ملاحظاته عند معالجته للمريض, كما كان لدى الطبيب سجل خاص يدون به الملاحظات عن الأمراض التي كان يعالجها, وكان الطبيب يضع تجاربه واختباراته بناء على هذه الملاحظات, وإذا ما استشكل أمر من الأمور على أحد الأطباء وقت تشخيصه إياه, كان يلجأ لرئيس القسم أو رئيس الأطباء, أو في كثير من الأحيان كان الأطباء يجتمعون ويتشاورون في أمر مريض, ولا شك أن هذا الحوار والتشاور يعتبر مؤتمرا علميا مصغرا بين الأطباء, وهو معمول به الآن)108 ولكن عند الدول المتقدمة وليس عندنا نحن أحفاد أولئك الأبطال في الحرب والسلم. لاشك أن ما كان يدور في المستشفيات يتحول إلى مصنفات ومراجع لطلاب الطب.

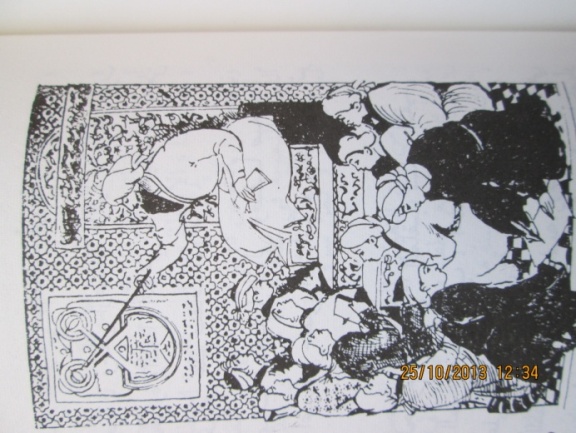
"لقد كانت المستشفيات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب.....حيث كانت التجربة العلمية هنا تسير مع العلم جنب إلى جنب, وتُجابه النظريات, على أسرة المرضى, حقائق المعاينة والكشف, وحقائق التجارب, فتُفند الظواهر تفنيدا علميا, وتُشبع الحالات المستعصية بحثا ونقاشا, وعلاجها تفصيلا وشرحا." **109** حتى عندما أثرى علماء الإسلام وأطبائه الأجلاء مناهج كليات الطب فقد ظلوا يُدرسون طلابهم ما قاله أبو قراط وجالينوس إلى جانب أعمال رجالهم المسلمين الذين طوروا الطب كثيرا حتى لم تعد للقديم من جدوى وفائدة كبيرة. لم تكن المستشفيات الكبيرة وحدها مقارا لعلوم الطب بل كان الجانب النظري يجده الطلاب في المساجد والمدارس وكذلك في مدارس طب خاصة يديرها أطباء. كانت المناهج تتدرج من المبتدي حتى التخرج وقد وفر لها العلماء الكتب المنهجية الصالحة لكل مرحلة.

**علــــم البصريــــــات**

علم البصريات هو ما نسميه اليوم بعلم (الفيزياء) لشعورنا بالعجز والدونية أمام الغرب فكأن تبني التسمية الغربية سيجعل منا متقدمين. مرت العقود العديدة منذ إستقلالنا السياسي ورغم ثراء بعضنا ثراء نفطيا فاحشا, فلم نزد إلا تخلفا في الجانب الحضاري. (أهم أبحاث العرب المسلمين في علم الفيزياء, الذي لم يُفصل عن علم الميكانيكا, كانت في مجال الضوء والصوت, وإذا ذُكر الضوء الذي يسميه العرب المسلمون علم البصريات أو علم المناظر, ذُكر رائد علم الضوء, حتى القرن السابع عشر الميلادي, ألا وهو أبو علي

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. **فروخ و ... / تاريخ العلوم عند العــــــــــــــــــرب / ص 506**
2. **شوقي أبو خليل / الحضارة العربية الإسلامية / ص 305**

****

**صورة من مخطوطة عربية تمثل طبيبا عربيا يشرح لطلابه**

**تصلب العصب البصري, وأمراض العين, وطلابه يُسجلون**

**على دفاترهم شروحه 110 (شوقي 297)**

محمد بن حسن البصري المعروف بابن الهيثم المتوفى عام (430 ه = 1038 م). **111** بدأ هذا العلم يأخذ صورته منذ عهد العالم المسلم الكندي (ت. 252 ه = 866 م) أي منذ بداية القرن الثالث الهجري حين وضع كتابا في اختلاف المناظر وآخر في اختلاف مناظر المرآة. جاء ابن سيناء ليؤكد أن البصر هو (قوة مرتبة في العصبة المجوفة تدرك صورة ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من أشباح الأجسام ذوات اللون المتأدية في الأجسام الشفافة بالفعل إلى سطوح الأجسام الصقيلة) **112**  فقلب بذلك النظريات السابقة رأسا على عقب والقائلة بأن الإبصار يحدث بخروج شيء من المبصر إلى المبصرات التي يلاقيها.

أنجز العرب الكثير في هذا العلم منها ما لم يسبقهم به أحد. مثلا, كان ابن الهيثم أول من شرح العين ولازالت مسائله في العين تُعرف في الغرب باسمه (Alhazen). توصلوا إلى طريقة مبدعة لقياس إرتفاع الغلاف الجوي فقدروه بحوالي عشرة أميال عربية, وعلل قُطب الدين الشيرازي (ت. 711 ه = 1311 م) قوس قُزح بدقة, فقال: "ينشأ قوس قُزح من وقوع أشعة الشمس على قُطيرات الماء الصغيرة الموجودة في الجو عند سُقوط الأمطار, وحينئذ تُعاني الأشعة إنعكاسا داخليا وبع ذلك تخرج إلى عين الرائي." 113  وأثبتوا أن سرعة الضوء أكبر بكثير من سرعة الصوت, ودرسوا ضغط جوف الأرض مما مكنهم من حفر ما نسميه اليوم بالآبار الإرتوازية وكانوا يسمونها "الينابيع". إخترع العرب الرقاص ووضعوا له قوانين كثيرة فكان عونا للفلكيين في حساب الفترات الزمنية أثناء رصدهم للنجوم. يؤكد الفرنجة أن قيمة إختراع الرقاص عظيمة ولا تقدر بثمن, ولولاه لما وصلوا هم اليوم بعلم الفلك إلى منزلته العالية التي نعرفه بها. ونفى علماء العرب علميا قول إقليدس **ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **شوقي أبو خليل / الحضارة العربية الإسلامية / ص 297**
2. **نفس المرجــــــــــــــــع / ص 323**
3. **عمر فروخ و .. / تاريخ العلوم عند العــــرب / ص 107**
4. **نفي المرجــــــع / ص 110**

وبطليموس بوجود أشعة تخرج من العين فيحدث الإبصار فأكدوا ما نعرفه إلى اليوم أن الأشباح تدخل العين منقولة إليها من خلال الرطوبة الزجاجية . كما مع كل علم وضع العلماء مصنفات منهجية ضمنوها كل ما عرفوه في علم البصريات أو المناظر.

أنجز العرب الكثير في هذا العلم منها ما لم يسبقهم به أحد. توصلوا إلى طريقة مبدعة لقياس إرتفاع الغلاف الجوي فقدروه بحوالي عشرة أميال عربية, وعللوا قوس قُزح بدقة, وأثبتوا أن سرعة الضوء أكبر بكثير من سرعة الصوت, ودرسوا ضغط جوف الأرض مما مكنهم من حفر ما نسميه اليوم بالآبار الإرتوازية وكانوا يسمونها "الينابيع". إخترع العرب الرقاص ووضعوا له قوانين كثيرة فكان عونا للفلكيين في حساب الفترات الزمنية أثناء رصدهم للنجوم. يؤكد الفرنجة أن قيمة إختراع الرقاص عظيمة ولا تقدر بثمن, ولولاه لما وصلوا هم اليوم بعلم الفلك إلى منزلته العالية التي نعرفه بها. كما مع كل علم وضع العلماء مصنفات منهجية ضمنوها كل ما عرفوه في علم البصريات أو المناظر.

**الحيــــل ( علم وصنعـــــة)**

إهتم العرب بعلم الحيل, أو "الميكانيكا" كما يسمى اليوم, منذ بداية نهضتهم حتى صارت بمثابة صناعاتهم الخفيفة التي كانت توفر للمسلمين إحتياجاتهم من الأجهزة والآلات والمعدات المختلفة الأغراض والإستعمالات وحتى مستلزمات الترويح عن النفس والتسلية. شهد هذا العلم قفزة هائلة على أيد ثلاثة إخوة هم: محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر الذي كان قاطع طريق قبل أن يُصبح عالما. عاصر عهد المأمون واشتهر بأزياجه. كما توصل إلى قياس المسافة التي تقابل درجة واحدة على خط الطول فوجدها 66 وثلثي الميل العربي أي 3600 , والميل يساوي 1973.3 مترا تقريبا وبذلك أمكن لهم قياس محيط الأرض. أما أولاده فقد برعوا مثل بقية علماء الإسلام في علوم عدة مثل الرياضيات والهندسة الميكانيكية والطب والحكمة والفلسفة.

ترك موسى بن شاكر أولاده الثلاثة صغارا عندما توفي فوجدوا الرعاية الكافية من الخليفة المأمون وفاء للصداقة التي ربطته بأبيهم. لم يخيبوا أمل والدهم ولا المأمون حين أخذوا نصيبا وافرا من العالم. (صار ثلاثتهم من أساطين العلماء فالأكبر برع في الميكانيكا, أوسطهم صار فلكيا أما ثالثهم فقد صار عالم رياضيات عظيم الشأن ومعا صنعوا معجزات في علم الحيل. لأولاد شاكر الثلاثة مباحث كثيرة قيمة وكبيرة في الحيل منذ حوالي العام 245 ه = 860 م لتكون أقدم المصنفات في العصر الإسلامي وأشملها تقريبا في هذا العلم مع العلم أنهم مترجمون كذلك. كتبوا في روافع المياه والدواليب أي النواعير المائية والموازين والساعات العاملة بالمياه. وصفوا في كتابهم "الحيل" عددا كبيرا من الآلات والأدوات الآلية العمل مثل أواني للشرب تُرسل أنغاما جميلة

---

أثناء إستخدامها وبشكل ذاتي. **114** ضم كتابهم ذلك وصفا لتركيب مائة جهاز فني, مثل أواني تحفظ الماء باردا أو ساخنا, وساعات تدق عند حلول كل ساعة وتعمل آليا بفعل الماء.

بعد أن تخلفنا صرنا اليوم نقف مدهوشين أمام ساعة البلدية الكبيرة التي تدق كل ساعة, بينما كان هذا الإختراع العجيب من إنتاج أجدادنا قبل 12 قرنا. لقد وصف (بنيامين تيوديل) إحدى هذه الساعات الضخمة عند الجامع الأموي بدمشق في القرن الثاني عشر ميلادية معتمدا على وصف (سلفستر دي ساسي) الذي بدوره كتب معتمدا على وصف ابن جُبير العربي الذي وصفها على النحو التالي:

""وعن يمين الخارج من باب جيرون في جوار البلاط الذي أمامه, غرفة لها هيئة طابق كبير مستدير, فيه طيقان صفر, قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار, ودبرت تدبيرا هندسيا, فعند إنقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من فمي بازين مصوران من صفر, قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد

منها. أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب والثاني تحت آخرها, والطاستان مثقوبتان, فعند وقوع البندقتين يعودان داخل الجدار إلى الغرفة وتُبصر البازين مادين عنقيهما بالبندقيتين إلى الطاستين ويقذفانهما بسرعة وبتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا, وعند وقوع البندقتين في الطاستين يُسمع لهما دوي, وينغلق الباب الذي هو بتلك الساعة للحين يلوح من الصفر. لا يزال كذلك عند كل إنقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود إلى حالها الأول, ولها بالليل تدبير آخر وذلك أن في القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة إثنتى عشرة دائرة من النحاس محزمة تعترض من كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة, يدير ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة, فإذا إنقضت عمم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاع فلاحت للأبصار دائرة محمرة ثم إنتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها, وقد وُكل بها في الغرفة متفقد لحالها دُرب بشأنها وانتقالها. يعيد فتح الأبواب وصرف الصنوج إلى مواضعها.""  **115**

يُروى أن الخليفة العباسي هارون الرشيد أهدى إحداها إلى (شارلمان) ملك فرنسا وذلك ردا على الهدايا التي قدمها للرشيد وفد من طرف الأخير الذي جاء يرجو خليفة المسلمين توفير الحماية لحجاج القدس من النصارى. ( مظهر 175) فكانت أعجوبة في القصر الملكي الفرنسي فما أن بدأت الدق عند حلول الساعة حتى استنفر الملك الفرنسي حراسه ظنا منه أن الملك العربي أرسلها له للتخلص منه ولو لا بعض الحضور العالمين بصناعات المسلمين فشرحوا له عملها لدمرها وهو على حق لأن من يجهل الشيء يسيء التعامل معه. ظلت تلك الحادثة مُلحة يتندر بها الناس عبر التاريخ. هنا تجدر الإشارة إلى أن العرب صنعوا ساعات صغيرة تُحمل في الجيب .

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**T. Arnold & A. Guillaume “The Legacy of Islam”, P. 321 .114.**

**115. جلال مظهر / مآثر العرب على الحضارة الأوربية / ص 176**

**ساعة عربية زمن كانوا عباقرة ر كما رُسمت حوالي عام 1200 م 116**



صنع علماء الحيل العرب معلفا تشرب منه الحيوانات الصغيرة فقط مما يحفظ لها حاجتها للماء من أن يُنهب من قبل الحيوانات الكبيرة. زود المسلمون الحمامات بخزانات مياه علوية, كما صنعوا آلات تُفرغ ما بها من سائل بكميات معينة وثابتة كل حين كما يحدد المهندس المسلم ذلك فنفعت الناس في وسائل الإضاءة وغيرها. إخترع المهندسون العرب أجهزة لتعيين كثافة السوائل, وقناديل ترتفع فتائلها لتعويض الجزء المحترق منها آليا وينسكب الزيت فيها كلما نقص عن الحد المعين والمطلوب. صنعوا نافورات وآلات تُحدث صوت تنبيه تلقائيا كلما ارتفع منسوب المياه في السواقي بالحقول الزراعية عن الحد المطلوب, وألعاب ميكانيكية لو وجد مثلها اليوم لفرح بها الأطفال. صنع العرب كذلك روافع للمياه ونواعير وموازين مختلفة الأشكال ولمختلف الأغراض . وصنعوا الكثير من الآلات التي إحتاجتها المراصد الفلكية والتي سبق لنا الحديث عنها عند الحديث عن الفلك ومراصده. أبدعوا في صنع الساعات حتى يقال اليوم أنهم كانوا سويسريو العهد الإسلامي.

**الزراعــــــــــة (علم وفلاحـــــة)**

للزراعة أهمية قصوى لدى كل الأمم لأنها مصدر الغذاء الذي هو من أسباب البقاء. لم يكن للعرب القادمين من تلك الصحراء القاحلة تلك الخبرة بالزراعة إلا في الحدود الضيقة جدا مما توفر لهم في بلادهم ولكنهم كانوا أمة معجزات, فقد فعلوا مع الزراعة ما فعلوه مع كل علم في شكل مدهش لا يدل إلا على أن للعرب عقلا عظيم العطاء خصهم الله به. بدأ العرب التعامل مع الزراعة وفي أراضي خصبة لم يعهدوها في بلادهم وكأنهم فلاحين محترفين لأنهم كانوا أمة جادة وذات رغبة لم تعرف حدودا لمعرفة وإتقان كل شيء. لذلك كانت بدايتهم ناجحة تتمشى مع النظرية القائلة وإلى الغد " لا زراعة قبل توفير اللازم من الماء". **ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **زغريد هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 567**

عمد العرب من فورهم إلى إحياء ما وجدوه من قنوات ري معطلة ومطمورة منذ قرون لإهمال الروم والفرس لها لحساب الحروب من أجل بسط نفوذهم, كما قل العاملون في الزراعة. على سبيل التمثيل فقط, فقد إستأجر عمرو بن العاص رضي الله عنه مائة ألف عامل لإحياء طرق الري في مصروفعل العباسيون أكثر, فقد "جددوا حفر قنوات قديمة واستحدثوا قنوات جديدة بالعراق وذلك فيما بين الفرات ودجلة حتى أضحى ما بين هذين النهرين شبكة من القنوات... وأطلقوا عليها كلها إسم النواظم, لأنها نظمت توزيع المياه بين الأراضي, وبذلك أعاد العباسيون إلى العراق شُهرته القديمة بالخصب والنماء, ولا سيما الجزء الجنوبي المعروف عندهم بالسواد." **117** ثم حفروا الآبار الإرتوازية وأقاموا السواقي التي بلغ محيط دولابها العشرين مترا وقد يصل إلى الثلاثين. القادمون من الصحراء التي يقل المطر فيها ما بالك بالثلوج يُصبحون روادا للناس في المناطق الثلجية. أقام العرب أحواضا بلغت مساحة بعضها 5 كم2 لتجميع الثلج فيها ومدوا منها قنوات إلى الأراضي الصالحة للزراعة يتم فتحها في فصل الصيف عندما تقل الأمطار ويذوب الثلج فتنساب المياه من الجبال والمرتفعات لتغذي تلك الأحواض بدلا من الجريان هدرا أو ضررا, فعمروا أراضي في سفوح الجبال كان الناس يظنون أنها لن تعرف الزراعة ولا الحياة يوما. أليست هذه الإبداعات الفلاحية من العبقريات؟

بعد أن اطمأن العرب إلى توفر المياه اللازمة لقيام زراعة جادة ومنتجة, بدؤوا تقديم إبداعاتهم الفلاحية فنوعوا المحاصيل بنقل بعض النباتات والأشجار من حيث هي معروفة إلى حيث لم تكن معروفة مثل نقلهم لقصب السكر من فارس إلى الشام ومصر ومنهما نقله الأوربيون إلى قارتهم زمن الحروب الصليبية. كما نقلوا رفيقة عمرهم وحياتهم في شبه جزيرتهم (النخلة) إلى عدة مناطق لم تعرفها من قبل مثل الأندلس التي كانت أول النخلة غرسها العرب فيها أما لكل نخيل القارة الأوربية.

كما مع كل علم جعلوا من الزراعة والفلاحة علما يُدرس وضعوا له مصنفات وأقاموا له المختبرات وكل ما يلزم تخريج مهندسين أكفاء. كان الدنيوري, المتوفى عام 282 ه = 895 م مهندس ومؤرخ نباتي, ربما أول مهندس زراعي أرَخ للنبات في كتابه القيم "النبات". بالعلم تمكن المسلمون من تطعيم الكثير من النباتات والأشجار لتُعطي ثمارا ذات صفات جديدة, فأخرجوا, مثلا, أزهارا جديدة بمزاوجة الورد البري مع شجر اللوز. كما طوروا طرق التطعيم والتهجين حتى صارت مزارع الأندلس تُنتج منذ القرن العاشر الميلادي قمحا ذا صفات جديدة مثل القمح الصلب الذي لا يقترب منه السوس ولو بقي مخزنا لعشرين عاما وأكثر. هكذا حتى جعلوا للمحصول الواحد أنواعا كثيرة. كان لهم 360 صنفا من التمر وكأنهم جعلوها بعدد أيام العام الهجري, وكان لهم ثمانية وسبعين نوعا من العنب وهلم جرة. بالعلم صارت أرض الإسلام تُنتج أربع مرات في العام بفضل طريقتهم في حمل محصول على آخر. وأورد ابن رافد الأندلسي في مصنفه "الزراعة" نظرية جنس النبات إن كان ذكرا أم أنثى. اليوم سمعنا أن أسبانيا عادت إلى موروثها الإسلامي حين صارت تُطعم الصنوبر الأسباني بالصنوبر الحلبي السوري وبنفس طريقة العالم المسلم ابن عوام الأشبيلي قبل عشرة قرون.

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **العبادي وزيادة والعدوي / الدولة الإسلامية ..../ ص 37**

أدبيا وتعليميا وُجدت فصول حول الزراعة وما يتعلق بها في كل كتب العرب وخص البعض الزراعة والفلاحة بمصنفات مثل أبو زكريا يحيى بن محمد العوام الأشبيلي المتوفى عام 586 ه الموافق لعام 1190 ميلادي الذي خط كتاب "الفلاحة" ضمنه من بين ما ضمنه تحليلات للتربة فذكر أنواعها والأسمدة الصالحة لكل نوع, كما شرح طرق زراعة 585 نباتا وخمسون نوعا من أشجار الفاكهة وطرق تطعيم كل نوع والأمراض التي تصيبه وطرق علاجها وغيرها من المعلومات الهامة. والحديث يطول عن إبداعات العرب في النظريات الزراعية وتطبيقاتها المبهرة والكتب المدرسية الصحيحة التي أعطت العالم المزيد من العقول المنتجة والمبدعة.

**الصناعــــة والتعديـــــن**

ما من أمة يمن الله عليها بالنهوض الحضاري إلا وتكون لها صناعات مختلفة حتى لو كانت أمة زراعية كما كان معظم العالم في زمان نهضة العرب, ودائما كان الدين والقرآن الكريم في المقدمة ودروس النبي عليه السلام نبراسا لكل علماء الإسلام. كان العرب أهل بَر وليس لهم خبرة بالبحر, بل كان معظمهم يخافون ركوب الماء ولا يخافون الحرب والموت. ما أن تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة حتى أمكن للمشجعين لركوب البحر من إقناعه بالإذن بذلك لأن من سبقاه, أبو بكر وعمر رضي الله عنهما, لم يأذنا بركوب البحر لشدة حرصهما على أرواح رعيتهما. لعلي لا أخطئ إذا قلت أن صناعة السفن كانت الصناعة المسلمة الثقيلة الأولى. هكذا صنعوا السفن وركبوا البحر وبجرأتهم المعتادة كانت أول تجربة لهم مع الحرب البحرية هي معركة ذات السواري الشهيرة في التاريخ التي وقعت عام 649 م بين الأسطول البحري العربي الوليد والأساطيل البيزنطية ذات التاريخ الطويل والخبرة الكبيرة والقديمة, وانتهت المعركة البحرية الأولى للمسلمين بأخذهم جزيرة قبرص. ثم توالت صناعة السفن ليس لغرض الحرب فقط بل ولكل الأغراض المدنية المعروفة وقتها.

أرسل المجاهدون في سمرقند أسرى صينيون إلى دار الخلافة عام 133 ه = 751 م, ونتيجة ما وجدوه من معاملة إنسانية لم تكن لتخطر على بال أحد في كل العالم وقتها واليوم كذلك, أبدوا إمتنانهم للمسلمين فكشفوا لهم عن سر صناعة الورق التي كان الصينيون يعرفونها منذ العام 105 م ولم يسمحون بإفشاء سرها. كأن الخالق كان يُكافأ المسلمين لقوة عقيدتهم بتوفير كل ما كانوا في حاجة ماسة له ولم تكن لهم به معرفة. مرة أخرى بعد السفن قامت صناعة الورق بدءا بعاصمة الخلافة ثم صارت مطاحن الورق في كل مكان مناسب وهي صناعة أراحت العلماء من التعامل مع الجلود وغيرها إلى جانب سرعة النسخ وعلى كم خفيف من المادة المكتوب عليها. طور المسلمون هذه الصنعة حتى أنتجوا الورق الناعم والأبيض باستخدامهم للكتان والقطن في إنتاجهم العظيم. لعلهم بذلك بزوا الصينيين كما فعلوا مع علم الحساب وخاصة الأرقام الهندية. نقول لعُباد الغرب بأننا لم نبالغ في شيء بل لعلنا قصرنا فإن لم يصدقوا ولو بما يتعلق بصناعة الورق الراقي فما عليهم إلا " بذلك الكتاب الغريب الحديث الذي كُتب سنة 866 م ويُرجح أنه أقدم كتاب كُتب على الورق ويوجد الآن بجامعة (ليدن) بألمانيا, وكتاب آخر كُتب في عام 960 م لطبيب عربي في تغذية مختلف أعضاء الجسم يُعتبر أقدم كتاب كُتب على الورق هو الآخر وله إقامة دائمة في المتحف البريطاني. 118

الأندلس العربية الإسلامية نجدها دائما شاهدا على أنها كانت أهم مشكاة أضاءت بنور علم المسلمين عالم الغرب. منها عرف الأوربيون الورق ثم صناعته في مطحن للورق أقيم في (فيريانو) الإيطالية عام 1340 م, ثم إنتقلت صناعة الورق إلى باقي مناطق أوربا. أي بعد قرنين ونصف القرن من كتابة أول وثيقة أوربية على الورق في صقلية عام 1090 م طبعا على ورق عربي الذي ورثه حكام الجزيرة عن العرب. أقيم أول مطحن للورق في مكة المكرمة عام 707 م, ثم في بغداد سنة 794 م, وفي مصر عام 800 م, وفي الأندلس عام 950 م, وصقلية عام 1102 م, وإيطاليا 1154 م (الأول من نوعه عند الأوربيين), وألمانيا 1228 م, وإنجلترا 1309 م. ثم فريانو كما ذكرنا أعلاه. هكذا يتضح أنه عندما كان العرب لهم مطاحن الورق لم يكن الأوربيون يكتبون إلا على الرق أي الجلود.

تعددت وتنوعت الصناعات العربية وإنتاجها. أشرنا فيما سبق إلى صناعة الثلاجات الضخمة لنقل المحاصيل الزراعية والفواكه طازجة من مناطق بعيدة وهي حاويات من الرصاص المبطن بالثلج. صنع المسلمون كل ما إحتاجوا له من الطنافس والبسط والسجاد والأقمشة المختلفة الخامات والألوان الزاهية المصنوعة من الحرير والقطن والصوف وقد نالت شهرة عالمية حتى عُرفت بأسمائها العربية خارج بلاد العرب. كما قامت معامل حياكة الملابس الجاهزة أو حسب الطلب بل وصنعوا حتى المناديل الحريرية. كان الزجاج العربي محط إقبال العالم كله لما تمتع به من جودة من حيث النقاء والصفاء والرقة. أنتج العرب الفسيفساء والقيشاني لتزيين مبانيهم. وكانت المرأة تملأ مطبخها بالأواني المنتجة في المصانع العربية.

يحث الإسلام أتباعه على الظهور بالمظهر الجميل والرائحة الطيبة لذلك تنوع إنتاج العطور عندهم حتى أنهم كانوا يُنتجون عطورا بمواصفات خاصة في معامل مكة المكرمة, ولم ينسوا الترفيه مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم (يا أبار ذر ساعة وساعة) ولعلمهم بأن النفس إذا كلت ملت وإذا ملت تخلت. لذلك أنتجوا الكثير من المنتجات الترفيهية مثل ورق اللعب والشطرنج والداما التي لا زالت تحمل إسمها العربي إلى اليوم. لم تقتصر صناعاتهم الحربية على السفن بل صنعوا البارود والصواريخ التي وضعوا لها نظرية البارود المندفع في منتصف القرن (13 م) ويُرجح أنهم استخدموا تلك الصواريخ في معركة جرت في القرن التالي فدكوا بها حصون الأعداء.

من البديهي ألا تقوم لأمة أي صناعة ما لم توفر المادة الخام لها مقدما. ساعد التقدم العلمي العربي أمة الإسلام على التعرف على الكثير من المواد الخام الكامنة في بطن الأرض, فأقاموا لاستخراجها مناجم كثيرة لتوفير المادة الخام للكثير من الصناعات إلى جانب المواد الخام الزراعية وتربية دودة القز للحصول على

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

1. **جلال مظهر / مآثر العرب على الحضارة الأوربية" / ض 182**

الحرير الراقي والأصيل. كثرت المناجم حتى لم يعد في الإمكان ذكرها كلها في مكاننا هذا ولكننا نكتفي بذكر بعضها. (استخرج المسلمون الذهب والفضة والمرمر من جبال خراسان, والزئبق والياقوت من جبال ما وراء النهر, والرصاص والفضة من كرمان واللؤلؤ من البحرين والحديد من جبال لبنان.) **119** دائما نقول أنه من الطبيعي أن يتحول كل شيء إلى علم يُدرس ويُخرج المهندسين بفضل حرص المسلمين على تقديم معارفهم في مصنفات صالحة للتعليم وإعداد الرجال الأكفاء والمبدعين.

**فن العمــــــارة والزينــــــة**

يقول الحق تعالى في الآية 90 من سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) صدق الله العظيم. يقول بعض الكتاب المسلمين أنها الآية الوحيدة في كتاب الله التي فَهم منها علماء الشريعة والفقهاء أنها تُحرم كذلك التصوير والرسم والنحت. "أما الصور على المسطحات كالورق والثياب والسُتور والجدران والبسط والنقود.. فالقول لا حُرمة فيها." **120** وأما الآيات الأكثر إعتمادا عليها لتحريم ذلك فهي التي تتحدث عن صناعة الأصنام والأوثان للعبادة ومنها الآية أعلاه. لما سُئلت أمنا عائشة رضي الله عنها عن حديث للنبي صلى الله عليه وسلم يُقول: لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تماثيل, فأنكرت سماعها لمثل هذا الحديث .

أيام العباسيين بدأ الناس يتقبلون التماثيل لابتعادهم عن عصر عبادة الأوثان, إذ لا خشية من العودة إلى تقديسها, أو عبادتها, فأقام المنصور فوق قبة قصره ببغداد تمثال فارس بيده رمح, وأنشأ الأمين حراقات على نهر دجلة في أشكال الأسود والنسور والحيتان,وجعل المقتدر في قصره تماثيل فرسان وطيور. **121** لا أحد يشك في حسن إسلام العباسيين ولو علموا أن ذلك حرام لما سمحوا به قط والله أعلم. إذا لنرى ما كان من المسلمين قبل هذه المرحلة من فن بديل زمن التحريم أو المنع فأخرجوا فنا ظل وإلى يومنا هذا أروع من كل نحت أو تصوير أو ما شابه. ذلك هو فن الحرف العربي والزركشة. أبدع المسلمون في إستخدام الحرف العربي لتزيين أحب الدور إلى قلوبهم وهي المساجد ثم نقلوه إلى المنازل والقصور والسجاجيد والجرار والأواني الفخارية والزجاجية والأطباق والمزهريات والنافورات وغيرها. كان هذا الفن من الروعة أن قلدهم حتى النصارى, أعداء الإسلام والمسلمين. هذا (أوفا) ملك (مرسية) (757-796 م) سك عملة يتداولها كل شعبه على نفس نمط الدينار الإسلامي ولا زالت قطعة منها سُكت عام 774 م رابضة في المتحف البريطاني كشاهد على العصر إلى اليوم. **122**

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**119. العيادي و ... / الحضارة العربية تاريخها وحضارتها) / ص 40**

**120. شوقي بو خليل / الحضارة العربية الإسلامية / ص 351**

**121. نفس المرجع / ص 353**

**Arnold & Guillaume / The Legacy of Islam / P. 113 122**

بالعلم أبدع العرب في فن العمارة بعد أن صاروا معماريين من الطراز الأول. خرجوا بعمارة حافظت على تقاليدهم وشروط الحشمة التي تربوا عليها ثم وفي براعة فريدة مزجوا فن عمارتهم بما وجدوه لدى الآخرين من المناسب لهم دينا وعروبة وجمال معمار, وقد أخذوا الكثير من البيزنطيين والفرس دون إهمال غيرهم. جاءت مدنهم كذلك متمشية مع حياتهم القبلية فكانت عبارة عن عدة مدن متلاصقة كل واحدة لقبيلة معينة وكل حي إن صح التعبير كان مسورا وله بوابة وسوق ومسجد ومقبرة خاصة به. كانت أعظم المدن الإسلامية من حيث روعة مبانيها وفن عمارتها وجمال زينتها هي بغداد التي عجت بالسكان حتى قدرهم زائر لها بالمليونين ونصف مليون نسمة. كثافة لم تتسنى لغيرها في عالم ذلك الزمان. وقد زينوا مبانيهم بفنهم السابق ذكره وأعطوه روح وذوق رفيع ميزه عما سواه, فصار يُعرف بالمعمار الإسلامي. ها هو سكن للخليفة الوليد في منطقة كانت للصيد قرب البحر الميت شُيد بين 712 و 715 م لا يزال يشهد بفن بناءه وزينته الإسلامية وألوان الطلاء إلى اليوم, كدليل كذلك على أن المسلمين عرفوا إنتاج الطلاء.

**روعة فن الحرف العربـــي** 123

[](http://www.google.co.uk/imgres?q=%D9%81%D9%86+%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B1%D9%81+%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A+%D9%81%D9%8A+%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B5%D8%B1+%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A&hl=en&sa=X&biw=994&bih=551&tbm=isch&tbnid=z81kP8IjvVjViM:&imgrefurl=http://www.art.gov.sa/t10016.html&docid=2lMQgGgLwEBjmM&imgurl=http://www.art.gov.sa/images/cach1432/2007/07/10.jpg&w=1303&h=1311&ei=ZxdLUafzDcO6hAfTp4CQCg&zoom=1&ved=1t:3588,r:26,s:0,i:169) [](http://www.google.co.uk/imgres?q=%D9%81%D9%86+%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B1%D9%81+%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A+%D9%81%D9%8A+%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B5%D8%B1+%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A&hl=en&sa=X&biw=994&bih=551&tbm=isch&tbnid=DY2tm2itTQ2EtM:&imgrefurl=http://www.alfnonaljamela.com/topic_show.php?id=73&docid=UxB3Fc5-iaFi2M&imgurl=http://www.alfnonaljamela.com/uploads/120100611072810.gif&w=300&h=272&ei=ZxdLUafzDcO6hAfTp4CQCg&zoom=1&ved=1t:3588,r:16,s:0,i:130)

كالعادة صار فن المعمار والزركشة مادة علمية وعلم يُدرس ويدفع بالمزيد من المهندسين ليضيفوا الكثير إلى هذا الفن. كل ذلك بفضل مصنفات العلماء التي شملت كل شيء يتعلق بالإعمار وتخطيط المدن وقدمت المزيد من المعلومات المفيدة. مثلا, صنف تقي الدين أحمد علي المقريزي ( ت. 845 ه = 1441 م) كتابا قيما في تخطيط المدن بعنوان "المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار".

**الموسيقـــــى والطــــــرب**

كانت الموسيقى والغناء عند عرب الجاهلية من النوع الخفيف الذي يُرقص عليه واستخدموا فيه الدف والمزمار فيُطرب ويستخف الحلوم, وكان فنهم هذا أكثر تأثرا بنظيره الفارسي منه بذلك عند البيزنطيين, حتى كانت مراتب الغناء والآلات الموسيقية وكل ما تعلق بهذا الفن فارسي الإسم والرسم, فالطنبور فارسي تم تعريب

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

123. **العنكبوتبة – ويكيبيديا – عمارة إسلامية**

**فن العمارة الإسلامي 124**

**[](http://www.google.co.uk/imgres?q=%D9%81%D9%86+%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B1%D9%81+%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A+%D9%81%D9%8A+%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B5%D8%B1+%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A&hl=en&sa=X&biw=994&bih=551&tbm=isch&tbnid=Zh7e9Iem5ZXb2M:&imgrefurl=http://arab-training.com/vb/t107964.html&docid=Cqe2V0FUXaahAM&imgurl=http://faculty.ksu.edu.sa/11656/PublishingImages/imagea16.jpg&w=650&h=434&ei=ZxdLUafzDcO6hAfTp4CQCg&zoom=1&ved=1t:3588,r:31,s:0,i:184)**

إسمه. كان الغناء قاصرا على الإماء والجواري لأن العرب كانوا يكرهون ذلك لحرائرهم حتى صرن يرفضن ذلك ولا يرضينه لأنفسهن قناعة وليس إجبارا. لم يكن الغناء جماعيا بمعنى التأليف بين الألحان من عدة آلات موسيقية متعددة ومختلفة. أما المغنيات معا في مجلس واحد فقد عرفه الجاهليون.

جاء الإسلام وعرف المسلمون أنه دين يهذب كل شيء ويطهره وينقيه من كل غث ولا يحرم بعد ذلك الرغبة البشرية وحاجة النفس للترويح والتسرية البريئة والطاهرة. (لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة, لبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد, ولما وصل صلى الله عليه وسلم ظاهر المدينة, صاح الناس رجالهم ونسائهم: جاء رسول الله, وجعل الإماء والجواري ينشدن ويغنين ويضربن بالدفوف, والحبشة تلعب بحرابها فرحا بقدومه)**125** وفي الصحيحين أن النساء والصبيان كن ينشدن: **126**.

طلع البدر علينــــــــا \*\*\* من ثنيات الــــوداع

وجب الشكر علينــــا \*\*\* مــــا دعــــا لله داع

أيها المبعوث فينـــــا \*\*\* جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة \*\*\* مرحبا يا خيــــر داع

لم يقل النبي عليه الصلاة والسلام شيئا ولا ظهر على ملامح وجهه ما يدل أو يوحي بكراهية ما كان يجري من حوله, وهو الذي لم نعرف عنه إلا الغضب الشديد متى تعلق الأمر بالحرام, بل كان كعادته هاشا باشا. لما بركت ناقته في ديار عدي بن النجار, تكرر المشهد مجددا فكانت الجواري تغنين بشعر يعبر عن حبهن, بمعنى حب الناس لرسول الله عليه السلام قلن فيه (نحن جوار من بني النجار\*\*يا حبذا محمد من جار). فقال رسول الله

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**124. العنكبوتبة – ويكيبيديا – عمارة إسلامية.**

**125. شوقي / الحضارة العربية الإسلامية / 373**

**126. نفس المرجع / 373**

صلى الله عليه وسلم: "الله يعلم أني أحبكن" **127**  كما سمعنا من علمائنا كثيرا عن حثه للناس على إحياء أفراحهم وخاصة الزواج بالغناء وضرب الدف. "وعن ابن عباس قال: أنكحت (أي زوجتْ) عائشة ذات قرابة لها من الأنصار, فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم, فقال "أهديتم الفتاة؟" قالوا نعم. قال: "أرسلتم معها من يُغني؟", قالت : لا, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفهلا بعثتم معها من يغنيهم, يقول :

أتيناكــــــم أتيناكـــــم \*\*\* فحيونا نحييكـــــــم

لولا الذهـــب الأحمـــ \*\*\* ـــر ما حلت بواديكم

ولولا الحنطة السمرا \*\*\* ما سمنت عذاريكم

فإن الأنصار قوم فيهم غزل." **128**

يُروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها قولها: (دخل علي أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بُعاث, قالت وليستا بمغنيتين – أي محترفتين - فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت النبي؟ وذلك يوم عيد الفطر, فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر! إن لكل قوم عيدا, وهذا عيدنا") **129** رغم أن النبي عليه السلام كان حاضرا تلك الواقعة ولو كان ما أنكره صديقه منكرا لما إنتظر قدومه بل لمنعه قبل أن يُصبح واقعا لأنه لم يكن يغضب لشيء مثل غضبه لله. رغم ذلك نجد بعض العلماء يستشهدون بهذه الواقعة لتأكيد تحريم الغناء والموسيقى وكأنهم ومن حيث لم يقصدوا جعلوا أبا بكر أكثر غيرة على الدين من النبي وهذا هو المستحيل بعينه.

كما حدثنا علماؤنا عن قول النبي عليه الصلاة والسلام لأبي ذر الغفاري (يا أبا ذر! ساعة وساعة) أي نصحه بألا يبقى كل حياته في جدية العبادة بل يعطي نفسه شيئا من الترويح. هذا ما نسمعه من علمائنا ونقرأه في الكتب, فلما نجد بالقرب منه كبت جعلنا كمسلمين وخاصة العامة فينا في حيرة كبيرة بين تحريم بعض علمائنا المعاصرين للموسيقى بعد أن سكتوا عن التصوير والنحت وما شابه. أما كبار العلماء فلفهمهم الأفضل للدين قالوا بأن الموسيقى والغناء الذي ليس فيه ما حرم الله مباح, وهو كلام يقبله العقل والإسلام دين عقل وتبصر وليس دين قساوسة يفرضون ورعية تسمع وتُطيع حتى فيما يرفضه العقل السليم,

اليوم يكاد يلف الصمت كل علمائنا الكبار وتصدى للأمر من نعذرهم لفهمهم الخاطئ أو غيرتهم الزائدة حتى تحولت إلى غُلو في الدين ولكن الخطر كل الخطر في أنهم حملوا السلاح وقاتلوا به المسلمين بدلا من مقاتلة من يجثم على أولى القبلتين. للأسف, بدلا من إفهام هؤلاء دينهم الوسطي المتسامح الذي ما حرم على

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

127. **شوقي / الحضارة العربية الإسلامية / ص 374**

**128. نفس المرجــــع / ص 375**

**129. نفس المرجع / ص 374 – 375**

الإنسان إلا ما فيه فسق ومجون إذا بنا نجد من يزيد نار أولئك المسلحين تأججا, فيقولون بأن كل الموسيقى لفظا وآلات محرمة بدليل قوله تعالى "ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ", ويؤكدون إجماع أئمة السنة الأربعة على تحريم آلات الطرب كلها لأن لهو الحديث هو الغناء, ولا يقبلون القول بأنه ليس كل الغناء بل الغناء المحرم.

لم يكتفوا بذلك فقد ذكروا كل ما ذكرناه أعلاه عن قدوتنا محمد صلى الله عليه وسلم فما زادهم إلا إصرارا على تحريم الغناء بكلأ أنواعه, ثم صاروا مثل حكامنا حتى العلمانيين منهم يُصدرون قرارات ثم يبدؤون في إلحاقها باستثناءات حتى تُستثنى كلها. فبعد كل التشديد في حرمة الموسيقى والغناء وكل أنواع الآلات المفرحة, قالوا بأن النبي عليه السلام أقر الطرب في الأعياد حتى قال "ليعلم المشركون أن في ديننا فُسحة". كما استثنوا الدف بغير خلخال في الأعياد والنكاح للنساء, ثم في الحرب **130** وهكذا وكأننا بعد 14 قرنا صرنا أفهم من كبار الصحابة مثل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه, فقد كانت عزة الميلاء المغنية القديمة تغني في أيام توليه الخلافة وظلت حتى توفيت في عهد الوليد. **131** فهل نحن اليوم نملك ولو نسبة تُذكر من غيرة عثمان وشجاعته متى تعلق الأمر بالدين أم نرميه بما نرمي بعضنا اليوم ؟؟؟ حتى حكام المسلمين بعد الراشدين تركوا للموسيقى والغناء مجالا للنمو فهل نكفر كل حكامنا من لدن الراشدين وحتى اليوم؟؟

كأننا بأسلافنا كانوا أفهم منا للدين حين نجد في تاريخهم ما يدل على تطور الغناء وتنوع الآلات الموسيقية دون أن يبيحوا ما يثير الغريزة أو يخدش الحياء ومن فعل فهو المخطئ وحده. جعلوا من الموسيقى لأول مرة في تاريخ البشرية "علما له قواعد رياضية وأوجدوا السلم الموسيقي وقياس الوتر, ولقد ألف الكندي في الإيقاع الموسيقي قبل أن تعرف أوربة الإيقاع بعدة قرون ." **132** جعلوا لهذا الفن مدارس لتخريج الفنانين الملتزمين وطوروا الغناء العربي الموروث من التنغيم اليسير وهو (الحداء) الذي ساد العصر الجاهلي إلى شيء من العمل الفني المنظم. كان للنساء فنهن ومنذ عهد الخلفاء الراشدين كما أشرنا أعلاه. **133** أقول مجددا متسائلا إن كنا نحن أكثر إيمانا ورسوخ عقيدة من عثمان رضي الله عنه حتى سكت عنها؟! وللعرب الجاهليين كذلك آلات أخرى مثل المزهر والمعزفة اللتان كانتا تضرب بهما عزة,والعود الذي كان يغني به أحمد بن أسامة الهمذاني المعروف كفنان بأحمد النصبي المتوفى سنة 82 للهجرة (701 م) أثرى علماء الإسلام الكبار الجانب النظري واخترعوا الآلات الجديدة مثل تلك الشبيهة بالقانون. كان ابن سيناء صاحب الفضل في تدوين ما يُعرف اليوم (بالنوتة) الموسيقية التي تمكن علماء الغرب اليوم من حل رموزها.

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**130. حكم الموسيقى والغناء والرقص / العنكبوتية**

**131. عمر فروخ / العرب في حضارتهم وثقافتهم / 204**

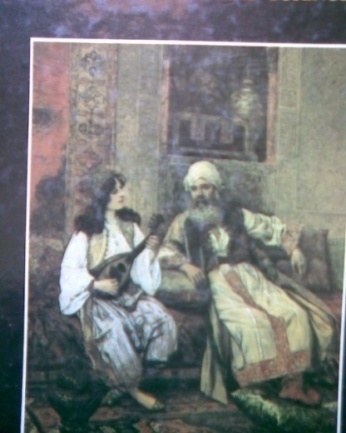
**132. عمر فروخ / العرب في حضارتهم وثقافتهم / ص 112**

**133. نفس المرجع / ص 204**

نعود لقدوتنا دائما فنذكر المتعصبين اليوم بقوله صلى الله عليه وسلم: (ألهوا وألعبوا فإني أكره أن أرى في دينكم غلظة) **134** إذا كل ضروب التسلية حلال طالما لم تُقرن بفجور وما شابه, فقد عرف المسلمون الصيد والفروسية التي كانت تُقام لها حفلات سباق طوال العصر الإسلامي, والكرة, ولعبوا الشطرنج في المنازل, واستمعوا للقصص الهزلية والنادرة للتسرية, والتنس التي كانوا يسمونها (القراح), وألعاب أخرى عديدة. واليوم يريدوننا أن نتظاهر بالحزن من المهد وإلى اللحد كي لا نُلقي بأنفسنا للتهلكة, ونحن نرى طلبة يٌقتلون لأنهم يتعلمون لغة أجنبية فقال أولئك أن تعلمها حرام ؟؟؟؟

**هل الطرب حرام أم الجلسة هي الحرام؟ 135**

(**فروخ / تاريخ العلوم عند العرب / ظهر الكتاب)**



نختم بالقول أننا والله الذي لا إله إلا هو لنقدس ربنا ونطمع في عفوه ورضاه ومغفرته, ونحب نبينا ونرجو شفاعته, ولكننا أردنا إستجلاء الحقيقة لأننا نؤمن بما قاله مالك رضي الله عنه: كل يُؤخذ منه ويُرد عليه إلا صاحب هذا المقام. صاحب المقام عليه السلام لم يضيق حياة أصحابه, بل جعلها أسعد مما كانت قبل الإسلام بفضل تهذيب كل أمر يحبه الإنسان وإلباسه رداء الحلال والبعد عن الفُحش والرذيلة وليس المنع القاطع. ما نجده اليوم للأسف أقرب إلى سلوك الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى حتى كره الناس الدين وتمردوا عليها ولا زالوا إلى اليوم يفصلون الدين عن الدولة إتقاء شر الكنيسة, وكم آلمنا وقد دفعنا بإخواننا المسلمين بعد الربيع العربي حتى إعتلوا سدة الحكم وإذا بهم أمر من العلمانيين. لقد تصرفوا مثلهم ولكن بشكل فضيع وهو ربط أعمالهم وقوانينهم وتشريعاتهم بالإرادة الربانية أي أنها لا تقبل الجدال أو الرد وها نحن يعصرنا الألم ونحن نرى الأمل ينهار في كل مكان ظهر فيه, فالحاكم رجل طبيعي يُرد عليه ويُعزل إلا إذا صدقنا أن كل المسلمين اليوم كفارا أو مرتدين أو عصاة أو .... غفر الله لهم ولنا وهدانا جميعا إلى سواء السبيل.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**134. شوقي أبو خليل / الحضارة العربية الإسلامية / ص 382**

**135. عمر فروخ / تاريخ العلوم عند العـــــــــــــــرب / ظهر الكتاب**

**الرموز الموسيقية من (رسالة في خبر تأليف الألحان) للكند 136**



ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**136. فروخ .... / تاريخ العلوم عند العرب / ص 573**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا**

**ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين**

**صدق الله العظيم**

**آل عمـــــران**

**140**

**الفصــــــل الخامــــــس**

**الحضارة الإسلامية وسنة التـــــــــــــداول**

**كلمــــــــــــــة**

ما أن إلتأم عقد المسلمين من مهاجرين وأنصار في المدينة المنورة حتى أمكن إقامة أول دولة إسلامية في التاريخ منذ العام الأول للهجرة (622 م ) بعد أن توفرت شروط الدولة بتوفر الشعب والحدود والأرض والقيادة وإن كانت متواضعة وبسيطة لعدم تعرض المجتمع الوليد بعد إلى التعقيدات المعروفة لدى أمم كثيرة. تولى أمر المسلمين بعد وفاته صلى الله عليه وسلم عام 632 م من عُرفوا بالخلفاء الراشدين لأنهم حكموا الدولة المتنامية يوميا بما تعلموه من نبيهم مباشرة, ثم كانت الفتنة التي ندع أمرها لله وحده والتي طُويت بقيام الخلافة الأموية التي فتحت الباب أمام الصراع على السلطة مما شجع العباسيين على إقتلاع خلافة بني أمية والتي بدورها ظلت تضعف حتى لم تعد أكثر من رمز يُذكر في المناسبات حتى إزاحتها الخلافة الإسلامية العثمانية ليُدار عالم الإسلام لأول مرة من قبل خلافة من غير العرب, ومجددا وطبقا لسنة التداول كان الضعف ثم الذهاب للدولة العثمانية ليحل محلها غزاة صليبيون لهم من الثارات من المسلمين ما لا يخفى على أحد. كانت ذريعتهم إنتشال الشعوب من التخلف العثماني فزادوا المسلمين وحتى غير المسلمين تخلفا حتى كانت حركات تحرر وطنية إقليمية ضيقة, بمعنى إهتمام كل مستعمرة بشأنها من أجل التحرير ولو كانت تعاني من مستعمر واحد وهي شعوب كانت شعبا واحدا. إستقل العرب والمسلمون سياسيا, فوُلدت دويلات قزمية كثيرة كل منها ظلت مرتبطة بالسيد الراحل ولو مطرودا مقهورا, سياسيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا وفي كل شيء حتى غدا القطر العربي غريبا عن أخيه العربي, قريبا ممن أذاقه صنوف العذاب والقتل والهوان, فازداد العرب والمسلمون تخلفا وإن بدا البعض كأنهم تقدموا وهو ليس أكثر من رغد عيش لا ضمانا واحدا لديمومته.

حضاريا رأينا كيف كان العرب ينهضون بسرعة فائقة ويفتح الله عليهم بعلوم كثيرة بدون أن يجدوا في العالم المحيط معينا أو دليلا, لأن العالم وقتها كان قد فقد كل علاقة له بالحضارة. ولكن من إتكل على الله كفاه وقد كفاهم. ظل المسلمون يتقدمون ويُحدثون تغيرات هامة في الحياة البشرية كلها طوال مرحلة تمسكهم بعقيدتهم قوية رغم كل ما شهدته مرحلة الخلافة العباسية الطويلة الأجل من حركات شبه إنفصالية إلا أن الجميع ظل يحمي الفعل الحضاري ويدعم مسيرته ولا ينقض ما كان قبله بل كان يبني عليه ويدعم ما ورثه. هكذا إلى أن تولى أمر المسلمين العثمانيون الأتراك فتنكبوا الطريق السوي ولم يفهموا أن الحضارة الإسلامية عربية اللسان لأنها ابنة القرآن الكريم لذلك كان للعثمانيين فضل إنقاذ العالم الإسلامي من مصير مثل مصير الأندلس وصقلية وغيرهما, وهذا أمر جوهري وأساسي في حماية عالم المسلمين, إلا أنهم حاولوا خطأ بعث الحياة في الحضارة الإسلامية التي كانت تحتضر ولكن بلسانهم الأعجمي, هذا علاوة على ما صار واضحا من أن الأتراك أقل قدرة على بناء الحضارة مقارنة مع العرب كما سبق لنا شرحه. رفضت الحضارة العربية الإسلامية لسان الترك وفضلت اللحد على أن تنطق بغير لغة كتاب الله.

لم يفهم العثمانيون أن علماء العهد الإسلامي الزاهر لم يكونوا في الغالب عربا بل عجما إلا أنهم لو لم يتعربوا ويُصبحوا عربا لغة وثقافة وفي الغالب دينا للكثيرين منهم, لما كان لهم أي دور يُذكر وإلا لنهضوا بأممهم قبل مجيء العرب. هنا لابد لنا أن نؤكد أن إخواننا الأتراك لم يكونوا قاصدين أتركة الحضارة الإسلامية وإنما في فكر ذلك الزمان ظنوا أن حضارة الإسلام يمكن أن تنطق بغير الضاد, فخسروا وخسرنا معهم ويبقى لهم فضل ما فتحوا من بلدان وحمايتهم لتلك المفتوحة من الضياع. أما فساد الحكم العثماني وظلمه وخاصة في أواخر عهده فذلك ما تشهده كثير من الأمم وها نحن اليوم نشهد من حكامنا العرب أصلا وفصلا الأظلم والأكثر فتكا بنا. لذلك من الظلم أن نؤرخ للأتراك كتأريخنا لمن إستعمرنا من أعداء الدين والجنس بل وأسوأ, وننعتهم بالإستعمار العثماني. نعود إلى حديث الحضارة العربية. تقول المؤرخة الألمانية زغريد هونكة تصف الوضع في ظل الخلافة العباسية:

""صحيح أن هذه الإمبراطورية العربية قد إنقسمت بعد مدة وجيزة من الزمن إلى دويلات, لكن ذلك لم يكن ليمنع الحضارة العربية ذات المحتوى الخاص والمعالم المميزة من أن تفرض سيطرتها على تلك الشعوب المتباينة في مصر وأسبانيا والعراق وغيرها. أو ليست هذه معجزة تُضاف إلى المعجزات التي حققها العرب."" **137**

نعم إنها معجزة ربانية تفضل الله تعالى بها على العرب حين بعث فيهم محمدا نبيا ورسولا فأقام نظاما تعليميا عظيما في زمن لم يكن المسلمون في المدينة ليخرجوا من حرب إلا ليستعدوا لغيرها بفعل إصرار أعداء الإسلام على إنهاء رسالته ولو بالقوة. إنتصر الإسلام في أرض العرب ليتفرغ للبناء الحضاري ولكن أعداء الحضارة والبشرية أبوا ذلك. تحركت الدولتان الأعظم في ذلك الزمان: إمبراطورتي الفرس والروم للإجهاز على دولة الإسلام الوليدة بعد أن عجز العرب الوثنيون عن فعل ذلك لصالحهما, فواصل المسلمون الجهاد وفي معجزة فريدة في تاريخ البشرية أن الحروب الدفاعية لم تحول دون العرب ومواصلة البناء الحضاري الذي وضع نواته رسولهم الكريم ودق له أساسا متينا. إنتصر المسلمون عسكريا وحضاريا وفي نفس الوقت, وإذا

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**137. د. زغريد هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 358**

بحركات تمرد داخلي تحت مسميات كثيرة تنطلق هنا وهناك ولكن كلها وعلى كثرتها لم تمنع الحضارة ليس من مواصلة الحياة فقط بل والإزدهار العظيم في ظل ما يمكن تسميته بالإنشقاقات السياسية, في ظاهرة لعلها الأولى في تاريخ الإنسانية إذ من المعروف أن الصراعات الداخلية تغتال التقدم الحضاري ولو كان في قمة مجده. لم تتوقف المعجزات إلا عندما أعطى المسلمون ظهورهم لدينهم. اليوم عادوا إليه وإن ظلوا على بعد ما, فإذا بالرب الكريم يُكرمهم بمعجزات أقلها أن ينتصر الأعزل تماما على حاكمه المتجبر الذي كان يفتش حتى جيوب المواطن ليجرده من أي شيء يمكن أن يجرح ولو كان سكين لتقشير البصل. أليست معجزات عربية وفي القرن الواحد والعشرين؟ لا غرابة, فالرب واحد قديما وحديثا ومستقبلا وإلى ما شاء هو سبحانه وتعالى عما يصف ضعفاء العقيدة. لو عدنا إليه حقا وصدقا ويقينا وبقوة لصرنا كما صار أجدادنا بالإسلام الوسطي القوي قادة لأمم الأرض حضاريا, وما ذلك على الله بعزيز.

**العصور الوسطــــــي**

نسمع منذ الصغر من يقول لصاحبه العربي المسلم متى أتى بما يشير إلى التخلف وسوء التصرف بأنه من القرون الوسطى. تهمة تشربناها من المحتل الغربي دون أن نعي لجهلنا أنها مكيدة وحيلة جعلتنا نطعن أنفسنا بأنفسنا. ظننا أنها صادقة حتى كبرنا وتعلمنا فإذا بنا نكتشف أنه كلام جاء في سياق تقليدنا للغرب في كل شائن ولا علاقة له بنا, بل أن يكون عربي اليوم ومسلمه من القرون الوسطى هو فخر له ومدح, فهو إلى القرن الواحد والعشرين لم يصل بعد إلى نسبة تُذكر مما كان عليه أجداده من تقدم. بقدر ما كانت تلك القرون مُظلمة ظالمة في أوربا كانت تشع نورا وتقدما بفضل حضارة لو أحيينا اليوم بعضها لصرنا أمة عظيمة. العصور الوسطى أو القرون الوسطى هي تلك القرون التي بدأت عام 500 م واستمرت لألف عام أي حتى عام 1500 م واحتاج الأوربيون لعدة قرون أخرى كي يُصبح لهم شأن حضاري. كيف حدث ذلك؟ وكيف يكون الدين عدوا للتقدم وهو من عند الله؟ لا يمكن, ولكن التخلف كان دائما من صنع البشر والذي يصفه الحق في كتابه المُحكم بأنه من عند أنفسنا.

وُلد السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام في زمن سيادة الدولة الرومانية الوثنية العظيمة الشأن وقتها والتي لم تقبل بدعوة المسيحية فحاربت أتباعها وسامتهم سوء العذاب وهي سنة الله في خلقه إذ لم نعرف أن نبيا دعا قومه إلى الهدى وسلم من الأذى. لكن الرسالة الربانية دائما تنتصر وتظهر على العدو مهما كان قويا ومهما كان أتباع الدين الجديد من الضعف بحيث لا يحسب الإنسان لهم الحساب الصحيح. ظلت الدعوة المسيحية تنمو مع مرور القرون ويزداد أتباعها حتى لم يعد أمام أباطرة الرومان من بد إلا القبول بالعقيدة المسيحية بين العامين 324 و 337 م ولكن الدولة فهمت ممن كان يمثل الدعوة المسيحية, وهي الكنيسة, أنه من الضروري القضاء المبرم على كل ما له علاقة بالوثنية وزمانها حرصا على نقاء العقيدة وطُهرها. كأنه كُتب على الإنسان المسيحي أن يُضطهد مرتين قبل وبعد تمسح النظام الحاكم. أنتج تعاون الكنيسة والدولة ضمن حلفهما القذر إلى معاداة ما وجدوه من سبل التحضر وعوامل التقدم البشري تحت مبرر ضلالي وهو أنها وثنية ضارة للروح البشرية بعد أن طهرها الله بالدين, في غباء متعمد من الكنيسة وتقليد لها من قبل الحكام. بعد أن بلغت حضارة الروم أوجها إذا بها كما يقول الله تعالى **(.... يُخربون** **بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين, فاعتبروا يا أولي الأبصار)** صدق الله العظيم – الحشر من 2- إنقضوا على تلك الحضارة العظيمة يهدمونها بلا رحمة حتى لم يعد لها أثر من علم ولا حتى حجر كان مربضا للعلم والثقافة. صار من يقتني قصاصة ورق عليها كتابة ولعله أمي لا يقرأ أو يكتب يُقتل بها. ثم طورت الدولة عدوانها في ظل الكنيسة الأظلم منها حين كان الإمبراطور يعتنق مذهبا مسيحيا فيفرضه على كل الشعب والموت أو التشريد لمن يختار غيره ويأتي ملك آخر فيروق له مذهب مغاير أو حتى يعتنق المذهب المنبوذ من سلفه فيُصبح الممجَدون بالأمس مطاردون ومعذبون اليوم . وصف كاتبان أوروبيان الوضع في القرن السادس الميلادي ما ترجمته ما يلي:

(إنتصار الكنيسة كدين رسمي للدولة, وتبني العقيدة المسيحية , ورفض العلوم الإنسانية, وكبت حرية التحقيق. كل ذلك سار جنبا إلى جنب مع العقيدة المسيحية. عليه, لم يعد التعليم تدريبا حرا لقوى الفرد أوتنويرا له عن طريق العلم والفلسفة, بل صار تهذيبا للروح في حدود ضيقة. كان ما يُقَدم للتلميذ مجرد ما يكفيه من العلم الذي يساعده على أداء وظائف العبادة حسب مذهب الكنيسة) **138**

لذلك إقتصر وجود المدارس على تلك المرتبطة بالكنائس والمعابد لضمان عدم تسرب نور العلم الحقيقي إلى الناس فتلوث أرواحهم بالعلم الأرضي كما كانوا يُسمون علوم الإغريق والرومان وكذلك المسلمين. صارت تلك المدارس الكنسية تُعلم قواعد اللغة والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى والدين ولكن بمحتوى واحد وهو إعداد الفرد ليتقبل خدمة الدين المسيحي كما قدمته له الكنيسة. يُخيل للمرء أن المنهج علمي وما جد عليه هو تبني الكنيسة له وربطه بالدين. أما إذا عرف التطبيق العملي له فسيجده خطة تجهيل لئيمة أدت إلى كبت الفكر وحبس الرأي الحر وتحريم الإجتهاد البناء والإيجابي ولا يتضمن المنهج إلا إجترار تفاسير وآراء وأفكار الكنيسة الضلالية, فحتى مادة مثل الحساب كانت تُدرَس في الحدود التي يحتاجها الدين فقط. أما العلوم الحضارية فلم يعد لها وجود بل صارت جريمة يُعاقب عليها القانون, ولو لم يكن كذلك لما وصلت الأمية في أوربا خلال هذه المرحلة أكثر من 90 بالمائة. في ظل الكنيسة المدعومة بجبروت الدولة صارت تلك العلوم المزدهرة من أحاديث الماضي يجترها الناس كالخرافات وبأسلوب القدح والرفض لإرضاء الكنيسة.

لنأخذ أهم علم يحتاجه الإنسان لنعرف ما فعلت الكنيسة به وبكل العلوم وهو علم الطب. وصف البابا (تاتيان Tatian) التطبب بالأدوية بقوله: "إن علم العقاقير بأشكالها المختلفة يرجع في أصله إلى الفن الباطل الخادع القائم على المادة, ولإن آمنا جدلا بأن المادة قادرة على شفاء العلل, إن وثق الإنسان بها, فكم هو حري بقدرة الله أن تشفي المريض عندما يعتمد المرء على قوة خالقه؟ فلما إذا لا تتوجه إلى سيد العالمين, وإلا فامض أيها الإنسان العاجز الضعيف وتداوى كالكلب بالكرنب, والأيل بالأفاعي, والخنزير بالسرطان النهري, والأسد

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**P. 626 Eby & Arrowood / The History and Philosophy of Education … 138 .**

بالقرود, لماذا لا تأله الأشياء الأرضية؟ **139**  هذا هو رأي رأس الكنيسة في الطب حاجة الإنسان إلى حفظ الصحة ومكافحة الأمراض وهو ما كان يعني محاربة الكنيسة له بإنزال أشد العقوبات على من يقترب منه لأن كلامه كان يُفهم منه تحريم التداوي. في ذات الوقت وعلى الضفة الجنوبية من المتوسط والأندلس, أي في الجوار العربي, كان العرب المسلمون يصنعون المعجزات في عالم الطب والشفاء معتمدين على الله تعالى بعقيدة أن الذي أنزل الداء أنزل له الدواء وعلى الإنسان أن يعمل ويتكل ولا يتكل فقط.

إصطحب القديس (كلارفو) المتوفى عام 1153, أي أنه عاش في الحقبة الثانية من القرون الوسطى التي توصف بأنها أقل سوء من القرون الخمسة الأولى, الحملة الصليبية في المشرق الإسلامي حيث الطب الشافي والعلاج الوافي والعلم الحقيقي مع الإعتماد على الله تعالى في نيل الشفاء. أصيب رفاقه من القساوسة بأمراض فتاكة كانت تعصف بهم فدعاهم باسم الرب, الذي تنزه عما يصفون, بألا يتداووا عند المسلمين لعلمه أن المسلمين كانوا يعالجون أعدائهم في رحمة إنسانية. أكد لهم أنه إنما أراد النُصح للحفاظ على طهارة أرواحهم بعدم تدنيسها بالعقاقير الأرضية, ودعاهم إلى التداوي عند الكنيسة. فما هو العلاج الذي كانت توفره الكنيسة؟ تقول (هونكة) واصفة ذلك العلاج العجيب الذي يزيد الألم حدة ولا يشفي أبسط العلل: (أيد تُوضع, وشيطان يُطرد, وصلاة تُقام ... تلك كانت الوسائل المفضلة في المعالجة التي حاول بها أطباء أوربا عن طريق مسوح الكهنوت والرهبان, إنقاذ الإنسانية المريضة وتخليصها من براثن الداء والألم) **140**  هذا العلاج الأجوف الذي لم يكن يشفي مريضا أو حتى يخفض من حدة الحمى التي تهز المسكين المصاب بها, لم يكن متاحا بسهولة. أصدر السنودس الكنسي المنعقد في مدينة (نانت) عام 895 م قرارا هذا نصه:

"كل كاهن ملزم أن يعود كل مريض من رعيته, وأن يرشه بالماء المقدس, ويشاركه الصلاة, ثم ينبغي له أن يقبل منه إعترافه في غياب ذويه, ويحثه على تصفية أموره الدينية والدنيوية معا على أكمل وجه, وبناء على هذا, فليس ثمة علاج بدون إعتراف **141**

علاج بلا فائدة ورغم ذلك كان على المريض قبل أي علاج الجلوس إلى كرسي الإعتراف الكنسي ليعلن توبته من ذنب أو ذنوب لابد أنه وقع فيها حتى أصابه الله بالمرض, فمن لم يتمكن من تذكر ذنب له أكره على صنع ذنب ما كي ينال العلاج. عليه أن يعترف بالذنوب ويعلن توبته ويسوى أموره الدنيوية وكأنه ليس مريضا بل مودعا للدنيا. كان بعض القساوسة يشفقون على من لم يتذكر ذنبا أو يخجل البوح بذلك, فيعالجونه دون الحاجة للإعتراف. ما أن علمتْ الكنيسة حتى إشتد غضبها فعممت منشورات تُذكر رجالها بأمر السندس أعلاه.

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**139. د. زغريد هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 219**

**140. د. هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 218.**

**141. د. هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 223**

بينما كان المسلمون يعالجون مرضى الأعصاب بإنسانية رائعة, كان الغرب يرى أن لعنة من السماء قد حلت بهؤلاء لإثم كبير لابد أنهم قد إرتكبوه, وكأنهم عادوا إلى أسلافهم الإغريق إذ "كان الإغريق يسلمون الرجل الذي يشكو ضعفا في قواه العقلية إلى أهله ليحبسوه عن العالم ويمنعوا ضرره عن المجتمع." **142** وفي ظل الكنيسة صار العلاج المتاح هو طرد شياطين يُفترض أنها تملكتهم بطريقة لعينة. كانوا يضعونهم في السجون مقيدي الأيدي والأرجل ويتولاهم رجال أفظاظ لا يعرفون إلا الضرب المبرح واللعنات والتعذيب ربما حتى الوفاة إذا لم يطاوعهم الشيطان ويغادر. حتى عدالة الغرب وقتها كانت تساهم في ذلك المصير الأسود. هذا مجنون سب الثالوث المقدس في مدينة فرانكفورت الألمانية عام 1451 م فأمرت المحكمة بتعذيبه. بالمقابل كان أمثال أولئك يُودعون في العالم المسلم مستشفيات "الأبرياء" ويُعالجون بالعقاقير والرحمة والشفقة والحنو حتى يشفوا متحملين منهم أسوأ ما يمكن أن يصدر عنهم في صبر وبلا مؤاخذة حتى لو سبوا أقدس شيء عند المسلمين.

سبحان الله الذي جعل النهوض الحضاري والعلمي عند العرب المتخلفون يوما يتزامن مع تلك الكارثة الأوربية. من الطبيعي أن مثل ذلك الكبت الكنسي والعصف والقهر المسلط من قبلها ومن قبل الحكام أن ينفر الناس من مصادر الأذى التي يأتي العلم على رأسها. عليه تفشت الأمية الهجائية في أوربا حتى وصلت نسبة 95% في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر الميلادية في زمن كان العرب متعلمون مائة بالمائة ومنذ قرون. رغم فرضية تعلم رجال الدين والقساوسة ومن على شاكلتهم إلا أن الأمية تفشت بينهم بمثل ما كانت عليه بين العامة. كان معبد (جالينوس) الكبير وعلى كثرة ما كان فيه من قساوسة ورهبان عام 1291 فلم يكن بينهم واحد كان قادر على خط أسود على أبيض. غزى النصارى الصليبيين الأندلس, وبدلا من تقليد أسلافهم الرومان قبل المسيحية حين غزوا بلاد الإغريق فتبنوا حضارتهم, إنهال الأحفاد على الحضارة العربية العظيمة في الأندلس حرقا وهدما بل وقتلا للعقول لضمان عدم عودة الروح إلى الحضارة حتى أدخلوا الأندلس في ظلمات الجهالة والتخلف الأوربي بعد أن كانت دولة عظيمة التقدم والتحضر ومهدا للسعادة وسراجا وهاجا في عتمة القارة الأوربية المنكوبة.

ها نحن في القرن التاسع عشر الميلادي, أي بعد زمن ما كانوا يسمونه في أوربا بعصر النهضة, ولكننا لا زلنا نجد ممن كانوا يُسمون بعلماء أوربا مثل (يوستينوس كارنر Justinus Kerner) الذي كان يحث أساتذة كلية الطب في جامعة ميونخ الألمانية وأمثالهم على شحذ هممهم لوضع مقررات في تسلط الشيطان على الإنسان وتحديد الآثام التي تؤدي إلى ذلك ووصف العلاج الشافي أي العودة إلى ذلك الإجرام بحجة طرد الشيطان والأرواح الشريرة بالتمائم والصلاة والدعاء للقديسين. علما أن عصر النهضة الأوربية حل في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر. (قاموس أوكسفور 714) لكن الكنيسة كما رأينا ظلت حتى القرن التاسع عشر تحاول إعادة العجلة إلى الوراء.

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**142. زغريد هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 255**

المعروف أن مدرسة (ساليرنو) الإيطالية كانت محمية من قبل ملوك صقلية النورمان المتفتحين والحضاريين فازدهرت وكانت أهم مصدر أدخل النور لأوربا ولكن ما أن تغلب (نابليون) الفرنسي على النورمان وأزال حكمهم وسلطانهم وصارت ساليرنو تحت سلطانه حتى عمد عام 1811 م إلى غلق مدرستها العظيمة وشدها وأوربا إلى الوراء مجددا. لما وقعت بلاد المسلمين في قبضة الإحتلال الأوربي كأن العقل الأوربي قد جُبل على الموروث الجيني المعادي للعلم ولكن هذه المرة لدى غير النصارى فانقضوا على بقايا صروح العلم والإيمان في عالم الإسلام المتخلف ليعملوا فيها تدميرا وحرقا, وقتلا للبشر كي لا تقوم للحضارة قائمة أبدا كما تصوروا, ولكنهم نسوا أن سنة الله القاضية بالتداول لابد أن تلحقهم يوما.

**حضارة تأبى المــــوت**

يقول معظم وربما كل المؤرخين للحضارة العربية الإسلامية أنها بدأت التراجع منذ القرن الثالث عشر الميلادي حين بدأت تلك الإبداعات بل الخوارق تتوارى شيئا فشيء ولكن الساحة لم تخلو أبدا من مزيد العطاء. عبد اللطيف البغدادي زار مصر فشهد الزلازل والمجاعة التي ضربت البلاد بين العامين 1200 و 1202 فوضع مصنفا عظيم الشأن وصف فيه ما حدث بأسلوب علمي دقيق وصاغه في لغة أدبية راقية. كما كان له إنجازات أخرى مثل تصحيحه لوصف (جالينوس) الإغريقي لعظمة الفك السفلى والعجز. كان التعليم العربي الإسلامي من القوة أنه قاوم نوائب الدهر. من الفريد في تاريخ البشرية أن سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد وتدمير كنوزها العلمية لم يؤدي إلى تدهور التعليم العربي الإسلامي بل على العكس من ذلك. ظل يقاوم حتى لحقته سنة التداول والضعف. ظل المسجد والكُتاب والزاوية والمدرسة وغيرها من مؤسسات التعليم الإسلامية في تزايد عددا ولكن ذلك المستوى الراقي لم يعد قائما بوضوح. تطلب ضعف حضارة الإسلام قرونا عديدة قبل أن تصل إلى تدني العطاء الأدبي إلى مستوى التعليق والمحاكاة للأولين, واقتصر منهج التعليم العالي على الدراسات الدينية والعربية تقريبا. مثلا, علم الفلسفة العربية ظل يتراجع حتى تبنته أوربا. أما الطب العربي فقد ظل حيا في المستشفيات وكذلك الحال بالنسبة للكيمياء دون ظهور إبداعات فردية. هكذا كان الحال عندما تولى الأتراك العثمانيون أمر العالم العربي كله باستثناء المغرب الأقصى (المملكة المغربية حاليا) وبلاد فارس. ظلت بقية العلوم ومؤسسات الحضارة الإسلامية تقاوم الموت حتى تلقفها الغرب لتكون له الأساس الحي الذي بني عليه حضارة العالم في عصرنا الحديث كما سيأتي تفصيله في مكانه لاحقا. هذه المقاومة, رغم شراسة معاول الهدم التي تعرضت لها الحضارة العربية الإسلامية لقرون من أمم لا حضاريين بل همج ومتخلفون لا يعرفون للعلم قدرا ولا حتى للإنسان حرمة, كانت فريدة من نوعها في التاريخي البشري.

هنا وجب معرفة شدة وشراسة معاول هدم حضارة المسلمين ولكن ليس قبل معرفة أحوال العالم زمن إزدهار حضارة العرب وخاصة العالم الجار لعالم الإسلام وأعني أوربا التي لابد لها أن تتأثر بالعرب والمسلمين كما لابد لهم أن يتأثروا بها. أما غيرهم مثل المغول فلا غرابة أن يكونوا مخربين كما عرفهم التاريخ وينقرضوا مخربون. أما أهل أوربا فهم أهل كتاب سماوي ولهم عقيدة سماوية فكيف كانوا معاول هدم لما فيه خير البشرية قاطبة وأولها هم؟ ! نبدأ بالحديث عن العصور الوسطى التي كانت ظلمات في أوربا ونور ساطع في عالم العرب المسلمين.

**معاول هـــــــدم حضـــارة العــــرب**

نقرأ ونسمع كثيرا إتهام الدولة العثمانية بأنها من أجهز على الحضارة العربية الإسلامية في إسقاط متعمد أحيانا ونتيجة الجهل المطبق في معظم الأوقات من قبل بعض المؤرخين المسلمين المتعلقين بالغرب أو كما قلنا الجاهلين بالتاريخ. صحيح أن الدولة العثمانية حاولت فرض ثقافتها ولغتها على الحضارة الإسلامية وفشلت ولكنها كانت كما نفعل نحن اليوم حين نصر ومنذ قرابة القرن على التقدم بلغة غير لغتنا وقيما غير قيمنا ومعتقدات غير معتقداتنا فلم نحقق شيئا بل زدنا تخلفا عما كنا فيه يوم نلنا إستقلالنا السياسي. لقد رأينا حالة الجمود العلمي في عالم الإسلام والأخطار المحدقة به يوم فتحه العثمانيون, فأنقذوه من مصير أكثر سواد مما حل بالأندلس ولكنهم تنكبوا الطريق السوي لإنقاذ الحضارة الإسلامية, لذلك نقول أن إعتبار العثمانيين ضمن معول هدم الحضارة الإسلامية هو إفتراء وكذب أملاه إرتباط المسلمين في هذا الزمن الرديء بالغرب وقطيعتهم الكاملة لتاريخهم وماضيهم. أما إن إعتمدنا هذه المزاعم الظالمة فلابد لنا أن نعتبر العرب سبب تخلف العرب اليوم, لأن حكامهم من يشدونهم إلى الوراء وهو أمر معايش ولا يحتاج لأدلة. لذلك سنورد عوامل الهدم الحقيقية للحضارة العربية الإسلامية دون تضمين العهد العثماني. في رأينا, إذًا, أن أهم المعاول التي هدمت أعظم حضارة إنسانية هي: ضعف العقيدة, والغزو المغولي, وحروب الإسترداد المسيحية, والحروب الصليبية, وأخيرا الإستعمار الغربي الصليبي, أي أن حكام النصاري كان لهم حصة الأسد في تدمير حضارتنا وشدنا إلى الوراء.

**ضعف العقيـــــــدة:** من المعروف أن الإنسان متى عاش مرحلة طويلة من الإستقرار والثراء ورغد العيش صارت الدنيا همه الأكبر حتى ينسى أن وراءه آخرة وحساب. المسلمون بشر مثل كل البشر ولذلك يسرى عليهم ما يسرى على الإنسان. توقفت الفتوحات عند حد ما وقد إتسعت فيه أرض الإسلام وكثر خيرها وأدى إزدهار الحضارة إلى توفير وسائل الراحة والسلامة, فركن الناس إلى الدعة وأخذوا ببهارج الحياة ومُتعها حتى بردت تلك العقيدة التي جعلت منهم فاتحين منتصرين وحكام عادلين ودعاة زاهدين وعلماء كان هدفهم الأول مرضاة الله الذي كافأهم بما تحدثنا عنه من نعيم مقيم. قد يقول الجاهل أو المتحامل على الإسلام: أتريدنا العودة إلى الجهاد المتواصل والموت المضطرد؟ نقول: نعم. ما ترك المسلم الجهاد إلا ذل, والقصد ليس طلب القتال لذاته, فذلك نهانا عنه نبينا عليه الصلاة والسلام, ولكنه جهاد السيف لردع المعتدين والقاهرين لنا, وجهاد أعظم وهو جهاد القلم وصُنع تقدم عربي اللسان والجوهر والبيان. لو عدنا إلى الإحصاءات لعرفنا أننا قُتلنا أضعافا عديدة زمن بعدنا عن الجهاد عما قدمنا من شهداء زمن مقارعة العدو بالسلاح والحضارة. صرنا في فقر وفاقة وكنا نحمل السيف وننعم بحياة رغدة. حتى في أيامنا هذه, نرى شعوبا ودولا عربية كبيرة في فقر وعوز بينما مناطق سيطر عليها أهل الجهاد فإذا بشعوبها في حال من الجهاد وفي حياة هي أفضل من شعوب تلك الدول الكبيرة كلاما. يكفي الإشارة إلى غزة التي لا زلت أذكر هجوم إعلام مبارك حاكم مصر حين سخر من قول أن أهل غزة في حاجة للعون فقال إعلامه أن دخل الغزاوي أفضل من دخل المصري, وشتان بين مقومات مصر الكبيرة وغزة التي تُعتبر نقطة في بحر مصر. إذا فالإعلام المصري كان يسب نفسه ويدين دولته من حيث لم يقصد ورغما عنه أجرى الله على لسانه كلمة حق.

يُخبرنا التاريخ أن نهوض العرب كان بفعل قوة عقيدتهم الإسلامية ولما ضعفت للأسباب الآنفة الذكر طمع فيهم أعدائهم المتربصين بهم شرقا وغربا فانقضوا عليهم ولم يجدوا فيهم تلك الروح الجهادية التي كانت لأجدادهم فإذا بالذين كانوا منتصرين بالأمس صاروا لتعلقهم بالحياة منكسرين اليوم. تاريخيا نعرف أن أحفاد فاتحي الأندلس إنهاروا أمام العدو لما استسلموا للدعة وكره ذات الشوكة ولو لا عقيدة المرابطين في المغرب الأقصى لما إستمر الوجود الإسلامي لعدة قرون أخرى. نفس السبب كان حين دخل المغول بغداد وهدموا عاصمة الخلافة العباسية التي لم يكن يدخلها أحد غير العلماء والزوار المسالمين. هكذا ضعف العقيدة سهل على أعداء التقدم إزالة تلك الحضارة السامقة وتحول العرب إلى أمة متخلفة. حتى في عصرنا فأقوى ما يشدنا إلى التخلف والإستكانة والضعف أمام المتسلطين علينا والمتطاولين على نبينا وراكبي مقدساتنا في فلسطين هو ضعف عقيدتنا مما جعلنا نخشى الجهاد بل وحتى تسمية منظماتنا بالإسلامية خاصة تلك السياسية.

**الغــزو المغـــــولي:** لا يختلف إثنان في التاريخ على أن المغول كانوا قوم جهالة وتخلف ومفسدون في الأرض. لكنهم كانوا رجال حرب مدمرة إذ لم يعرفوا للحضارة والإنسانية معنى, فحيث حلوا وانتصروا أحالوا كل شيء في طريقهم إلى دمار وخراب ودماء تجري كالأنهار خاصة متى داهموا أمم طلبت الدنيا. ظلوا يتحينون الفرص لتجريب حظهم مع المسلمين لعلمهم أنهم قوة عمار وبناء ولكنهم لا يُهزمون في ميدان الجهاد حتى عرفوا أن تلك العقيدة التي جعلتهم قوة مهابة قد ضعفت وتخلخلت, فلم يضيعوا الوقت وهاجموهم وكلهم خشية أن يذوقوا أول هزيمة على أيد المسلمين ولكن المواجهات على أطراف الخلافة علمتهم أن عاصمة الخلافة لن تكون إلا مثلما وجدوا غيرها.

كما توقعوا فما أن طرقوا باب عاصمة الخلافة, بغداد, حتى وجدوها عصية فحاصروها ثم إتخذوا سياسة لا زالت سارية المفعول إلى اليوم والتي تعتمد توجيه إنذارا نهائيا فوجهوا إنذارهم النهائي للخليفة العباسي المستعصم سنة 1257, ثم أوجدوا لهم بين ضعاف الإيمان من المسلمين مُعينا, أي ما نعرفه اليوم بالطابور الخامس, وهو إبن العلقمي وزير الخليفة, أي رئيس الحكومة, فنفذ لهم أمرين هما إهمال التحصينات وبث الإشاعات بين الناس بأن المغول قوم لا يُهزمون. تماما كما عاش العرب لنصف قرن وهم يعتقدون أن الصهاينة لا يُهزمون فانكسرت دول أمامهم حتى سالمتهم وصافحتهم ورضيت بالفتات إن تكرم الصهاينة به. من رحم الهزيمة التي صارت شبه متجذرة في النفس العربية خرج المجاهدون فحقق العرب المعاصرون أول نصر لهم وظهر اليهود على حقيقتهم جبناء ومهزومون. لنعود إلى الخليفة العباسي الذي تصرف مثل غالبية حكام المسلمين اليوم, فعاهد من لا عهد لهم وخرج الخليفة من المدينة وإذا بهم يسملون عيناه ثم يقتلونه ومن معه بعد أن أعطوه الأمان لنفسه وأهله وأعوانه. ما أن صاروا وسط بغداد حتى مزقوا كل المواثيق وعملوا في المدينة قتلا وحرقا لتراثها العلمي وهدما لمؤسساتها الحضارية حتى وصف المؤرخون ما حدث بأنه أحال شوارع المدينة إلى وديان من الدماء وتحول لون مياه نهر دجلة إلي سواد بفعل مداد الكتب والمخطوطات العلمية. هكذا وضع المغول نهاية عملية للخلافة العباسية عام 656 ه = 1258 م. كل ذلك لأن الإيمان قد ضعف فازداد التعلق بالحياة فوُهب لطالبيها الموت, وهي قاعدة ثابتة منذ الأزل وحتى البعث: أطلب الحياة توهب لك الموت واطلب الموت توهب لك الحياة. ما كانت قوة الدولة العباسية في مثل قوة الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية وقد عمروا قلوبهم بعقيدة راسخة وهم لا يمثلون شيئا أمام قوة الدولة العباسية, ولو لا روح مماليك مصر لما نجا شبر من أرض الإسلام من إجرام المغول لأن المماليك عادوا إلى ربهم واتكلوا عليه وواجهوا المغول الذين كانت الأمم تستسلم لهم بمجرد إقترابهم منها. هكذا يفعل الإيمان وعشق الجهاد وطلب الموت بعد التوكل الكامل على الرب الناصر.

**حروب الإسترداد المسيحية:** عرفنا كيف كان حال أوربا المسيحية من تخلف وجهالة وحياة همجية خالية من كل عناصر العلم أو العقيدة الصحيحة. قدمنا بذلك ليعرف أولادنا المنقطعين عن تاريخهم ما كان من أولئك الهمج في حق حضارتنا ولا غرابة وقد رأينا إجرامهم, زمن عصورهم الوسطى, في حق مواطنيهم وحتى مرضاهم. لم ينسى المسيحيون يوما ثأرهم عند المسلمين الذي أخذوا قطعا من أراضيهم ولم يحتلوها كغاصبين بل ملكوا قلوب أهلها كبشر رحماء وأهل حضارة وتقدم وهو ما كان عند قادة الكنيسة والحكم في أوربا إعتداء ممقوت على مقدسات الجهالة عندهم. تماما كما نراهم اليوم يحاربون المسلمين عندهم في شكل قطعة قماش تستر رأس المسلمة فاعتبروها مثيرة لهم وهم أعلم الناس أن راهباتهم تغطي رؤوسهن وأجسامهن ولكنه الحقد الدفين فقط ضد الإسلام.

بتلك الروح الهدامة بدأ الأوربيون حروبا طاحنة أسموها بحروب الإسترداد, أي إستعادة ما أخذه العرب منهم, وبدأوا بما أدركوا أنها الحلقة الأضعف في العقد الإسلامي, الأندلس, لكونها في حضن عالم التخلف ولأن أهلها كانوا يعيشون حياة رغدة أبعدتهم عن روح الجهاد. بدؤوا أول هجوم على الأندلس عام 478 ه =1085 م مستغلين سقوط الخلافة الأموية الأندلسية وظهور قزميات عُرف تاريخيا بكيانات الطوائف حققوا بعض الإنتصارات التي كانت ستؤدى إلى إستعادتهم لكامل البلاد منذ ذلك الوقت المبكر ولكن فزع المرابطين في المغرب الأقصى إستجابة لاستغاثة إخوانهم الأندلسيين الذين لم يسمحوا للذة بالتحكم فيهم فإذا بهم يدخلون الأندلس فيقتلعون شوكها الصليبي في العام 479 ه= 1086 م ليمدوا بإذن الله الوجود الإسلامي لقرون أربعة قادمة, وهكذا يفعل الإيمان والزهد في متع الحياة الزائفة. سحب المرابطون أهم قواتهم من الأندلس عام 514 ه = 1120 م لمواجهة الموحدين الذين قاموا عليهم في المغرب ولكره قادة المرابطين للحياة الأندلسية التي رأوا أنها تُفسد روح الجهاد في نفوس جنودهم. بذلك عادت شهية الصليبيين إليهم.

للأسف, إنشغل المسلمون بمقاتلة المسلمين في المغرب فكان ذلك عونا غير مباشر للنصارى على مسلمي الأندلس. تواصلت المعارك والانتصارات ولكن ببطء شديد بفعل المقاومة الشديدة بحيث لم يجهزوا على الأندلس إلا بعد قرون من الحروب حين أخذوا غرناطة آخر معاقل الإسلام في أسبانيا المسلمة يوما وذلك في يوم 2/1/1492 م. سرعان ما انقض الهمج على حضارة الأندلس مادة وبشرا (فلم يلبث المسلمون أن لاقوا أهوالا أفظع من أن توصف, سببها التعصب الديني الأعمى, وأصبح السجن والتعذيب والحرق وسط النيران هي عقوبات من يمارس شعائر الإسلام أو ينطق لغتهم, أو يتغنى بأشعارهم, وأصبحت زيارة الحمام جريمة, وما تبقى من الكتب والمخطوطات العربية, والذي لم يُسلب أو يُنهب, جمعه رجال الأساقفة بمنتهى العناية ليوقدوا فيه النار, وهكذا حرقت يد التعصب مليونا وخمسة آلاف من المجلدات هي مجهود العرب في الأندلس وثمرة نهضتهم في ثمانية قرون.) **143** رغم أخذهم البلاد من العباد المتحضرين إلا أنهم ظلوا بالمرصاد لكل شيء له علاقة بالعلم والحضارة ولقرون قادمة. مثلا, عثروا عام 1674 م, أي بعد قرابة القرنين من قضائهم على حضارة الأندلس, على ثمانية آلاف كتاب عربي علمي فأطعموها النيران في يونيو من نفس العام. والذريعة دائما أنهم فعلوا ذلك لوجود نسخ من المصحف الشريف, ولم يجدوا من يسألهم وهل كان في تراث الإغريق مصاحف حتى دمرتموه؟

رأينا سماحة العرب وهم يحتلون البلدان وكيف كانوا يضمنون وبوثائق رسمية حقوق الغير والتي كانوا يُتبعونها من فورهم بالتطبيق العملي المشهود, بينما ما أن إستقر النصارى في الأندلس حتى أصدر فيليب الثاني عام 1566 مرسوما أمر المسلمين المنصرين قسرا وكرها بالتخلص مما بقي معهم من رموز تذكرهم بماضيهم الإسلامي الزاهر. كثرت المحرمات والممنوعات والعقوبات بمبرر وبدونه حتى طفح كيل المنصَرين العرب فثاروا عام 1568 ثورة عارمة لم يتمكن الجبروت النصراني من إخمادها إلا عام 1571 م. ثم انتهجوا سياسة التخلص المبرم من العرب بترحيلهم إلى العالم الجديد (أمريكا) ليُباعوا هناك عبيدا للعمل في المناجم أي لإبادتهم جماعيا. ما حل بالأندلس حل بكل منطقة حل فيها النصارى الجهلة أعداء الحضارة والإنسانية. طبعا مرسوم فيليب لم يكن الأول أو الأخير بل هو مثلا نسوقه للعلم.

**الحروب الصليبيـــــــــة:** تعددت الأسباب والموت والهدم والدمار للحضارة الإسلامية والإبادة البشرية واحد. في الغرب زعم الصليبيون إسترداد ما أخذه المسلمون يوما منهم سواء كانت الأندلس أو جزر المتوسط مما أسال لعاب أصحاب الصليب ليلاحقوا المسلمين وحضارتهم في عقر دارهم, ولكن حجة الإسترداد لا تنفع مع المشرق الإسلامي لذلك زعموا الحرب الدينية التي أسموها صليبية ليُطهروا, بزعمهم الكاذب, الأراضي المسيحية المقدسة في فلسطين من دنس المسلمين. لم يكونوا أقل تدميرا وقتلا للمسلمين وإبادة لتراثهم العلمي العظيم من إخوانهم في الغرب إلا أن الوجود الإسلامي الكبير في المشرق حد من رقعة الفساد في الأرض, ولكن أعداء الحضارة لم يقصروا حيث تمكنوا. مثلا, أحرقوا مكتبة طرابلس اللبنانية الكبيرة والثرية بالمراجع العلمية بحجة أنها كانت تحتوي على عدد كبير من المصحف الشريف. عقلية ساذجة وحقد دفين وإلا, فلما لم يحرقوا القرآن الكريم الذي جعل من العرب والمسلمين قوة لا تُقهر.

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**143. د. زغريد هونكة / شمس العرب تسطع على الغرب / ص 535**

لما دخل نابليون مصر تصرف بمثل أترابه في الغرب. ها هو يأمر جنوده بإبادة الأزهر فدخلوه ليعيثوا في خزائنه الثمينة بالعلم تدميرا وبالمتاع نهبا, وأعدم نابليون ثمانين من علماء الأزهر الثوار وأشعل النار في كل ما وصلت إليه أيدي جنوده من كتب في مكتبة الأزهر العظيمة الثراء. والحديث يطول ويحتاج لمجلدات. سبحان الله العظيم حتى أحفاد أولئك الجهلة لا يزالون على نفس الحقد والعداء للقرآن الكريم رغم ضعف أهله وهوانهم على أنفسهم. تدخل القوات الأمريكية بالزغاريد إلى العراق فإذا بجنودها يعمدون من فورهم إلى هذا الكتاب الذي قهر أجدادهم ولا يزال يقهرهم وسيبقى إلى يوم يُبعثون. أحرقوه وتبولوا عليه ورموا به في المراحيض, ثم نجد المسلمين يدافعون عن عدوهم بدلا من جمع الصفوف لردعه!!!

**الإحتـــلال الغربـــــــــي:**  تغير اللون والحجة وبقي الأسلوب المدمر والقاتل واحد. كان الغرب قد بدأ نهوضه من كبوته الطويلة حتى صار كأنه متحضر منذ القرن التاسع عشر ولكنهم لم يتخلصوا بعد من العداء لكل ما هو مسلم ولو كان حجرا أصم. كانت الخلافة الإسلامية العثمانية قد بدأت الإنحدار نحو التخلف طبقا لسنة الله في التداول فوجد النصارى في ذلك حجة ومبرر لانتزاع أملاك الخلافة التي أسموها رجل أوربا المريض بحجة الأخذ بيد تلك الشعوب الرازحة تحت التخلف العثماني إلى التحضر والتقدم بتخليصهم من جهالة العثمانيين وتخلفهم, وبذلك بدأ الغرب حركة إحتلال واسعة وللأسف وجد تعاونا من كثير من ضعاف النفوس في الشعوب المسلمة الذين إن لم يكونوا بلا عقيدة فقبلوا العمالة أو من الذين إقتنعوا بحجة الغرب ووعوده في ضوء حال الخلافة العثمانية البائس وتبنيها للمنهج العلمي الغربي مما أطمع تلك الشعوب في نيل الأفضل مما حصلت عليه خلافتهم من حضارة الغرب الوليدة. لكن إذا كان الصليبيون يدمرون مصادر الحضارة لدى المسلمين فأحفادهم فعلوا نفس الشيء وإن إختلفت الوسيلة. أولئك كانوا يحرقون مصادر العلم والمعرفة وهؤلاء ينهبونها وينقلونها إلى بلدانهم ليزدادوا تقدما وليحرموا أهلها من إمكانية الإستفاقة والعودة إلى التحضر. كذلك الحال كان مع الثروات الأخرى بحيث لم يغادروا الوطن المسلم إلا بعد أن أفرغوه تقريبا من كل ثورة كانت معروفة وأمكنهم الوصول إليها. أما علميا فقد حققوا ما خططوا له وهو عكس المعلن تماما فقد كرسوا:

1. الأمية الهجائية حتى وصلت إلى أكثر من تسعين بالمائة بين المسلمين أينما كانوا في العالم.
2. في المسلمين القطيعة مع ماضيهم المجيد.
3. التخلف بجميع أشكاله الإقتصادي والسياسي والإجتماعي وحتى العقدي.
4. فيهم عقيدة أن الإسلام دين والدين لا يصلح للبناء الحضاري وإنما هو عبادة لا يجب أن تتجاوز جدران المساجد التي لا تصلح هي الأخرى كمدارس تُخرج العلماء في كل العلوم. بذلك أكدوا قطيعة المسلمين مع ماضيهم وتبنوا فصل النصارى للدين عن الدولة لجهلهم أن النصارى كانوا محقين في ذلك لتحلف كنيستهم بينما لم يتحضر المسلمون إلا في ظل مسجدهم حين كان منارة للعلوم الدينية والدنيوية وأن تخلفهم مرده فصل العلم عن المسجد وفصل العقيدة عن العلم فضاع علمهم وضعفت عقيدتهم ولم يجنوا إلا مزيدا من التخلف.
5. ربط الدويلات الإسلامية الكثيرة بعجلة الغرب بعد أن إطمأنوا إلى أن المسلمين قد جهلوا حتى لم يعودوا يعرفون ما يضرهم وما ينفعهم مما يأخذون من الغرب, فصاروا يقلدونه إلا فيما يضر ولا ينفع ولا يزالون كذلك إلى اليوم. لن ينهضوا أبدا إلا إذا فهموا أن مسجدهم ودينهم هو السبيل الوحيد نحو الحضارة.
6. فيهم ما لا يجوز لهم فصاروا مثل الغرب بل وأسوأ, شيعا وأحزابا, فهذا يساري وهذا ليبرالي وذاك يميني والرابع محافظ متخلف وهلم جرة حتى رأينا مسلمين شيوعيين أي لم يعودوا يؤمنون أساسا بالدين لأنه في الشيوعية مرفوض ومُحارب كونه أفيون الشعوب حسب زعمهم الضلالي.

**المسلمـــــــون اليـــــــــــــوم**

يعلم المسلمون أن سنة التداول ماضية في البشرية لقوله تعالى في سورة آل عمران الآية 140 (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله, وتلك الأيام نداولها بين الناس, وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء, والله لا يحب الظالمين) صدق الله العظيم. يبدو أن المسلمين في العصر الحديث لم يعرفوا أن القرآن ذاته يتضمن أمر الله لهم بالأخذ بالأسباب وتكرار محاولة النهوض بالعودة الصادقة إلى الإيمان الراسخ والثقة الثابتة في أن الله ناصرهم ولكن بعد أن ينصروه هم وأولا. (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم).

المؤمن حقا يأخذ بالأسباب ويعمل ما في إمكانه لتبقى الأيام له ومعه, ولكننا اليوم وللأسف لم نعد أولئك المؤمنون حقا. فإن إبتُلينا سخطنا, وإن أصبنا سألنا الله تعالى لما يحدث ذلك معنا متناسينا أننا السبب. بدلا من الإتكال على الله والأخذ بالأسباب الصالحة لنا قلدنا غيرنا فلم نجني إلا الفشل تلو الفشل ولم نرعوي ونبحث عن السبب الحقيقي وهو إعطاء ظهورنا لديننا. عولنا على الغرب حين حل محل العثمانيين ولم نجني إلا تمزيق أمتنا لتصبح دولا كثيرة متناثرة في أنحاء الأرض كل بما ورث ممن سامه سوء العذاب من المستعمرين الغربيين فرحٌ, فصرنا أمما بدلا من أمة وتباينت ثقافتنا بدلا من تلك الثقافة الإسلامية الموحدة, وأخذنا من الغرب أسوأ ما عنده من عُري نسائنا وإدمان شبابنا على ما يدمرهم, وأكلنا الربا بحجة أن العمل المصرفي لا يكون إلا به, وتكاسلنا حتى عن أداء العبادات إن لم يهملها كثيرون منا. كل ذلك جلب علينا الهم والغم والبلاء وهي حرب الله تعالى ورسوله عليه السلام لأكلنا الربا. سلط الله علينا من بيننا من يحكمنا بكل ما عرف الإنسان من إستبداد وظلم وقهر وتخلف حتى إلتمسنا النجدة عند عدو ديننا وساب رسولنا ومحقر تقاليدنا. بدلا من مقاتله أطعناه فقتل بعضنا البعض ليس كعرب أو مسلمين فقط بل وأبناء الوطن الواحد والقرية الواحدة, ثم نقول لما حل بنا ما حل من عذاب؟ ولما طال أمده؟ نقول ذلك ونحن نعلم قوله تعالى **(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) صدق الله العظيم.**

لم تكن مصيبتنا في ديننا فقط وهي الأعظم والحالقة ولكن مصيبتنا عامة وشاملة جزاء وفاقا بما نعمل. حضاريا ضللنا الطريق حتى صار التخلف داء عُضالا لن نشفى منه إلا إذا عرفنا الترياق الصالح والشافي منه بقراءة تاريخنا قراءة الفاهم والمصدق والباحث عن الحقيقة. كتب أسامة الخولى عام 1982 حول حال أمتنا ومن يقرأ ذلك اليوم, بعد أكثر من ثلاثين عاما, يجد الوضع على ما هو عليه بل ربما أسوأ, وهذا قبس من مقالة الخولي:

* ""لقد وصل الأمر ببعضنا اليوم إلى ما يشبه اليأس من إمكانية الوصول إلى شيء مما كنا نتصوره قريب المنال منذ عقدين أو أقل قليلا... ولقد غدا جليا الآن أن جهود التنمية التي قامت في بلادنا على أساس محاكاة ذلك العالم "المتقدم" قد إنتهت بنا إلى عكس ما كنا نتوقع. فلقد إتسعت الهوة بيننا وبين ذلك العالم الذي نبغي اللحاق به من ناحية, وانتهت بنا في نفس الوقت إلى إتساع الهوة بين فئتين داخل مجتمعنا. فئة تحاكي العالم (المتقدم) وتعتنق مثله وترتبط به في الوفاء باحتياجاتها لأنه وحده القادر على توفيرها لها, وفئة أخرى عريضة إزدادت فقرا وعزلة عن الفئة الأولى, وعلى الرغم من كل جهود التنمية, وشهدنا ما أتى به هذا من مظاهر القلق الإجتماعي والإستقطاب الخطر بين الفئتين, وما يوفره هذا من أرضية خصبة لظهور تيارات متطرفة, يمينا ويسارا."" **144**  أليس هذا ما نعيشه اليوم تماما ونحن في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين؟

**تعليمنا مشكلة لا حـــــلا**

عالِم عربي كبير يعيش خارج وطنه منذ عشرات السنين ولكنه ظل قلبه مع أمته يتحسر عليها وهي ترفض نُصحه الصادق. سأله مذيع إستضافه عن الوسيلة التي تساعدنا على النهوض من كبوتنا التي طال أمدها واستفحل شرها, فرد ذلك العالم حقا بقوله: أمامنا ثلاثة حلول ولا رابع لها وهي: التعليم, ثم التعليم, وأخيرا التعليم. علق المذيع: لكن كل دولنا على كثرتها تخص التعليم بأقل الميزانيات! كأني بذلك العالم يُذكِر أمته بماضيها حين كانت أمة جهالة وتخلف ثم بالإسلام عرفت أن التعليم هو الحل وهو مفتاح التقدم والحضارة, فاندفعت كما رأينا تبني تعليما عربيا إسلاميا حقيقيا سخرت له كل إمكانياتها, فنجح أجدادنا وسادوا الأرض التي أناروها بالعلم والإيمان. أما نحن فلم نهدأ عن الحديث حول إصلاح التعليم والنتيجة هي تبني نظم تعليم غريبة عنا فماتت في مهدها وبمرور الزمن تفاقمت مشكلات التعليم عند فقيرنا وثرينا على حد سواء بدلا من أن تخف في الحد الأدنى. فما هي هذه المشكلات التي جعلت تعليمنا هو المشكلة بدلا من أن يكون هو الحل؟ من المؤسف أن كثير منها كان موجودا يوم إعلان إستقلالنا ولا يزال حيا يُرزق بل وأنجب المزيد من المشكلات. هذه أهم المشكلات ولا نقول كلها والتي تعيش معنا ونحن في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين. حدد الكاتب التربوي الغربي (ماثيوز) في كتابه "التعليم في الأقطار العربية في الشرق الأدنى" **145** مشاكل التعليم العربي في الأربعينيات من القرن العشرين:

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**144. أسامة الخولي / نقل التكنولوجيا الحديثة إلى العالم العربي / 24 و 27.**

**Matthews, “Education in Arab Countries of the Near East”, P. 539 R.D. 145.**

1. القطيعة مع الماضي: أن العرب المعاصرين أقاموا مدارس على النمط الأوربي لتحل محل الكُتاب بدعوى جسر الهوة الحضارية بينهم والغرب المتقدم. (نقرأ كثيرا لعلماء التربية الغربيين حول ضرورة ربط حاضر أي أمة بماضيها كي تنجح في حاضرها وتبني جسرا للنجاح مستقبلا ولا نعمل به!.)
2. تقليد الغرب في كل شيء يتعلق بالتعليم من المناهج وطرق التدريس ونظم الإمتحانات.
3. المركزية: سياسات التعليم, والمناهج المقررة, والكتب المدرسية, وخطة التوسع والنمو, والإختبارات والشهادات العامة كلها تأتي من مكاتب الوزارة في عاصمة كل أبلد..كل شيء يأتي من الإداراة المركزية في عاصمة كل قطر.
4. القضاء على الأمية: تواجه الحكومات تحديا مزدوجا وهو توفير مقعد في المدرسة لكل طفل بلغ السادسة من عمره والقضاء على الأمية بين الكبار.
5. التسرب من المدرسة: يتناقص كثيرا عدد التلاميذ الذين يُكملون المرحلة الإبتدائية في المرحلة التالية ويعود هذا في جزء منه إلى أسباب إجتماعية وإقتصادية والأهم إلى نوع المناهج والطرق المتبعة لتوصيلها لطلاب العلم, فهي جافة جدا وغير جاذبة للطفل وحتى لأولياء الأمور.
6. الإمتحانات العامة لا زالت تعاني الكثير من المشاكل التي تحول تخريجها لعناصر مؤهلة بحق.
7. تأهيل المدرسين: لا يزال التركيز على الكم دون الكيف بسبب الحاجة المتزايدة للمعلمين.
8. تعليم اللغات الأجنبية: لم تصل بعد إلى الهدف من تدريسها للطلاب.

نحن اليوم في العام 2013, فلو أجرينا مسحا لمشاكل التعليم في العالم العربي لنجده لا يزال يعاني من المشاكل التي تحدث عنها ماثيوز منذ ستين عاما واجترها من جاء بعده. القطيعة مع الماضي, فلا زالت الدول تتبنى نظم تعليم مستوردة خاصة من الغرب وتُطبقها بدون تهذيب أو إصلاح وفعل ما يلزم حتى تُصبح صالحة لنا, والمركزية لا زالت تترسخ أكثر من ذي قبل, والتسرب واضحا في أطفال الشوارع والعمل مما مد في عمر الأمية التي ورثناها عن عهد الإستعمار بين الأجيال الحديثة, وحتى تلك البلدان التي لعلها عممت التعليم فخريجوها من الضعف ألا يكون له من مكان إلا بين صفوف الأميين وإن تعلموا مبادئ القراءة والكتابة, وأخيرا من له دليلا علميا قاطعا بأن معلمينا اليوم أفضل منهم بالأمس بل الإجماع على أنهم أضعف بمراحل لدرجة أن البعض يحمل مؤهلات تربوية ولكنهم في ساحة التعليم لا يرقى الواحد فيهم إلى مستوى خريج الكُتاب. تقول قناة البريطانية الناطقة بالعربية يوم 11/9/2013 أن المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (ANESCO ( قالت قبل أيام عام أن الأمية الهجائية بين عرب اليوم تنخر عقول 97 مليون من أصل 345 مليون عربي. بدلا من إصلاح ما ورثناه فقد زدنا مشاكل التعليم كما وكيفا وهذه بعض الآلام المستحدثة:

1. ظاهرة الغش كانت قبل عقدين أو ثلاث مذمومة ومن يمارسها يفعل ذلك في سرية وبأسلوب السارق, ومع مرور السنين إستفحلت هذه الظاهرة حتى صارت كأنها حق مكتسب. بل نسمع في بعض البلدان العربية وصفها بالمساعدة وفعل الخير حتى صرنا كمعلمين قدماء نسمع من يقول لنا: إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء في كذب على الله العادل, ولا ندري أي رحمة في الغش؟ لذلك فالمعلم الذي ينجح بالغش لا شك أنه سيعوض فشله في توصيل المعلومة لطلابه بالسماح لهم بالغش وهذا ما دفع بالآلاف المؤلفة من حملة المؤهلات لا تزيد عن كونها حبرا على ورق. عرفنا معلمين لأطفال لعلهم في السنة الأولى الإبتدائية يكلفون الطفل بواجبات منزلية ستحلها لهم الأمهات أو الآباء لاستحالة قدرة المبتدئ على ذلك, والإجابة تصرخ أنها ليست للطفل ويسكت المعلم والمعلمة ليقينهم من عجزهم هم في أداء واجبهم كما يجب.
2. **الإختــــــلاط:** ونقصد به الإختلاط في مؤسسات التعليم ذكورا وإناثا في تقليد أعمى ومدمر بشكل فضيع لمجتمعاتنا العربية المجبولة على الحشمة والعفة والتي زادها الإسلام طهارة وسلامة نسب. كان الإختلاط من أكبر عوامل الهدم للتعليم فكمعلمين وأساتذة جامعات عشنا مساوئ ذلك ونحن نرى اليوم بأم أعيننا شبابا مراهقا يتخلى عن طلب العلم من أجل جلسة غرام حرام والنتيجة كارثية شملت تدني خطير في مستوى الخريجين لإندفاعهم وراء الشهوة فيُضيعون الكثير من الدروس أو المحاضرات ومنهم من يحضر ولكنه يكون فاقدا للتركيز لأن عقله هناك عندها أو عنده. قبل الإختلاط وحتى في سنواته الأولى كنا نعرف تفوق الأنثى على الذكر في علوم تناسبها فصرنا نراهما اليوم معا في أدنى مستويات التحصيل. هذا علاوة على ما للمراهقة من مخاطر دفعت بالجنسين إلى رذيلة ممقوتة وهي اللواط ومع الإناث لخشيتهن عقاب المجتمع العربي الذي لا يزال يتمسك بالعُذرية, وبعض الأقطار العربية صارت تصرخ ألما من زواج الطلاب عُرفيا خاليا من شروط الزواج الشرعي. كأني برجال التعليم نسوا أن الإختلاط كان دائما من الأسلحة الفتاكة لتدمير المجتمعات لذلك كان اليهود يسلطون أجمل بناتهم للإيقاع بأعدائهم. المأساة الكبرى أننا نسمع من بعضنا التدليل بالغرب على نجاح الإختلاط ولم يقولوا لنا إن كانوا كعرب ومسلمين يرضون لبناتهم بما عرفوه عن حياة طالبات الغرب اللائي يُشبعن غريزتهن وغريزة الشباب عن طريق الزنا ولذلك يذهبون إلى طلب العلم بشكل عادي.
3. **التعليم باللغة القومية:** كنا نعذر حكوماتنا بعد الإستقلال لأسباب عدة حالت دونها وتعريب التعليم. أما اليوم وبعد أكثر من نصف قرن من الإستقلال فلو ترجموا مقررا واحدا كل خمس سنوات لصرنا مثل دول وُلدت بعدنا وتخلصت من الإحتلال مثلنا ولكنها لم تُعلم أي علم إلا بلغاتها القومية فتقدمت وبقينا نحن حيث كنا إن لم نتأخر أكثر. مثلا لا حصرا, أين دولنا من كوريا الجنوبية والصين الشعبية وإيران والكيان الصهيوني وكلهم لم يعلموا شعوبهم بغير لغاتهم الأفقر من لغتنا وبعضها معقدة حتى عند أهلها؟ نقلد الغرب ونسمع له فيما يضرنا أما فيما يُفيدنا حقا فلا زلنا نُصر على عدم السماع له ولدراساته الكثيرة التي تؤكد باستمرار على ضرورة التعليم باللغة الوطنية وإلا فلا تقدما ولا حضارة تُرجى.
4. **تأهيــــل المعلميــــن:** وصف ( الطيباوي) المعلم العربي عام 1972 بأنه لم يكن أكثر من ناقل ومعلق على ما يُدرس وأقل من أن يكون مصدر إبداع وتكيف. ما الذي جد في هذا المضمار إلى يومنا هذا؟ لا شيء. المعلم المطلوب صار من الأحلام وكلما مر عقد من الزمان وجدنا المعلم الأسوأ تأهيلا وإعدادا وضميرا وحتى, للأسف, أخلاقا, مع الإعتذار للقلة القليلة ممن أصلحوا حالهم بعد التخرج فالغالبية فاقدة لكل شيء. إذا كان من يعد المعلم فاقدا لأهلية إعداد المعلمين فمن أين للمعلم من يصلح له حاله؟ نختم بقول الطيباوي عن المعلم الجامعي في ذلك الزمان بأنه صار من الصعب العثور على المعلم العظيم. ونقول اليوم أنه صار من المستحيل العثور على ذلك المعلم اللهم إلا في بقايا الشيوخ الذين لن يطول الأمد بهم حتى ينقرضوا.
5. **التعليم المهني والفنـــــي:** عندما يُصاب تعليم أي بلد بمثل كل تلك العوائق والمشكلات والفشل يكون ضرره عاما. لذلك لم يكن التعليم المهني والفني بأقل فشل من التعليم العام بل هو أكثر فشل لعقيدة شعوبنا بأنه يُعلم صنعة والصنعة يمكن تعلمها دون الحاجة إلى الجانب النظري وبذلك يُهمل الطالب الجاد كل ما يسمع ويركز على الجانب العملي, وللأسف فالمدرسون, لأنهم كما أسلفنا ضعيفي التأهيل والإعداد, شجعوا الطلاب على إهمال الشق النظري الذي يُعد المهني ليكون قادرا على الإبداع وعلى تطوير مهنته أو صنعته.
6. **المباني التعليميـــة:** كل المباني وخاصة تلك الخاصة بالدولة وبدرجة أخص الخاصة بقادتها من أفضله وتُوفر الراحة المطلقة لساكنيها إلا مؤسسات التعليم فمبانيها طاردة بكل ما في الكلمة من معنى منذ الإستقلال وازدادت طردا وسوءا. المباني غير كاتمة للصوت خاصة في مدرجات الكليات حيث لاتساعها يعاني الأستاذ والطلبة من رد الصدى, أما الإضاءة إن توفرت فهي تساعد على زيادة مشاكل الطلبة والمعلمين. رضي الجميع بالواقع المر ولكن السوء تفاقم. إعترف وزير التعليم المصري في بداية التسعينيات من القرن المنصرم أنه في مصر 25 ألف مدْرسة 75% منها غير صالحة لحفظ وصيانة كرامة التعليم. هذا نموذج يصح في معظم إن لم نقل كل مدارس العالم العربي. المعامل والمختبرات لا تزيد عن كونها مظهر ليُقال أنها موجودة, فهي أقل بكثير من حاجة المؤسسة الموجودة فيها, وتعاني من التوقف عن العمل أكثر من العمل لقلة الصيانة, وعندما تعمل ينقصها الكثير مما يساعد على الإستفادة منها فتُعطي نتائج غير صحيحة, وتُعاني من قلة الخبير الذي يساعد الطلاب على تحقيق القدر الأكبر من الفائدة. هذا الكلام ينطبق تماما على الحاسوب اليوم الذي دخل كل منزل تقريبا ولكنه كره دخول مؤسسات التعليم وإن أكره على ذلك فحاله حال المختبرات والمعامل.
7. **الإنفــــــاق:** كم هم العرب كرماء متى تعلق الإنفاق بالسلاح وأدوات الكبت والقهر حتى يصلوا التعليم فيُصبحون من أبخل الناس. ما كان إنفاقهم عليه سخيا ولا حتى معقولا يوما, ورغم ذلك يتناقص بمرور الزمن بدلا من أن يزيد. فمصر, مثلا, كانت تُنفق 22% من الدخل القومي على التعليم في ستينيات القرن الماضي ولكنه ظل يتناقص حتى وصل مع بداية التسعينيات من نفس القرن إلى 6% فقط. دائما نأخذ مصر كنموذج والواقع أن بقية الدول العربية صورة لما يحدث فيها.
8. **الجامعات:** كنا في الماضي نُعاني من قلة أعضاء هيئة التدريس في الجامعات من العناصر الوطنية ولكن تلك القلة كانت منتجة. كثيرون منهم كانوا يضعون مقررات لطلابهم, ويبذلون جهدهم في تنقية تلك الجاهزة. أما اليوم فقد كثر تصوير مقررات أجنبية معدة لطلاب يختلفون في كل شيء عن طلابنا علاوة على تضمنها لما ينافي قيمنا وأخلاقنا وديننا. يعود هذا إلى عدة أسباب منها: محدودية دخل الأستاذ الجامعي فصار يمارس عملا آخر لمواجهة تكاليف الحياة وأكرمها له هي الدروس الخصوصية وهذا يأخذ منه الوقت اللازم لكتابة المقرر المطلوب المتفق مع مستوى وحاجات وأخلاق المجتمع العربي الإسلامي. ثانيا, تدني مستوى تأهيل المعلم وحتى الأستاذ الجامعي فصار كلاهما غير قادر على تدريس المقرر والكتاب الجاهز كما يجب, فكيف يُطلب منه وضع أبسط مقرر؟ والأسباب كثيرة وكلها تدفع بالمعلم بعيدا عن أن يكون معلما بحق ورغما عنه في معظم البلدان العربية.
9. **تعليم اللغات الأجنبية:**  لا يزيد هذا عن كونه إطار جميل للعملية التربوية كما يتخيل البعض أو حاجة للفخر والظهور بمظهر العالم بلغة حضارة العصر. أما لما تُدرس, وكيف تقدم للطلاب, وما هو المستوى التحصيلي لهم فيها كيفا وحتى كما ولمن يجب أن تُدرس ومتى يكون تدريسها ضارا أكثر منه نافع و ... و... إلخ؟ فذلك خارج نطاق تفكير المسئولين عن التعليم. يدرس الطالب لغة أجنبية لسنوات تزيد في بعض الحالات عن الثمانية ليصل إلى الجامعة وهو غير قادر على قراءة فقرة, ما بالك بفهمها. لا زلنا نُصر على إستخدام مفردات أجنبية في حياتنا إعلاميا وفي مجالات عديدة مما يغرس في النشء عقيدة عدم قدرة العربية على مواجهة متطلبات التعليم العصري فيشبون عازفين عن اللغة القومية حتى صرنا نجد بين بعض أساتذة الجامعات من يقول بذلك رغم مستواهم العلمي. فما العيب في التعود على قول هاتف بدلا من تليفون, ومرئية بدلا من تلفزيون و هلم جرة؟ محطة إذاعية أرضية أو فضائية موجهة للعرب وناطقة بالعربية فلما تُسمى تسمية أجنبية؟ كمثال, فأي قناة اليوم أكثر شهرة من الجزيرة التي تعتمد الفُصحى في كل برامجها؟ أمثالها قليل كالعربية وحتى الإنجليزية الموجهة للعالم العربي.
10. في الجزء الثاني لمقالة حول مشاكل التعليم نشرتها مكتبة الحكم على العنكبوتية أوردت المزيد:**146**
11. إعتماد التعليم على الحفظ لمعلومات قديمة عفا عنها الزمن أو لا علاقة لها بنا مثل تلك التي تتحدث عن الإقتصاد الأمريكي.
12. توزيع مواعيد المحاضرات في الجامعات فالطالب يحضر محاضرتين إثنتين في اليوم وثمان في يوم آخر. هل للعقل البشري أن يتحمل ثمانية دروس ومختلفة المواضيع وفي اليوم الواحد؟

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**146. مكتبة الحكم – العنكبوتية (نت) "مشاكل التعليم – الجزء الثاني"**

1. تنعدم في الكثير من المدارس والجامعات الكثير من المرافق لدرجة قد تنعدم دورات المياه لآلاف الطلاب الذين عليهم البقاء ولو لنصف يوم فقط دون التفكير في قضاء حاجتهم وإن ألحت عليهم فليس أمامهم إلا الإنصراف إلى منازلهم. أما إن توفرت فقد تكون مسدودة أو قذرة تطلق رائحة أشد من رائحة مكب القمامة. كما تنعدم مرافق ضرورية أول تكون غير عاملة معظم الوقت مثل المختبرات وغيرها. بعض المرافق تكون موجودة ولكنها معدة بشكل يضر الطالب ولا يدربه مثل المرافق الخاصة بالتربية البدنية التي تكون أحيانا عبارة عن ساحة من الإسفلت تحيل من يقع عليها إلى الإسعافات.
2. غياب الإستقرار على نمط تعليمي معين لأن كل وزير أو حكومة جديدة تجب ما قبلها لتصنع خبزها بيدها والمصيبة الأكبر أن الوزير الجديد عادة ما يُصدر قرارات أو يغير مناهج أو ما شابه بناء على ما كان يرفضه وهو طالب فيفرض ما كان يرغب فيه دون مراعاة حتى الفارق في الزمن وما استجد بعده من أمور في المجتمع والتعليم عامة ناهيك عن خطأ فرض الرأي الخاص على الكل.
3. الإدارات المدرسية وحتى الجامعية لا زالت مبنية على الرجل المناسب في المكان الغير مناسب له من حيث تأهيله وخبرته وكل ما يتعلق بالوظيفة التربوية. نجد الكثير من الأطر التعليمية لا علاقة لها بالتعليم ولو كانوا إداريين ممتازين في المكان القادمين منه أو التأهيل الذي أعدوا له.

هذه أهم وليست كل مشاكل التعليم, معظمها كانت قائمة في فجر الإستقلال فكبرت مع التعليم وفرخت الكثير من المشكلات الجديدة لنصل إلى القرن الواحد والعشرين حاملين معنا هذا الكم الخطير من المشاكل القديمة والجديدة والأخيرة فراخا عديدة وُلدت شرعيا على الطريق الطويل ولا زلنا في سباتنا نتكلم كثيرا عن إصلاح التعليم وكأننا نقصد إضافة المزيد من المشكلات للتعليم التي جعلت خريج الأمس دائما أفضل من خريج اليوم, ثم نقول لما لم نتحضر؟؟ لن نتقدم إلا إذا قلدنا أجدادنا أو على الأقل قلدنا الغرب حين بدأ نهضته على أسس عربية إسلامية فتعلم من أسلافنا كيف يستفيد من سميننا وينقي العلم مما يعتبره غثا عنده وهو ديننا الذي صبغ أجدادنا كل العلوم بصبغته فنهضوا وجردنا حاضرنا من ديننا فكبونا ولم نقم. كيف تعلم الغرب منا ولم نعرف كيف نتعلم منه؟ كان الأجداد علماء أفذاذا حين تعلموا بالعربية وفي ذات الوقت كانوا علماء كبارا في لغات عصرهم الأجنبية. هنا نصل إلى الكيفية التي عالجنا بها مشكلات التعليم حتى صارت أجيالا متعاقبة بدلا من القضاء عليها أولا بأول وهي حلول عرجاء؟

1. كانت إلزامية التعليم مقتصرة على الست سنوات الأولى من التعليم المنظم المعروفة بالمرحلة الإبتدائية, وإذا بنا نصعدها إلى تسع سنوات تحت مُسمى المرحلة الأساسية بإلغاء الشهادة الإبتدائية بحجة أن إطالة مرحلة الإلزام يقلل من التسرب من التعليم, فإذا بالتساقط المبكر يرتفع أكثر. بدلا من مقاومة الآباء لست سنوات وعزائهم أن طفلهم صغيرا حتى ينال الشهادة الإبتدائية صار المتسربون يغادرون الساحة بقدر أعظم وبدون شهادة تُذكر. لم نفكر في العلاج الحقيقي وربما عرفناه ولكننا أغفلناه وهو معالجة الأسباب الإقتصادية والإجتماعية التي تُرغم الطفل على الإنخراط في سوق العمل في مثل تلك السن المبكرة, وإصلاح المناهج الجافة المعتمدة على الحفظ والبعيدة عن خلق الإنسان المستوعب للعلم والقادر على الإبداع بدلا من النفور منها بالهروب من المدرسة والتخلي عن العملية كلها ولو لم يكن أبواه في حاجة لعمله بل هما أحرص الناس على مواصلته الدرب العلمي.
2. لعلاج ضعف التحصيل عند الطلاب قلنا بأن ذلك مرده سهولة المنهج فعالجناه باستيراد مناهج غريبة شكلا وموضوعا ولا تتفق وظروفنا من جميع النواحي علاوة على أنها فوق المستوى الحقيقي لطلابنا, فزدناهم تعقيدا ونفورا لدرجة إما ترك التعليم أو التحايل بالغش والمحسوبية واستغلال ظروف المعلمين حتى صرنا نُعطي مجتمعاتنا معلمين تأهلوا بهذه الأساليب الجوفاء, ولما كان فاقد الشيء لا يُعطيه, فقد حصدنا منهم ما زرعناه فيهم وهو ثمار نكد.
3. كثرة التبديل والتغيير لا يزال أسلوبنا في معالجة الكثير من مشاكل التعليم. علاوة على إستبدال المناهج كما أسلفنا, غيرنا نظام الثانوية, على سبيل المثال, من تلك العامة إلى التخصصية, ثم عادت حليمتنا إلى ثانويتها القديمة. أدخلنا أعمال السنة في النتيجة النهائية للشهادات العامة فجعلناها مرة 40% وأخرى 50% واشترطنا حصول الممتحن على درجة معينة في الإمتحان النهائي كي يُعتبر ناجحا, وهي الأخرى مرة تكون 10 وأخرى 15 وثالثة 25 درجة إذا لم يحصل عليها الطالب بجهده في الإمتحان النهائي يُعد راسبا ولو حصل على درجة النجاح. مثلا, لو كانت درجة النجاح المطلوبة 50% وأعمال السنة 40% وحصل عليها الطالبة كاملة فإن عدم حصوله على 15 درجة من أصل ستون في النهائي يجعله راسبا بنص القانون. النتيجة صارت ما يُسمى بدرجتين هبة للنجاح بشرط أن تكون لمادة واحدة ستجعل الطالب راسبا فعممناها على كل المواد خارج القانون وعلم المسئولون وسكتوا مما شجع المفسدين في الأرض على إضافة تلك الصدقة حتى بلغت العشرين درجة وحتى لطلاب الجامعات وفي مادة واحدة. حدثني يوما رئيس قسم في جامعة بريطانيا عن عجبه من طلابنا الحاملين للثانوية فلا يفقهون شيئا مما تعلموا رغم أنه تأكد شخصيا من عدم وجود شهادات مزورة في ليبيا واطلع على المنهج فوجده كما قال جيدا جدا ولكنه لما إمتحن طلابنا لم يجد عندهم ولو ذرة من علم سنة أولى ثانوي. ما أفضل حالنا قبل هذا العلاج المُمرض بدلا من إحداث الشفاء!
4. تغيير المناهج جزئيا أو كليا أو تغيير أي شيء يتعلق بالعملية التعليمية يأتي مفاجأة وبدون سابق إنذار, فيحتار المعلم ولا يجد حلا إلا العودة إلى قديمه وتجاهل الجديد الغامض. مثلا, كان تعليم اللغة للمبتدئين يبدأ بالحروف الأبجدية ثم الكلمات فالجمل, ولما أثبتت البحوث عند المتقدمين في العالم أن التعلم بدءا من الكل إلى الجزء له إيجابيات عدة تم تغيير الكتب المنهجية فظن المعلمون أن إهمال الحروف لم يكن متعمدا فدرسوها لطلابهم من عندهم. ذلك لأن المعلم لا حساب له عند المسئولين. مثل هذه النقلة ما كان لها أن تقدم قبل تعريض كل المعلمين لدورة تنشيطية يفهمون خلالها الجديد القادم وفوائده بل ويُعطون آرائهم لعلها تُساعد في تلافي أي قصور.
5. إدخال تدريس اللغة الأجنبية مثل الإنجليزية إلى المرحلة الإبتدائية كعلاج للضعف الذي يصل عليه الطلاب إلى الجامعات. لا ندري ما يجب عليهم أن يفعلوا مع نفس الضعف الذي يحمله الطلاب معهم إلى الجامعة وفي لغتهم الأم, العربية؟ هل سيفرضون على الحامل تعلم اللغة العربية أو الإنجليزية لعل شيئا يصل إلى ما تحمل في جوفها أم ماذا؟ علما أن الطفل يتعلم العربية من السنة الأولى الإبتدائية. يطال تدريس اللغة الأجنبية دائما التغيير بأن يُلغى من المرحلة الإبتدائية بحجة علمية وهي أن مهمة هذه المرحلة غرس الوطنية في الطفل ثم ينتكسون فيعيدونها مرة أخرى باجترار الحجة القديمة وهي رفع مستوى تحصيل التلاميذ لما يصلوا الجامعة. العلاج البسيط والأولى هو معرفة الكيفية التي تُدرس بها تلك اللغة, فلو كانت موفقة فهي كافية للتحصيل السليم ولو قُدمت من السنة الأولى ثانوي. الحقيقة هي التي عرفها العرب زمن نهوضهم الحضاري حين علموا كل العلوم بالعربية واللغات الأجنبية كان يتعلمها من لهم حاجة بها مثل المترجمين وكبار العلماء ومن رغب في ذلك, وهو نفسه ما تفعله كل دولة في عصرنا تقدمت حقا ومنها من كانت خلفنا بمراحل. ما من دولة معاصرة تقدمت إلا ووجدناها تُدرس كل العلوم بلغتها الأم.

**فضل العرب على الغـــــــرب**

قلنا فيما سبق من أحاديث أن التعليم والحضارة هي تراكم لخبرات الإنسان عامة التي يستلمها الخلف من السلف ليبنوا عليها ويضيفوا إليها كي يستلمها اللاحقون ليفعلوا معها نفس الشيء وبذلك وصل الإنسان إلى القمر وعرف وسيعرف أكثر طالما كان يبني بيد واحدة وإن تشاجروا معا بالأخرى. عندما نتحدث هنا عن فضل العرب على الغرب فنعني كذلك فضل الإغريق وغيرهم على العرب وفضل القدماء على الإغريق والهنود, والله أعلم إلى من سيذهب فضل الغرب مستقبلا. هذه بعض أفضالنا على الغرب ومعظمها إن لم يكن كلها إعترف بها رجالات من الغرب كتبوا بنزاهة تاريخية وحياد إيجابي.

1. أحيى العرب المسلمون تراث الذي دمروه بأيديهم زمن عصورهم الوسطى كما سبق لنا شرحه. فلو لم يقيض الله لذلك التراث الثري والعظيم العرب المسلمين ليخرجوه من مدفنه وينفخوا فيه من روحهم فعاد حيا بإذن الله تعالى لما وجد الأوربيون يوم تخلصوا من تخلف الكنيسة ما يفخرون به. لقد وجدوا تراثهم وقد نطق العربية وبفصاحة وتقمص الروح الإسلامية وتطور حتى صار تراث الأولين في ذمة التاريخ لما أحدثه العرب فيه من تقدم وتطوير وإضافات وتجديدات ولما أضافوا إليه من إكتشافاتهم وإختراعاتهم. يُروى أن علماء الغرب حاولوا العثور على أصول المخطوطات الإغريقية ليفخروا بأنهم نهضوا بتراثهم الخاص بهم وليس بتراث المسلمين ولكنهم لما عثروا على البعض وجدوا موضوعه قد أحدث فيه المسلمون ما جعله عربيا خالصا ولم يعد لما في كتب الأولين من فائدة تُرجى ضمن سنة التطور, إلا إذا أرادوا التراجع إلى الوراء بدلا من التقدم. لذلك أودعوا ما وجدوا من تراثهم القديم متاحفهم التاريخية وساروا على هُدى ما وجدوه عندنا. فكان لنا بذلك فضلان: فضل الحفاظ لهم على تراثهم العلمي في شكل ترجمتنا له وفضل تحديث ذلك التراث ليوفر الأوربيون ما لا يقل عن ثمانية قرون.
2. الفضل الكبير الثاني هو نظام الترقيم وعلم الرياضيات ككل. فلو لم يُحدث العرب في الأرقام الهندية ما سبق لنا شرحه واختراعهم للصفر فكيف كان للغرب أن يبني حضارة هذه الأيام المبنية على الرقم العربي بنظام أرقامهم المستخدمة للحروف التي تحدثنا عنها في باب علم الرياضيات وهي أرقام تطول كتابتها علاوة على خلوها من الصفر؟ إن لم تخني الذاكرة فقد قرأت لأحد الكتاب الغربيين قوله أنه لو كان للعرب فضل نظام الترقيم فقط لاستحقوا عن جدارة تسميتهم بأنهم آباء حضارة القرن العشرين. "بقي مؤلف الخوارزمي – التكامل والمقابلة – بعد أن ترجمه جرارد أوف كريمونة المرجع الأول وربما الوحيد لدى أوربا حتى القرن السادس عشر الميلادي." **147** كما ترجم أدلارد أوف باث الكثير من أعمال الخوارزمي والبيروني وغيرهما.
3. وجود عالم المسلمين بالجوار الأوربي ساعد على وجود تواصل بين المواطنين الذين كان بينهم رجال أحسبهم مناضلين في أوروبا الذين تعلموا من العرب كيفية النهوض الحضاري عن طريق الترجمة فصاروا ينقلون كتب العلم العربي إلى اللاتينية أو لغة أوربية ما وفي سرية تامة. نذكر من هؤلاء الأبطال تمثيلا لا حصرا:
4. نقل (جوهانز هسبالنس Johannes Hispalensis) و (جيرارد دي كريمونا Gerard of Cremona) المتوفى عام 1187 م موسوعتين طبيتين مهمتين للعالم العربي الفارابي المتوفى عام 950 م. (جيوم 369) كما إشترك (جيرارد مع أدلرد أوف باث Gerard and Adlard of Bath) في نقل كتب عربية في الرياضيات والفلك. ( جيوم 381) أما مصنفات العرب في الكيمياء, خاصة

مجموعة الرازي وجابر بن حيان, فقد ترجمها كلها إلى اللاتينية مبكرا (روبارت تشستر Robert Chester ) البريطاني منذ العام 1144 م ومنها فقط عرف الغرب الكيمياء كعلم. كان (جيرارد) المولود عام 1114 في (كريمونا ) الإيطالية شغوفا بالعلم الذي كان محرما في وطنه لذلك رحل إلى مدينة طليطلة الأندلسية ليقينه من سماحة المسلمين وليغرف من النبع العربي

الأصيل فوجد عندهم كتاب (المجسطي) لبطليموس الإغريقي فترجمه إلى اللاتينية عام 1175 م ولكنه أخذ بذلك الكم الهائل من مصادر العلم والمعرفة المتقدمة أشواطا عما كان عند الإغريق فقرر البقاء لترجمة أكبر قدر من المراجع العلمية مستعينا بمواطنيْن أندلسييْن هما نصراني ويهودي فنقل ثمانين كتابا من العربية في مختلف العلوم ولو لم تعجله المنية عام 1187 لزاد أكثر, فكان أكثر من نقل من العربية بين الأوربيين. في الطب وحده ترجم عن العربية أعمال كل من حنين والكندي وابن سيناء وما خطه أبو القاسم في الجراحة. **148**

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**147. جلال مظهر / مآثر العرب على الحضارة الأوربية / ص 646**

**. Arnold & Guillaume “ The Legacy of Islam”, P. 347 148**

تمكن رئيس الأساقفة في طليطلة الأندلسية "ريموند" بفضل التسامح العربي العظيم من إنشاء مدرسة لترجمة العلوم العربية التي استمرت نشطة حتى القرن الثالث عشر الميلادي. في الأندلس مجددا قام اليهودي المتنصر (ابن داوود) بنقل الكثير من كتب ومخطوطات العرب في الرياضيات والفلك وغيرهما من العلوم العربية. قسطنطين الإفريقي, مسيحي من أصل إيطالي ولد في قرطاج بتونس التي كانت تُسمى إفريقيا عام 1020 م فتتلمذ على أيد علماء الإسلام وعاش معهم فتعلم لغتهم وكان يمارس تجارة العقاقير فاكتسب خبرة وحبا للعقاقير التي كانت تُعطر دكانه والطب عامة. لم يخرج من العالم المسلم إلا (عندما بلغ الأربعين, زار لأول مرة صقلية العربية, وكانت هذه الزيارة أول إتصال له بأرض الفرنجة, واتصل بالقصر, وكان هناك حديث طويل بينه وبين شقيق أمير سالرنو الذي كان طبيبا ... تحدثا خلاله عن أشياء كثيرة ... وتطرقا إلى موضوع الطب والعقاقير ... وحدثه قسطنطين عن معجزات الطب العربي وعن عقاقيره ما يشفي العليل في لمح البصر ... كان أن وعد محدثه وأصحاب محدثه بأن يُزودهم في سفراته القادمة بكنوز من الطب العربي بدلا من عقاقيره وحدها.)**149**  كأنه إستُثير بما وجده من سوء حال إخوانه الأوربيين في الجوار الصقلي من التخلف لذلك عاد إلى مصر ليدرس الطب هذه المرة في مدارس الإسلام, وبعد سنوات من طلب العلم شد الرحال إلى مدينة (ساليرنو Salerno) في إيطاليا حاملا معه كتبا كثيرة للعلم العربي خاصة تلك المتعلقة بالطب, واستقر هناك وأصبح قسيسا. إنقطع في الجبال ليترجم كتب الطب العربي فجاءت بلغة لاتينية ركيكة ولكنه وجد من نقحها له. بدأ الترجمة منذ العام 1070 م لكل ما حمل معه سرا من كتب العلم الإسلامي الحضاري خاصة في الطب إلى أن توفي عام 1087 م تاركا وراءه ثروة ظلت بعيدة عن أعين الدمار حتى جاء الوقت المناسب لتخرج إلى النور. يصف المؤرخون الأوربيون أعمال قسطنطين بأنها سيئة النقل من العربية فكانت نصوصه مشوشة ومليئة بالأخطاء وأحيانا غير مفهومة ولكنها ضلت صاحبة فضل في احداث التقدم الأوربي. (جيوم 345) كما إتهموه بالتزوير وإدعاء كتب إسلامية كثيرة لنفسه مثل كتاب "المقالات العشر في العين" للعالم حنين بن أسحق العبادي الذي أسماه ( . (De Oculisلم يكن قسطنطين وحده من إدعى لنفسه ما لغيره. لقد "كان الغرب يعتبر كتاب روجرز الساليرني الذي كتبه في سنة 1170 باسم (العمليات الجراحية) على أنه أقدم رسالة في الجراحة وهو لا يتعدى أنه نقل المعلومات من كتاب (كامل الصناعة) للطبيب العربي المجوسي الذي ترجمه قسطنطين الإفريقي" **150** علما أنه على ضخامة ما نقله العرب من تراث الأولين فلم يجد حتى النصارى المعادين للإسلام كتابا واحدا إدعاه العرب لأنفسهم حتى بعد أن طوروا موضوعه.

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**149. زغريد هونكة " شمس العرب تسطع على الغرب " ص 294**

**150. د. حسن فريد أبو غزالة "ساليرنو – جسر عبرته المعارف الطبية الإسلامية إلى أوربا" ص 121**

1. كانت الحروب الصليبية قد فتحت عقولا أوربية كثيرة بعد مشاهدتهم للتقدم العربي المبهر ولم يجدوا شيئا مما كانت تصف الكنيسة به المسلمين خُلقا وعلما. فعادوا بمعارف كثيرة. كان الجراح البولوني الإيطالي عام 1218 م مرافقا للحملات الصليبية لعلاج من يصاب من المقاتلين وكان في السبعين من العمر. لاحظ تسلل جنود النصارى المصابين إلى الجانب المسلم للتداوي مما أثار فضوله فزار

أطباء العرب لعلمه أنهم لا يعتدون على المسالمين فوجد عندهم ما جعله يعترف بأنه لم يكن يعرف في الطب شيئا. ظل يتعلم من المسلمين لثلاث سنوات حتى عاد إلى إيطاليا عام 1221 فصار يعالج الناس بما تعلمه من العرب حتى وفاته. والحديث يطول حول الكم الهائل من العلوم الإسلامية التي نقلها المناضلون الأوربيون من أصحاب العقول النيرة مضحين في سبيل العلم بحياتهم.

1. ظلت بلاد الأندلس منذ أن فُتحت بالإسلام عام 711 م إلى أن أظلمها النصارى عام 1492 مركزا عظيما لنور العلم دخلت أشعته الجوار الأوربي رغم أنف الكنيسة. كذلك كانت صقلية المسلمة منذ عام 212 ه = 827 م إلى 484 ه = 1091 م حين عاد إليها النصارى ولكنها كانت أفضل حظ من الأندلس, فقد حكمها النورمان الذين حافظوا على إزدهار الحضارة العربية رغم قلبهم للكثير من المساجد إلى كنائس وتصرفات أخرى سيئة مع المسلمين ولكن روجار الأول رفض ضغوط الكنيسة لتنصير المسلمين. بعد وفاته تولى ولده روجار الثاني فازداد قربا من المسلمين حتى قيل أنه ربما أسلم وكتم إسلامه وكان يسميه النصارى "روجار الكافر", ففي عهده كتب الإدريسي كتابه الشهير في الجغرافيا, وكان حكام صقلية النورمان من حمى ساليرنو حتى أضحت المدرسة الأولى للطب العربي في أوربا إلى أن غزاها نابليون عام 1811 م فقضى عليها وأعادها إلى عصر الظلمات.
2. بفضل أولئك الأبطال صار لأوروبا "في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ومستهل القرن الثالث عشر الميلادي كان في أوربا ثلاثة مراكز علمية متخصصة, وأول هذه المراكز كان في باريس وقد إشتُهر بعلم اللاهوت والآداب, والثاني في بولونيا واشتُهر بعلوم القانون, والثالث في ساليرنو الذي تخصص في علوم الطبابة. كانت مدرسة ساليرنو تُعرف باسم (مدرسة سالينو الطبية) لأن مُصطلح الجامعة كان يُطلق على الرابطة أو النقابة, ثم أصبح يُطلق على إتحادات المشتغلين بالعلم والتعليم من أساتذة وطلاب." **151** على الأرجح تاريخيا أن ندرسة ساليرنو قد أقامها أربعة علماء هم: (هيلينوس)معلم الطب بالعبرية, و (بوثيتوس) الذي كان يدرس نفس المادة بالإغريقية, و (ساليرنوس) معلم الطب باللاتينية وأخيرا (أدولا) وهو تحريف لعبد الله وهو أستاذ الطب بالعربية.
3. مما ساعد أوربا على التسريع في نشر العلم إنتقال صناعة الورق العربي الجيد من الأندلس إلى مدينة (فيريانو) الإيطالية حيث أقيمت مطاحن للورق بتقنيات عربية في العديد من الأوطان الأوربية.

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ.**

**151. د. حسن فريد أبو غزالة "ساليرنو – جسر عبرته المعارف الطبية الإسلامية إلى أوربا" ص 120**

لابد لنا هنا أن نعبر عن عجبنا من أنفسنا كيف لا يوجد لأي جامعة من جامعاتنا ولو صورة على ورق لعالم مسلم بينما لا زلنا نجد الداخل لكلية الطب في جامعة باريس يستقبله عند مدخلها العالمان المسلمان أبو بكر محمد الرازي (844 – 924 م) وابن سيناء (980 – 1037 م) في شكل صورة لكل منهما. كما لابد لنا أن نُثني على أولئك الأبطال الذين تحدوا الظلم وجهل الكنيسة فسربوا نور العلم إلى قارتهم سرا وعلانية والله وحده يعلم كم عالم أوربي قدم روحه قُربانا للعلم بتهمة الردة وتسريب علم الكفار المسلمين. علاوة على الأفراد كان لابد للجوار من التأثير في الجار, لذلك تسربت العلوم من مرابضها الإسلامية في الأندلس, وصقلية ومعها ساليرنو وحتى الحروب الصليبية. يورد (مهدي ناكو ستين Mehdi Nako Steen) تسع قنوات عبرت خلالها علوم العرب المسلمين إلى الغرب وهي كالتالي: **152**

1. تم طوال القرن 12 م ومعظم القرن التالي ترجمة أعمالا إسلامية في مختلف العلوم والفلسفة إلى اللاتينية وكثير منها وصلت الغرب من الأندلس قبل سقوطها بيد النصارى فأثرت المناهج الغربية خاصة في شمال غرب أوربا.
2. عرف الغرب من العرب لا غير المنهج العلمي التجريبي في تناولهم لكل العلوم.
3. عرف الغرب كذلك نظام الترقيم والكسر العشري من الرياضيات العربية وحدها.
4. ظل ما ترجموه من مراجع عربية في الطب لرجال عظام مثل ابن سينا المقررات العلمية للتعليم العالي إلى منتصف القرن السابع عشر الميلادي.
5. كان للعرب فضل تنشيط الفكر الأوربي وربطه بالتراث الثقافي الإغريقي وغيره مما ساعد على قيام ما يُعرف بعصر النهضة الأوربية (Renaissance).
6. يُعتبر العرب بحق المؤسسون الحقيقيون للجامعات العلمية الأوربية بما أقاموه في بلادهم من مئات الجامعات الأكثر تقدما من تلك في أوربا.
7. حفظ العرب للغرب التراث الإغريقي والفارسي عن طريق ترجمتهم لكل ما وصل منه إلى أيديهم وهو الذي لم يتسامح معه النصارى يوم تحكموا فيه.
8. حمل الطلاب الأوربيون الذين درسوا في الجامعات الإسلامية معهم إلى أوطانهم طرق تدريس حديثة ومفيدة.
9. للعرب يعود فضل معرفة الأوربيين للنظام الصحي والبيئي السليم ومعرفة فوائد الأطعمة والأعشاب وغير ذلك.

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**. Mehdi Nako Steen “ History of Islamic Origin of Western Education”, P. 58 152**

10, الحديث شيق ويطول ولا يتسع هذا العمل إلا لنماذج تمثيلية فقط وقد قدمنا منها الكثير. يبقى أن نعرف حقيقة صارت اليوم في ذمة التاريخ ولا قدرة لأحد على تغييرها وهي أن الأوربيين قلدوا العرب في تبني علوم المسلمين من حيث الترجمة والتدريس باللغة اللاتينية بل ووصلت بعض البلدان إلى حد ترجمة التراث الإسلامي وما تُرجم منه إلى اللاتينية إلى لغاتهم الوطنية قبل طرحه على طلاب العلم. لقد فطنوا تماما كما فطن أجدادنا أنه من الأجدى والمفيد والأيسر لطلاب العلم التعلم عبر لغاتهم, بل وحتى أوفر إقتصاديا إذ بدلا مما نقوم به نحن اليوم بتعليم اللغات الأجنبية للآلاف المؤلفة من طلابنا كل عام ونُنفق البلايين وبدون مردود يمكن الحديث عنه, كانوا هم وأسلافنا قد ترجموا الكتب وليس البشر. لذلك تقدموا وتخلفنا ونهضوا وكبونا.

**دروس مستفـــــــادة**

سبق لنا أن عرفنا التعليم والحضارة وعرفنا أن كليهما لا يتطور إلا إذا بنا الإنسان على ما تركه له أخاه الإنسان بغض النظر عن دينه ولونه أو أي فروق أخرى وإلا لما وصلت الحضارة الإنسانية إلى ما نعرفه ونعيشه اليوم من معجزات وخوارق علمية كبرى. كانت الحضارة الفرعونية المصرية القديمة متقدمة جدا ولكنها وُلدت في عصر ما قبل التاريخ, أي قبل معرفة الإنسان للكتابة ليدون بها أحداثه فتبقى نبراسا للشعوب القادمة, لذلك ضاع الكثير من المصالح البشرية الحضارية ورغم ذلك وصل النذر اليسير لمن خلفهم حتى فتح الله على أيد العرب والساميين عامة معرفة الحرف والكتابة فكان فتحا عظيما مكن الإغريق من تدوين حضارتهم في مخطوطات حاول عمى الكنيسة النصرانية القضاء عليها ولكن ما نجا من دمارها صنع به العرب المسلمون أساسا متينا لحضارة عظيمة لا زالت حديث الألسن والأقلام, فكانوا من ربط الماضي بالحاضر الغربي لنشهد نحن حضارة الغرب المعاصرة. منذ القدم عرف الإنسان أن المنقذ له الأول بل والوحيد هو التعليم الذي يكون منه وله. لم نعرف في التاريخ أن العرب القدماء وإخوانهم الساميين قرأوا أو كتبوا بلغة مصر التي لم تكن تُكتب ولكنهم عرفوا ما يفيدهم في حضارة مصر ليصنعوا حضارتهم بإقامتهم تعليمهم وبلغتهم, ومثلهم فعل الإغريق والهنود وغيرهم وكذلك العرب المسلمون وأخيرا أوربا المسيحية. رغم هذه الحقائق لا زلنا نصر على أن نبني تعليما عربيا اسما غربيا محتوى ففشلنا رغم كل الجهود المبذولة.

الحقيقة الغائبة أو بالأحرى التي نتجاهلها تقول صارخة أنه لا يمكن لأي تعليم أن يكون ناجحا بمجرد تبني ما لدى الغير بعلاته وعيوبه وحسناته لأن ما يصلح للغير لا يكون بالضرورة صالحا لكل الناس, وما هو ممتاز هناك لن يكون حتما كذلك هنا. فما صلح للإغريق والهنود وغيرهم ما كان ليصلح للعرب لو لم يصبغوه بصبغتهم العربية الإسلامية وكذلك لو لم يُنطقوه لغة الضاد ويعلموه لأجيالهم بها. كلام لا نقوله تعصبا أو استرسالا وإنما أثبتته البحوث والدراسات في كل زمان وخاصة في عصرنا الذي أثرى علماء الغرب هذا الجانب بالكثير من التجارب والدراسات والخبرات.

قامت جامعة أمريكية بتجربة لمعرفة جدوى التعليم بلغة أجنبية من التعليم باللغة الأم وقد خصت ذلك بالعرب بأن أخذت مجموعتين من الطلاب العرب وقد توفرت فيهما شروط البحث العلمي. درست المجموعة الأولى مادة علمية بواسطة اللغة العربية واستُخدمت اللغة الإنجليزية في تدريس المجموعة الثانية نفس المادة فكانت النتيجة أن المجموعة الأولى إستوعبت المادة بنسبة 16% أفضل من أختها. بذلك أكدت صحة النظرية التعليمية القائلة بأن الذي يدرس بلغة أجنبية ولو أتقنها كان عليه تحويل ما يسمع من المُحاضر أو يقرأ في الكتب إلى لغته حتى يُحسن فهم الموضوع. بذلك يُضيع وقتا مهما كان سيستفيد منه في فهم واستيعاب المزيد, بينما ذلك الذي يدرس بلغته لا يضيع شيئا وعليه يكون فهمه أكبر وتحصيله أوفر كما ثبت من التجربة . هذا علاوة على أن المحاضر بلغة أجنبية قد يكون ذو لكنة يصعب على طلابه فهمها كما يجب, أو يكون سريع الإلقاء فقد يفقد الطالب جزءا مما يسمع لعجزة عن مواكبة سرعة الأستاذ في تدوين الملاحظات. أجرت جامعة الكويت استبيانا حول نفس موضوع الجامعة الأمريكية, فكانت النتيجة 83% من المعلمين و 84% من الطلبة الذين إشتركوا في الإستبيان قد أجمعوا على أن الفهم يكون أفضل في حالة سماع الدرس باللغة العربية عنه باللغة الإنجليزية.

قامت بعض المحاولات في العالم العربي قديما وحديثا لتعريب بعض المواد وكانت ناجحة تماما إلا أن الزعماء السياسيين أجهضوها لصالح عقيدتهم المريضة بأن التعليم بلغة المتقدمين أجدى. هكذا ركبوا رؤوسهم دون التمعن في التجربة. كان محمد علي الكبير المتوفى عام 1849 م حاكما لمصر ورغم أنه تركي الأصل إلا أن إسلامه عربه فصار نصيرا قويا للعربية حتى انه أمر ثلة من رجال التعليم بتعريب مناهج الطب وتدريسه بلغة القرآن الكريم موفرا لهم كل ما طلبوا. جاءت المناهج العربية لا تقل جودة عن تلك الفرنسية السائدة وقتها وجاءت النتائج مشجعة جدا على تعميم التجربة لتشمل بقية المناهج ولكن خليفة محمد علي إغتال التجربة. قام أساتذة الرياضيات في جامعة (إربد) الأردنية في القرن العشرين بترجمة مقررات الرياضيات إلى العربية ودرسوها لطلابهم فكانت النتيجة مفاجأة حتى لهم بأن حققت أكثر مما توقعوا ولكن حظ التجربة كان عاثرا فقد إستُبدل عميد الكلية بآخر الذي سرعان ما وأد الوليد العربي.

من المفارقات في زماننا أن نجد الحكام المستبدين أقرب إلى تسويد العربية من أولئك الذين نحسبهم أقل إستبداد وأرحم بشعوبهم وأقوى عقيدة وإيمانا. قد يقول القائل أن الجبارين أعلوا العربية لجهلهم اللغات الأجنبية, وردنا في بساطة أنه إذا كان القذافي لا يعرف الإنجليزية فبشار الأسد طبيب أمراض العيون كان قد درس في بريطانيا, أي انه يُتقن الإنجليزية, لكنه وجد تعليم العلوم في بلده يُدرس بالعربية فلم يُلغي ذلك وأخشى ما نخشاه أن يلغيه الحكام بعد الثورة المجيدة المنتصرة على جبروته بإذن الله. لعل سوريا هي البلد الوحيد الذي يتعلم طلابه كل العلوم المعاصرة باللغة العربية ويأخذون بنصيب طيب من اللغات الأجنبية لأجل فهم المراجع. أكد المطلعون على الأحوال في الغرب أنه يقبل الوافدين من علماء سوريا بينما قد يرفض غيرهم ممن تعلموا بلغات أجنبية وهذا ليس لسواد عيون السوريين بل لأنه وجدهم جيدي التأهيل. ( الجزيرة ) اليوم نسمع ونقرأ كثيرا عن نشاط مجامع اللغة العربية التي تقول أنها وفرت كل المصطلحات العلمية الحديثة باللغة العربية إلا أنه لم يطرق بابهم أحد من الجامعات العربية وكل من فعل كان كاتب مقال حول صلاح العربية لتعليم العلوم الحديث فاحتاج لمفردات علمية يثري بها مقالته أو مقدم برنامج إذاعي له علاقة بالموضوع.

لم يكتفي العرب والمسلمون بتبني اللغات الأجنبية في التعليم بل سمحوا بتداول عبارات أجنبية داخل مجتمعاتهم وهو مسمار يُؤذي الطفل الذي يشب بإحساس أن لغته العربية لا تصلح للحضارة بدليل أنها عجزت عن توفير عبارات ومصطلحات إجتماعية بسيطة. لذلك لا غرابة أن نرى من ركب السلطة يعادي العربية كلغة علم. فما الضير في قول "مرئية" بدلا من تلفزيون أو تلفاز, وحكيم بدلا من دكتور بالنسبة للطبيب أو علامة بدلا من دكتور في تخصصات أخرى والشبكة أو العنكبوتية بدلا من (النت) وهلم جرة.

كانت كثير من الدول العربية في بداية القرن الماضي أقرب إلى التقدم الحضاري واللحاق بركب الأمم المتحضرة بامتلاكها العوامل التي تُحدث ذلك متى خلصت النوايا وتأكد العزم. مقارنة مع اليابان العظيمة التقدم اليوم (كانت حصة الفرد في الناتج المحلي الإجمالي في مصر في عام 1913 أعلى بقليل من مثيلتها في اليابان, كما كانت حصة الفرد من التجارة الخارجية (الإستيراد زائد الصادرات) ضعف مثيلتها في اليابان, كذلك كانت شبكة سكك الحديد في مصر أوسع (بالنسبة للمساحة والسكان) من مثيلتها في اليابان ... كانت مصر تتمتع بفائض زراعي كبير. فالإنتاجية الزراعية في مصر عام 1844 كانت توازي مثيلتها في فرنسا وألمانيا, وحوالي ضعف مثيلتها في أجزاء العالم العربي.)**153**  وكان لها مميزات كثيرة أخرى. واليوم بل ومنذ عقود أين هي مصر وأين صارت اليابان ما بالك بفرنسا وألمانيا؟؟؟ لما حدث ذلك؟ قبل الإجابة يجب أن يعرف القارئ أننا أخذنا مصر نموذجا ونقصد كل الدول العربية والإسلامية قبل وبعد الإستقلال الذي مرت عليه عقود عديدة ولا زال الجميع حيث كانوا في فجر الإستقلال السياسي بل كثيرون ساء حالهم أكثر, ولكن مصر تبقى رأس الأمة والنموذج الصالح إن صلح من تولى أمرها صلُح الجسد كله.

الجواب في بساطة أن الذين تقدموا ويتقدمون إلى اليوم أدركوا أن التقدم لا يتم بالتنمية المادية فقط بل التنمية البشرية هي الأساس والتي عمادها التعليم, فأقاموا تعليما جادا وأنفقوا عليه بسخاء. لم تتقدم مصر وتقدمت اليابان لأنه لما كان أطفال اليابان متعلمون بنسبة 97% عام 1907 كانت الأمية الهجائية تنخر عقول 93% من الشعب المصري. سُئل رئيس وفد إقتصادي كان في زيارة إلى العراق عام 1971 عن السر وراء المعجزة اليابانية؟ فرد بأن ذلك كان بسبب إعادة النظر جذريا في النظام التعليمي. وأخيرا لا نمل التكرار أن اليابان علمت بلغتها على ما بها من صعوبة وتعقيدات بينما مصر لا زالت تعتمد اللغات الأجنبية رغم ثراء ومرونة العربية. كان دخل الفرد الكوري الجنوبي عام 1961 حوالي خمسة دولارات فقط. روى أحد العلماء العرب أن كوريا ومصر تقدمتا يومها بطلب من المؤسسة التي يعمل بها

**ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**153. مجلة العربي الكويتية / الظاهرة اليابانيـــــــة ...... / ص 156**

في أمريكا طالبتا النصح كي تتقدم. أرسلت المؤسسة خطة بذلك إلى كلتا الدولتين وزُبدتها إعطاء التعليم كل موارد البلد إلا جزء محدود لمواجهة الضروريات ولمدة سبع سنوات فقط. نفذت كوريا وأهملت مصر النصيحة فإذا بالأخيرة وأخواتها العربيات والمسلمات يقفن على باب كوريا مثل المتسولين.

مرت الأعوام والعقود لنصل إلى العام 1983 م فنقرأ مقالة في مجلة العربي الكويتية تتحدث عن أن للعالم العربي 27 ألف من حملة درجة الدكتوراه, نصفهم متخصصون في العلوم المعاصرة أي التطبيقية التجريبية مع توقع زيادة بنسبة 10% سنويا. إذٍا لابد لذلك العدد أن يكون قد تضاعف مرارا إلى اليوم ونحن في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين الميلادي. بالمقابل كان للولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وألمانيا نفس الكم زمن الحرب العالمية الثانية (39-1945 م) **154** رغم ذلك لم تتقدم أي دولة عربية إلى يومنا هذا لأن نظمنا الحاكمة جعلت من وطننا طاردا لعقوله بدلا من أن يكون جالبا لعقول الغير لأنه في الدرك الأسفل من التخلف.

علاوة على تعريب التعليم فلا نتوقع النجاح طالما كانت مؤسساتنا التعليمية مثل السجون والتي في بعض البلدان المتقدمة أفضل من منازلنا. يُعاني طلابنا صيفا من الحرارة وشتاء من البرودة مما يجعلهم يترقبون نهاية الحصة والراحة بفارغ الصبر فلا يُعطون بذلك للدرس أذانهم وعقولهم. الفصول وقاعات المحاضرات في الجامعات مبنية بشكل غير صحي فالصدى يشوش على الطالب و(الزغللة) أي وهج الضوء تُضعف قدرته على نقل ما يكتب الأستاذ على السبورة ومعاش المعلم يجعله يمارس نشاطا آخر ليواجه تكاليف الحياة وهذا لابد أن يكون على حساب التعليم. يقول كاتب غربي يُدعى (أدموند كينج Edmund King) في كتابه "مدارسهم ومدارسنا"متحدثا عن نجاح التعليم في الدنمارك بشكل جعله أفضل مما لدى أخواتها الأوربيات لعدة أسباب منها إهتمام الدولة بالمباني المدرسية بحيث تكون الفصول كاتمة للصوت وذات إضاءة جيدة وخالية من عوامل التوهج (الزغللة)، والعنصر الذكوري يغلب على الأنثوي بين المعلمين وغير ذلك. أدركتْ دول العالم أن التعليم مدى الحياة صار ضرورة حتمية, واحتلت هذه الضرورة الأولوية في كل مؤتمر تربوي أو وسيلة إعلام, ويقول علينا أن نتكيف وعلى جميع المستويات وباستمرار مع تحديات مختلف الأعمال ومختلف الأدوار الأسرية, ومختلف الآمال الشخصية ومختلف الأوضاع الإجتماعية والسياسية والإقتصادية وغيرها, ولايتم ذلك إلا إذا تم إعادة تقييم نظام التعليم الأمريكي .**155**  كأني بهذا الكاتب الأمريكي يُذكرنا بحديث نبينا عليه السلام (أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد). كما قال علماء تربية أمريكيين قبل أكثر من عقدين من الزمان بأن التعليم الأمريكي في خطر. هكذا يكون الحريص على تحقيق المزيد من النجاح وإلا فأين حال التعليم في كل العالم حتى المتقدم فيه ما بالك بمن في مقامنا من التعليم الأمريكي الذي نأكل كلنا من ثمار إنتاجه العظيم في كل المجالات. فإذا كان التعليم الأمريكي يحتاج لإعادة تقييمه وهو كذلك في خطر فكيف نصف حالة

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**155. مجلة العربي الكويتية / الظاهرة اليابانية .../ ص 156**

التعليم عندنا؟ هل مات أم هو ميت سريريا؟ إنها مأساة بل وأكبر من المأساة التي لا تضعف بل تتفاقم مع مرور الزمن. بذلك وصلنا إلى درس مهم خاصة في أيامنا هذه وهو دور الإعلام في بناء أو هدم التعليم.

**هــدم التعليـــــم إعـــــلاميــــــــــا**

الإعلام بكل وسائله له دوره سلبا أم إيجابا, ولكننا لا زلنا نتعامل معه كمصدر للترفيه وتقصير العمر بإضاعة الوقت ولم ينتبه أو قل لم يهتم علماء التربية رغم علمهم بالدور الخطير الذي يلعبه الإعلام في إنجاح أو إفشال العملية التعليمية. اليوم وقد صار الإعلام يربط العالم بعضه ببعض في نفس اللحظة والحين وصار في الإمكان شن الحروب به على العدو مثل إفساد أخلاق المسلمين وتدمير شروط العفة والحشمة عندهم بمحطات إباحية كثيرة نجدها على الشاشات وكأن العرب في حاجة لكل ذلك الكم من الصور المدمر والحاثة على الجريمة وهتك الأعراض. إعلامنا العربي الذي ركب مثل غيره الفضاء ولكنه لا يزال عاجزا عن تقديم خدمة مفيدة للمجتمعات العربية الإسلامية. بل كثير من القنوات الفضائية تُقدم ما يُفسد ولا يُصلح وكأن تلك القنوات التي يبثها الأعداء غير كافية لتخريب مجتمعاتنا.

كثرت القنوات ولكنها في الواقع تُكرر نفسها وتدور في حلقة واحدة. كلها لا تركز على التعليم بل لا تهتم به بالكلية. لا أحد من أصحاب تلك القنوات فكر في أن تسمية قناته العربية والموجهة للعرب بأسماء أجنبية وكأن الاسم العربي صار عارا أو معوقا لنجاح القناة. لم يعتبروا, مثلا, بالجزيرة التي هي عربية اللسان والاسم والبيان وتستخدم الفصحى في كل برامجها ورغم ذلك فلو جمعنا كل ذلك الكم الهائل من القنوات العربية والإسلامية الأخرى لما مثلت خمسة بالمائة من شهرة ونجاح الجزيرة ومن على شاكلتها. وإذاعة لندن البريطانية تبث بالعربية الفصحى منذ عقود وتتربع على قمة الإعلام المُتابع من البشرية وتملك قلوب الأغلبية الساحقة للمستمعين العرب. أما المسلسلات التي تملأ الفراغ فلم تزد عما عرفناه سابقا من كلام في مشاكل الحب والعشق والغرام وإثارة الغرائز وكأن وطننا لا مشاكل له غير الزواج وما يتعلق بالأعراض! مشاكل أمتنا تسد كل فراغ ولعقود كثيرة قادمة. إذا لما مثل هذه السفاسف من المسلسلات إلا إذا قُصد منها وعمدا ترسيخ الرذيلة وتشجيع البنات على التمرد على أبائهن والأولاد مثلهن. صارت المسلسلات تدرس المراهقين أساليب الإيقاع بالآخر والتحايل عليه وتضييعه.

ظهرت كثير من القنوات المسماة بالإسلامية فحمدنا الله تعالى طمعا في أنها ستُصلح ولو بعض ما أفسدته تلك القنوات الغير إسلامية, وإذا بها لا تشد إليها حتى من يُسمون بالمتدينين أو الملتزمين خاصة إذا كانوا على علم وافر. يتنقل المتفرج بين تلك القنوات فيرى عجبا. من فضيلة الشيخ أو الإمام صار الدكتور, وبدلا من ذلك

**ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ**

**P. 83 / Edmund J. King / Their Schools and Ours 155.**

الرداء الدال على أن صاحبه عالم دين وكان يجلب له كل الإحترام فإذا ببعض العلماء يربي بالجلباب بعيدا ويحشٌر نفسه في الزيالافرنجي وربطة العنق حتى لو لم تناسبهم. صار علماء العربية وحماتها يخاطبون المشاهدين بالدارجة بحجة إفهام العامة ولو سألوا أميٌ في مزرعته يفلح الأرض عما ورد في أخبار الجزيرة أو العربية أو لندن لأجاب على الفور كذا وكذا, وكلها تذيع بالفصحى. بدلا من قيام العلماء بتثقيف الأمة الإسلاميةوغرس الثقة بالعربية فيهم باستخدام مصطلحات عربية, صرنا نسمع فضيلته يقول: (المايك – والتلفاز – والأستوديو – وأس أم أس .....). أما مواضيع البرامج فكلها واحدة متكررة بعدد القنوات الدينية. كلها تهتم بالعبادات والسيرة النبوية وتفسير القرآن الكريم ولكن في الجانب التعبدي والإيماني. فأين أحاديث (إقرأ) القرآنية؟ وأين حديث حضارة المسلمين العظيمة؟ وأين وأين؟ جعلوا الناس يفهمون أن الإسلام كما يقول العلمانيون والمتحررون دين عبادة وليس حكم أو علم أو حضارة, وأن ما نقرأه عن حضارة عربية إسلامية ما هي إلا أضغاث أحلام وأماني. تأتي هذه القنوات لترسخ عمليا مزاعم العلمانيين ومن على شاكلتهم. مثلا, تمنينا أن نجد قناة إسلامية تحدثنا لما نجح المسلمون في فهم آيات العلم الدنيوي فكان لهم مدارس الطب والهندسة إلى جانب الفقه والحديث؟ وتقدم مسرحيات وأعمال فنية تُحدث الأجيال عن المجد الحضاري المادي الإسلامي وكيف مزج المسلمون الأوائل الدين بالدنيا فصنعوا أول حضارة مادية متدينة. نختم فنقول: تغمدكم الله بالرحمة والمغفرة يا أجدادنا. فهمتم دينكم كما يجب وكما هو فسدتم وتحضرتم وتقدمتم حتى صرتم على قمة المجد لا يضاهيكم أحد في عالم زمانكم, بينما نحن أحفادكم فهمنا ديننا فهما معوجا فلم نعرف للتقدم طريقا.

################

**المراجـــــــــع**

**كتـــــب عربيــــــــــة**

1. المصحف الشريف / الأزهر / مطبعة المصحف الشريف.
2. منير بعلبكي / قاموس "المورد" إنجليزي-عربي / الطبعة 27 / دار العلم للملايين , بيروت , لبنان , 1993 .
3. أسماء فهمي / مبادئ التربية الإسلامية / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر , القاهرة , مصر , 1947.
4. الشيخ مصطفى الغلاييني / لباب الخيار في سيرة المختار/ المكتبة المصرية للطباعة والنشر, بيروت , لبنان, الطبعة الثانية المجددة, 1956.
5. جلال مظهر / مآثر العرب على الحضارة الأوربية / مكتبة الأنجلو-المصرية, القاهرة, مصر, 1960.
6. أحمد بن عامر / تونس عبر التاريخ / مكتبة النجاح, تونس العاصمة, تونس, 1960.
7. عفيف عبد الفتاح طبارة / روح الدين الإسلامي / مطبعة الجهاد, بيروت, لبنان, الطبعة الخامة, 1962.
8. د. صبحي الصالح / علوم الحديث ومصطلحه / دار العلم للملايين, بيروت, لبنان, الطبعة الثالثة, 1965.
9. الشيخ محمد الخضري بك / تاريخ التشريع الإسلامي / المكتبة التجارية الكبرى, القاهرة, مصر, 1965.
10. د. علي عبد الواحد وافــي/ حقوق الإنسان في الإسلام / دار النيل للطباعة, القاهرة, مصر.
11. د. أحمد شلبي / تاريخ التربية الإسلامية / وضع وترجمة المؤلف / مكتبة النهضة المصرية, القاهرة, مصر, الطبعة الثالثة, 1966.
12. أحمد فؤاد الأهواني / التربية في الإسلام / دار المعارف, القاهرة, مصر, الطبعة الثانية, 1975.
13. د. عمر محمد التومي الشيباني / فلسفة التربية الإسلامية / المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان, طرابلس, ليبيا, 1978.
14. العبادي وزيادة والعدوي / الدولة الإسلامية – تاريخها وحضارتها - / دار نهضة مصر للطبع والنشر, الفجالة, القاهرة, مصر.
15. د. زغريد هونكـــة / شمس العرب تسطع على الغرب / ترجمة فؤاد بيضون وكمال دسوقي / دار الآفاق الجديدة, بيروت, لبنان, الطبعة الرابعة, 1980.
16. عمــر فــرُوخ / عبقرية العرب في العلم والفلسفة / المكتبة العصرية, بيروت, لبنان, 1980.
17. الإمـــام الـزُهـــري / المغازي النبويــــة / حققه وقدم له د. سُهيل زكار / دار الفكر, دمشق, سوريا, 1980.
18. عمـــر فـــرُوخ / العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي / دار العلم للملايين, بيروت, لبنان, الطبعة الثانية, 1981.
19. د. عمر محمد التومي الشيباني / تطور التعليم العالي في ظل الحضارة الإسلامية / المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان, طرابلس, ليبيا, 1982.
20. رشيد حميد حسين الجميلي / حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة/ الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع, طرابلس, ليبيا, 1982.
21. منصور أحمد الحرابي / الدولة العربية الإسلامية – نشأتها ونظامها السياسي - / دار إقرأ للطباعة والترجمة والنشر والخدمات الإعلامية , طرابلس, ليبيا, 1983.
22. د. أحمد الفنيش / أصــــول التربيــــة / الدار العربية للكتاب, طرابلس, ليبيا, 1987.
23. شوقي أبو خليل / الحضارة العربية الإسلاميـــة / منشورات كلية الدعوة الإسلامية, طرابلس, ليبيا, 1987.
24. حسين حمادة / تاريخ العلوم عند العرب / الشركة العالمية للكتاب, دار الكتاب اللبناني, مكتبة المدرسة, بيروت , لبنان, 1987
25. د. عمر فروخ, ود. ماهر عبد القادر ود. حسان حلاق / تاريخ العلوم عند العرب / دار النهضة العربية للطباعة والنشر, بيروت, لبنان, 1990 م.
26. ليفي بروفنسال – ترجمة ذوقان قرقوط / حضارة العرب في الأندلس / منشورات دار مكتبة الحياة, المكتب العالمي للطباعة والنشر والتوزيع, بيروت, لبنان.

**تقارير وبحوث ومقالات**

1. تقرير وفد مصر إلى مؤتمر وزراء التربية ووزراء التخطيط العرب / الأزهـــــــــــر / طرابلس, ليبيا, 1966.
2. بحث وفد ليبيا إلى مؤتمر وزراء التخطيط العرب / طرابلس, ليبيا, أبريل 1966.
3. نجيب صالح / قصة الحرف العربي من الألف إلى الياء / مجلة الصياد اللبنانية, بيروت, لبنان, عدد يوم 2/12/1971.
4. مجلة الحوادث اللبنانية / فن الزركشة الإسلامــــي / بيروت, لبنان, عدد يوم 16/3/1973.
5. محمد جلال كشك / الأزهر – ثورة أجهضت / مجلة الحوادث اللبنانية / بيروت, لبنان, 16/3/1973.
6. أسامة أمين الخولي / نقل التكنولوجيا الحديثة إلى العالم العربي / مجلة العربي الكويتية / الكويت, عدد فبراير 1982.
7. مجلة العربي الكويتية / الظاهرة اليابانيـــــة / الكويت, عدد ديسمبر 1983.
8. د. حسن فريد أبو غزالة / ساليرنو – جسر عبرته المعارف الطبية الإسلامية إلى أوربا / مجلة العربي الكويتية, الكويت, عدد يونيو 1985.
9. عبد الرزاق البصير / تعريب التعليم بالجامعــــات / مجلة العربي الكويتية, الكويت, عدد أغسطس 1985.
10. د. محمد الرميحي / الخطاب العلمــي العربــــي / مجلة العربي الكويتية, الكويت, عدد مايو 1986,
11. د. ملكــة أبيــــض / التعليم في المسجد الجامع بدمشق قبل نشوء المدارس / مجلة العربي الكويتية, الكويت, عدد مايو 1986.
12. مجلة العربي الكويتية / في التربيـــــــة / الكويت, سبتمبر 1986.
13. مجلة العربي الكويتية / الشرطة – متى عرفها العرب / الكويت, أكتوبر, 1986.
14. فاضل السباعـــي / كتاب التيسير في المداواة والتدبير / مجلة العربي الكويتية / الكويت, أكتوبر, 1986.
15. د. مجدي يوسف / مسألة إزدواجية التعليم – النموذج المصـــري / صحيفة الأهرام الدولي المصرية / القاهرة, مصر, يوم 13/7/1987
16. حسين حمادة / تاريخ العلوم عند العرب / الشركة العالمية للكتاب – دار الكتاب اللبناني – مكتبة المدرسة, بيروت, لبنان, 1987 م
17. د. حسن إبراهيم / العرب والتربية في القرن الحادي والعشرين – تحديات بلا إستجابة / مجلة العربي الكويتية, الكويت, يونيو 1990.
18. د. زُهير عبد الوهاب / تعقيـــــب – التعليم الجامعي ولغتنا العربية / مجلة العربي الكويتية / الكويت, يونيو 1990.
19. عمر فروخ و ماهر عبد القادر و حسان حلاق / تاريخ العلوم عند العرب / دار النهضة العربية للطباعة والنشر, بيروت, لبنان, 1990 م

**-------------**

**مراجــــع أجنبيــــة**

1.Muhammad Marmaduke Pickthall / The Meaning of the Glorious Qur'an / Dar al-

Kitab al-Lubnani / Beirut, Lebanon, 1973.

2. A S Hornby /The New American Library of World Literature, Inc., N.Y., USA, 1963.

3. Matthews, Roderic D., / Education in Arab Countries of the Near East / George Banta Publishing Company, Menasha, Wisconsin, USA, 1949.

4. Bernard Lewis / The Arabs in History / Harper & Row Publishers, N.Y., USA, 1958.

5. David Cushman Coyle / National Development and How it Works / The New American Library of World Literature, Inc., N.Y., USA, 1963.

6. Mehdi Nako Steen /History of Islamic Origins of Western Education / University of Colorado Press, Boulder, Colorado, 1964.

7. F. Eby and Charles Flinn Arrowood / The History and Philosophy of Education – Ancient and Medieval / Prentice-Hall, Inc., N.J., USA, 1940 (13th Printing, May, 1964)

8. Abdul-Rahman Azzam, The Eternal Message of Muhammad / Translation of the Arabic Edition by Caesar E. Farah / The Devin-Adair company. N.Y., USA, 1965.

9. H.A.R. Gibb & H. Bowen / Islamic Society and the West / Oxford University Press, London. U.K. 1965.

10. Edited by late Sir T. Arnold and A. Guillaume / The Legacy of Islam / Oxford University Press, London, U.K., 1968.

11. Henry Pirenne / Mohammed and Charlemagne / John Dickens & Co., Northampton, England, 1968 (Translated by Bernard Miall the French Edition)

12. Dr. Ahmad Shalaby / I S L A M – Belief, Legislation, Morals / The Renaissance Bookshop,Cairo, Egypt, 1970.

13. G.E. Grunebaum / Classical Islam – A History 600 – 1258 / George Allen and Unwin Ltd., U.K., 1970 (Translated from Germany by Katherin Watson)

14. Tibawi, A.L. / ISLAMIC EDUCATION – Its Traditions and Modernization into the Arab National Systems / Headly Brothers Ltd., London, U.K., 1972.

15. Marshal G.S. Hodgson / The Venture of Islam – The Classical Age of Islam / Volume I / The University of Chicago Press, Chicago, USA, 1974.

16. Edmund J. King / Other Schools and Ours – Comparative Studies for Today / Billing & Sons Ltd., Guilford. Surrey, U.K., 1973.

17. Sumali Alwi / A Christian Muslim Dialogue / Omar Brothers Publications, Singapore, 1979.

18. Edited by Pier Paolo Giglioli / Language and Social Context / Clays Ltd., 1990.

19. Newsweek Magazine / Why SAT Score Decline / Washington, USA, 5.9.1977.